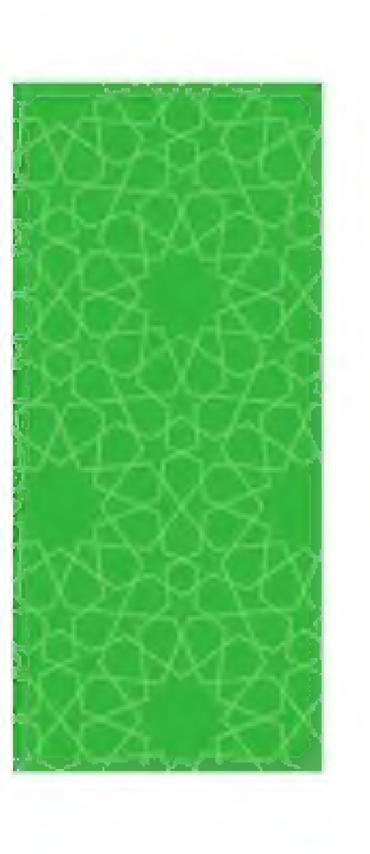
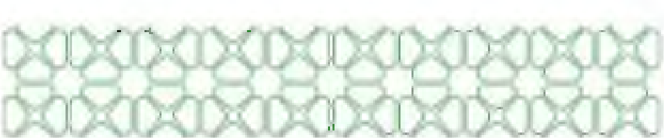
أعمال القلوب





محمد صالح المنجد







أعمال القلوب

محمد صالح المنجد



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المنجد، محمد صالح

أعمال القلوب. / محمد صالح المنجد، - الرياض، ١٤٣٧هـ

٤٦٠ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٨-٨٢-٨٠٤٧-٦٠٣-٩٧٨

١. الوعظ والإرشاد ٢. الفضائل الإسلامية أ. العنوان

ديوي: ٢٦٧ ١٤٣٧/٤٥٣٦

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

الناشر



المملكة العربية السعودية

الخبر - هاتف: ٨٦٥٥٣٥٥

جدة - هاتف: ٦٩٢٩٢٤٢

ص.ب: ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢

www.zadgroup.net

امتياز التوزيع



المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

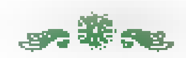
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ - فاكس: ٤٨٨٩٠٢٣

هاتف مجاني: ٩٢٠٠٢٠٢٠٧

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥



المحتويات



المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آله وسلم، أما بعدُ:

فالقلبُ هو سيدُ الأعضاء وأميرُها، إذا صَلَح صلَحت سائرُ الأعضاء، وإذا فَسدَ فسدَت سائرُ الأعضاء، فهو معقِدُ آمالِها، ومحطُّ رجائها.

وأعمالُ القلوب -من الإخلاصِ، والخوفِ، والرجاء، والتوكل، والخشية، والإنابة، وغيرِ ذلك- هي الغايةُ من أعمالِ الجوارح.

ومن تأمَّلَ الشريعةَ في مصادِرِها ومواردِها، علمَ ارتباطَ أعمالِ الجوارح بأعمالِ القلوب، وأنها لا تَنفعُ بدونها، وأن أعمالَ القلوب أفرضُ على العبدِ من أعمالِ الجوارح، وهل يُمَيَّزُ المؤمنُ عن المنافق إلا بما في قلبِ كل واحدٍ منهما من الأعمالِ التي ميَّزت بينهما؟ وهل يمكنُ لأحدٍ الدّخول في الإسلام إلا بعملِ قلبِه قبل جوارِحِه؟

وعبوديةُ القلبِ أعظمُ من عبوديةِ الجوارح وأكثرُ وأدومُ، فهي واجبةٌ في كل وقت؛ ولهذا كان الإيمانُ واجبَ القلب على الدوامِ، والإسلامُ واجبَ الجوارح في بعض الأحيانِ.

وأعمالُ القلب هي التي تحفظُ على العبد دينَه، وتُسلِّحه ضدَّ شياطينه، ولا يزكُو القلبُ، ويطهرُ، ويستقيمُ، إلا بهذه الأعمالِ الشريفة، التي تقرِّب العبدَ من ربه، وتطوِّعُ له جوارحَه لعبادتِه، والامتثالِ لأمرِه، بل ولمحبةِ ذلك، والرغبةِ فيه، حتى تكونَ عبادةُ الله أشهى إلى النفوسِ المستقيمةِ والقلوبِ السليمة، من الأهواءِ المُنحرفةِ إلى النفوسِ السقيمةِ والقلوبِ المُلتاعَة.

وشرفُ المؤمن في مُكابدةِ نفسِه، ومعارضةِ هواهُ، ولا يتم له ذلك إلا بالنّزولِ في تلك المقاماتِ الكريمة، التي يَنزِلُها أولياءُ اللهِ الصالحون، من الأتقياءِ العالِمينَ العامِلينَ، فلا ينزلُ العبدُ مَقامَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ إلا بالتقوى، والخشيةِ، والرغبةِ، ولا يُكرَمُ بِنُزُلِ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ إلا بالإخلاصِ، والمحبةِ، والتوكلِ، والتفكرِ، والرضا، ولا يَحُوزُ فَضلَ: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ إلا بالتّوبةِ، والإنابةِ، والوَرعِ، والصبرِ، والمحاسبةِ.

وفي هذا الكتابِ نستعرضُ أهمّ أعمالِ القلوبِ، التي عليها مدارُ أعمالِ الجوارحِ، نتكلّمُ عن أهمّيتِها، وأثرِها على القلبِ والبدنِ، ونستخلصُ مِن كلامِ أهلِ العلمِ وأحوالِهم ما يتبيّن به سُموُّ هذه المقاماتِ، وعلوُّ شأنِها، ونتكلمُ عن ثَمراتِها اليانعةِ، التي يجتَنيها المؤمنُ -باكتسابِها- في دينِه ودنياهُ وآخرتِه.

واللهُ المسؤولُ أن يعينَنا في أمرِنا، وأن يجعلَ أقوالَنا حجّةً لنا لا علينَا، وأن يرزقَنا الإخلاصَ في القولِ والعملِ؛ إنه سَميعٌ قريبٌ.





الإخلاص

مقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلَام علَى أشْرَف الأنبِيَاء والمُرسَلِين، نبِيِّنا محمَّد، وعلَى آلِه وصَحْبِه أجْمعِين.

أمَّا بعد:

فإنَّ الإِخْلَاص هو لبُّ العِبَادة وروحُها، وأساسُ قَبول الأَعْمَال وردِّها، وهو أهم أَعْمَال القلوب، وأعلاها، وأساسها، وهو مفتاح دعوة الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ونتعرف في هذا الفصلِ على معنى الإخلاصِ، وثمراتِهِ، وعلاماته، والأضرار التي تحيق بالعبد عند فقده، وحصول خلافه، إلى غير ذلك من مسائله.

نسأل الله تعالى أنْ يتقَبَّل أعمالنا، ويخلص نِيَّاتنا، ويصلح قلُوبنا؛ إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

معنى الإخلاص

الإخلاص في اللغة:

مأخوذ من الفعل [أخلَص] والذي مضارعه [يُخلِص]، ومصدره: [إخلاصاً] أي: أمحض الشيء، جعله محضاً ولم يخلط معه غيره، وأخلص الرجل دينه لله أي: جعله محضاً لله ولم يخلط معه في دينه أحداً.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وقرئ بالكسر [المخلِصين].

قال ثعلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني بـ[المخلِصين] الذين أخلصوا العبادة لله تعالى، و[المخلَصين] الذين أخلصهم الله تعالى».

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١]: «قرئ [مخلِصاً]، والمخلَص: الذي أخلصه الله فجعله مختاراً خالصاً من الدنس، والمخلِص: الذي وحّد الله تعالى خالصاً» ولذلك قيل لسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سميت بذلك لأنها خالصةٌ في صفة الله تعالى وتقدّس، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ».

وكلمة الإخلاص: هي كلمة التوحيد.

والشيء الخالص: هو الصافي الذي زال عنه شَوبُه الذي كان فيه[1].

وقال الفيروز آبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخلص لله: ترَك الرياء»[2].

(١) لسان العرب (٧/ ٢٦)، وتاج العروس (ص٤٤٣٧).

(٢) القاموس المحيط (ص٧٩٧).

وقال الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخلاص في اللغة: ترك الرياء في الطاعات»[١].

معنى الإخلاص في الاصطلاح:

ذكر العلماء في تعريف الإخلاص عدة تعريفات، وأهمها ما يلي:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخلاص: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة»[٢].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخلاص: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفائه، وتحقيقه: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه يسمى خالصاً، ويسمى الفعل المخلص إخلاصاً، قال الله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الفرث والدم»[٣].

وقيل: «الإخلاص: تصفية الأعمال من الكدورات»[٤].

وقال حذيفة المرعشي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإخلاص: أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن»[٥].

وقال بعضهم: «الإخلاص: أن لا تطلب على عملك شاهداً إلا الله، ولا مجازياً سواه»[٦].

وورد عن السلف الصالح معانٍ عديدة للإخلاص، منها:

- **أن يكون العمل لله تعالى، لا نصيب لغير الله فيه.**
- **تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.**
- **تصفية العمل من كل شائبة[٧].**

والمخلِص - بكسر اللام - هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدرٍ له في قلوب الناس من

(١) التعريفات (ص٢٨).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٩١).
(٣) التعريفات (ص٢٨).
(٤) التعريفات (ص٢٨).
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن (ص١٣).
(٦) مدارج السالكين (٢/ ٩٢).
(٧) مدارج السالكين (٢/ ٩١-٩٢).

أجل صلاح قلبه مع الله عز وجل، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله.

وكثيراً ما يرد في كلام الشرع والناس استعمال لفظ (النية) مكان (الإخلاص).

والنية في الأصل عند الفقهاء: هي تمييز العبادات عن العادات، وتمييز العبادات عن بعضها البعض[1].

فتمييز العبادات عن العادات: كتمييز غسل التنظيف عن غسل الجنابة.

وتمييز العبادات عن بعضها البعض: كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر.

وعلى هذا التعريف: فالنية ليست داخلة في موضوعنا، ولكن إذا أطلقت النية وأريد بها تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ فهذه هي النية التي تدخل في معنى الإخلاص.

والإخلاص في العبادة والصدق فيها متقاربان في المعنى، لكن هناك بعض الفروق بينهم، فالفرق الأول: أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرعٌ وتابع له، والفرق الثاني: أن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، أما الصدق: فقد يكون قبل الدخول فيه[2].

***

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١١)

(٢) التعريفات (ص٢٨)

الأمر بالإخلاص

في القرآن الكريم:

لقد أمر الله عزوجل عباده بالإخلاص في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وأمر نبيه ﷺ أن يصف نفسه بإخلاص العبادة لله، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].

وقال أيضاً: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ووصف تعالى نفسه بأنه ما خلق الموت والحياة إلا ليبلوَ الناس أيهم أحسن عملاً، فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ عن العمل الحسن: «هو أخلصه وأصوبه». قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟. قال: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة». قال ابن تيمية تعليقاً على كلام الفضيل رَحِمَهُمَا اللهُ: «وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣).

قال الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تَقَضَّتْ بِكَ الأَعمارُ فِي غَيرِ طَاعَةٍ سِوَى عَمَلٍ تَرضَاهُ وَهوَ سَرَابُ
إِذَا لَم يَكُن للهِ فِعلُكَ خَالِصاً فَكلُّ بِنَاءٍ قَد بَنَيتَ خَرَابُ
فَلِلعَمَلِ الإِخلَاصُ شَرطٌ إِذَا أَتَى وَقَد وَافَقَتْهُ سُنَّةٌ وَكِتَابُ[1]

ووصف الله تعالى أحسن الدين بأنه إسلام الوجه لله والإحسان، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]. وإسلام الوجه لله: هو الإخلاص، والإحسان: متابعة السنة.

وقد أوصى الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته معه أن يكونوا مع أهل الإخلاص، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

ووصف الذين يريدون وجه الله بأنهم هم المفلحون، فقال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

ووعد المخلص بالنجاة من النار، والرضا يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وذكر من أوصاف أهل الجنة: الإخلاص في الدنيا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ووعد المخلصين بالأجر العظيم في الآخرة، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) عيون الرسائل والأجوبة على المسائل لعبد اللطيف آل الشيخ (٢/ ٦٧٣)

في السنة النبوية:

لقد بيَّن النبي ﷺ أهمية الإخلاص والصدق في النية، وجعل مدار الأعمال عليها، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»(١).

وهذا الحديث من أهم الأحاديث النبوية؛ لاشتماله على قاعدة شرعية تدخُلُ كلَّ العبادات، ولا يُستثنى منها شيء، فالصلاة والصيام والجهاد والحج والصدقة وغيرها من العبادات، كلها محتاجة إلى النية الصالحة، والإخلاص في العمل.

ولم يكتفِ النبي ﷺ ببيان هذه القاعدة للناس، وأن مدار العمل على النية، بل ذكر جملة من الأعمال، وحثَّ على تصحيح النية فيها؛ لأهميتها، ومن تلك الأعمال:

- **التوحيد**: قال رسول الله ﷺ: «**مَا قَالَ عَبْدٌ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ قَطُّ مُخْلِصاً، إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، حَتَّى تُفْضِيَ إِلَى الْعَرْشِ، مَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»(٢).
- **الخروج إلى المساجد**: قال رسول الله ﷺ: «**صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاَتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ ضِعْفاً، وذلكَ أنه إذا تَوضأَ فأَحسَنَ الوضوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ**»(٣).
- **الصيام**: قال ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٤). وقال ﷺ: «**مَنْ صَامَ يَوْماً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً**»(٥).

---

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) رواه البخاري (٦٢٠)

(٤) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)

(٥) رواه البخاري (٢٦٨٥)، ومسلم (١١٥٣).

- قيام الليل. قال ﷺ: «مَن قَامَ رَمَضَانَ إِيمَاناً وَاحتِسَاباً؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ»[١].
- الصدقة، وذكر الله: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَبعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يومَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجتَمَعَا عَلَيهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيه، وَرَجُلٌ دَعَتهُ امرَأَةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فَأَخفَاهَا حَتَّى لاَ تَعلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَت عَينَاه»[٢].
- الجهاد: قال ﷺ: «مَن غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَم يَنوِ إِلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَا نَوَى»[٣].
- اتباع الجنائز: عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسلِمٍ إِيمَاناً وَاحتِسَاباً، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيهَا، وَيَفرُغَ مِن دَفنِهَا؛ فَإِنَّه يَرجِعُ مِنَ الأَجرِ بِقِيرَاطَينِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثلُ أُحُدٍ، وَمَن صَلَّى عَلَيهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبلَ أَن تُدفَنَ فَإِنَّهُ يَرجِعُ بِقِيرَاطٍ»[٤].

في كلام السلف:

لقد تنبه السلف الصالح إلى أهمية الإخلاص بعد قراءتهم لهذه الآيات والأحاديث، فأعطوه شأناً عظيماً، وأدركوا خطورته وأهميته.

فقد كانوا يبتدئون بالحديث عنه في مؤلفاتهم، كما بدأ البخاري رحمه الله بحديث: «إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[٥].

قال عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله: «لو صنفت كتاباً في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الأعمال بالنيات في كل باب»[٦].

---

(١) رواه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).
(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٣) رواه النسائي (٣١٣٨)، وأحمد (٢٢٧٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.
(٤) رواه البخاري (٤٧) واللفظ له، ومسلم (٩٤٥).
(٥) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).
(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٦).

كما أنهم بينوا أن النية أهم من العمل نفسه، قال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تعلموا النية؛ فإنها أبلغ من العمل»[1].

وقد كان العلماء يؤكدون على الاهتمام بتعليم الناس الإخلاص، يقول ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وددت لو أنه كان من الفقهاء مَن ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات، ليس إلا»[2]؛ لأنه ما أُتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك.

وفي الجهة المقابلة، فإن الله ذم أهل الرياء، والذين يريدون بأعمالهم الدنيا، وبيّن عاقبتهم.

فقال عز من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**». **قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً**»[3].

فيا أيها المسلم، اختر لنفسك طريقاً من هذين الطريقين، إما طريق الإخلاص لله وقصد وجهه بالطاعة، وإما طريق الرياء وإرادة الدنيا، واعلم أن الناس يبعثون على حسب نياتهم، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[4]، ثم بعد ذلك لا تلومنّ إلا نفسك، إن هلكت مع الهالكين من أهل الرياء.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٨).

(٢) المدخل للعبدري (١/ ١).

(٣) رواه أحمد (٢٣٦٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٥).

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٧٩).

ثمرات الإخلاص

إن للإخلاص فوائد كثيرة، وثمراتٍ جمّة، متى ما تحقق هذا الإخلاص في قلب العبد المؤمن الصالح، ومن تلك الثمرات:

- قبول العمل:

عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[1].

- حصول الأجر:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرتَ عَلَيهَا»[2].

- تعظيم العمل الصغير حتى يصبح كبيراً:

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «رب عمل صغير تكثره النية، ورب عمل كبير تصغره النية»[3].

- مغفرة الذنوب:

الإخلاص من أعظم أسباب مغفرة الذنوب، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال.

---

(١) رواه النسائي (٣١٤٠)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٥٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

«يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِن أُمَّتِي يَومَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسعَةٌ وَتِسعُونَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ الله عز وجل: هَل تُنكِرُ مِن هَذَا شَيئاً؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: لاَ ظُلمَ عَلَيكَ، فَتَخرُجُ لَهُ بِطَاقَةٌ قَدرُ الكَفِّ، فِيهَا شَهَادَةُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ الله، فَيَقُولُ: أَينَ تَقَعُ هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فتوضَعُ هَذِهِ البِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، وَالسِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، فَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، وَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ»[1].

فهذا حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص، وإلا، فأهل الكبائر الذين دخلوا النار يقولون كلهم: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة.

وفي الحديث: «أَنَّ امرَأَةً بَغِيّاً رَأَت كَلباً فِي يَومٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئرٍ، قَد أَدلَعَ لِسَانَهُ مِنَ العَطَشِ، فَنَزَعَت لَهُ بِمُوقِهَا -أي: سقته بخفها- فَغُفِرَ لَهَا»[2].

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها؛ فغفر لها، وإلا، فليس كل بَغِيٍّ سقت كلباً يغفر لها[3].

- **إدراك أجر العمل، وإن عجز عنه:**

بالإخلاص يدرك الإنسان الأجر على العمل وإن عجز عنه، بل ويصل لمنازل الشهداء والمجاهدين وإن مات على فراشه، قال عز وجل في وصف من لم يستطع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذه معه إلى الجهاد: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَقوَاماً بِالمَدِينَةِ خَلفَنَا مَا سَلَكنَا

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩) وابن ماجه (٤٣٠٠)، وصحّحه الحاكم، وقال الذهبي على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٢) رواه مسلم (٢٢٤٥).

(٣) منهاج السنة (٦/ ٢١٨-٢٢١).

شِعباً وَلاَ وَادِياً إلاَّ وَهُم مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُم العُذرُ»[١]. وفي رواية: «إلاَّ شَرَكُوكُم فِي الأَجرِ»[٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدقٍ بَلَّغَهُ الله مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِن مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[٣].

وأيضاً: فقد يحصل الرجل الفقير على أجر الغني المتصدق بماله إن أحسن النية؛ فعن أبي كبشة الأنماري رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ كَمَثَلِ أَربَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالاً وَعِلماً، فَهُوَ يَعمَلُ فِي مَالِهِ يُنفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله عِلماً وَلَم يُؤتِهِ مَالاً، فَهُوَ يَقُولُ: لَو كَانَ لِي مِثلُ هَذَا عَمِلتُ فِيهِ مِثلَ الَّذِي يَعمَلُ»، قال صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «فَهُمَا فِي الأَجرِ سَوَاءٌ...»[٤].

وهنا مسألة مهمة لابد من بيانها: وهي أن الرجل قد لا يكون عاجزاً عن فعل العمل، وهو يتمنى أن يعمله ويظن أنه يؤجر على أمنيته، ويعتبرها من النية الصالحة، وهي في الحقيقة من أماني النفس الكاذبة ودسائس الشيطان.

فتجد الرجل جالساً في بيته، نائماً في فراشه، ولا يذهب إلى الصلاة في المسجد، ويقول: أنا أحب أن أذهب إلى الصلاة، ويظن أنه بقوله هذا سيتحصل على أجر صلاة الجماعة في المسجد، ومثل هذا غير داخل فيما ذكرناه، وليس داخلاً في الأحاديث النبوية، فليتنبه لمثل هذا.

- قلب المباحات والعادات إلى عبادات، يُنال بها أعالي الدرجات:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَن تُنفِقَ نَفَقَةً تَبتَغِي بِهَا وَجهَ الله إِلاَّ أُجِرتَ عَلَيهَا، حَتَّى مَا تَجعَلُ فِي فَمِ امرَأَتِكَ»[٥].

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤)

(٢) رواه مسلم (١٩١١).

(٣) رواه مسلم (١٩٠٩)

(٤) رواه ابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد(١٨٠٥٣)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه

(٥) رواه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

وهذا بابٌ عظيم من أبواب الخير، متى ما ولج العبد المسلم فيه حصَّل خيراً عظيماً، وأجراً كثيراً، ولو أننا قصدنا بعاداتنا والمباحات لتي نعملها التقربَ إلى الله لحصلنا على الأجر العظيم، والثواب الجزيل.

قال زبيد اليامي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني أحب أن تكون لي نية في كل شيء؛ حتى في الطعام والشراب»[1].

وخذ هذه الأمثلةَ من الواقع؛ لعلك تستفيد منها في حياتك اليومية:

كثيرٌ من الناس يحب أن يتطيب، فلو أنه قصد عند التطيب قبل الذهاب إلى المسجد احترامَ بيوت الله، ودفع إيذاء العباد والملائكة؛ لنال على ذلك الأجر.

- جميعنا يحتاج إلى الطعام والشراب، ولكن من نوى بأكله وشربه التقوِّي على العبادة: أُجر.
- أغلب الناس يحتاج إلى النكاح، فإن نوى بالنكاح إعفاف نفسه وزوجه، والتوصل إلى ولد يعبد الله من بعده: أُثيب على ذلك.
- طلبة الجامعات عليهم أن يحسنوا النية في دراستهم، فالطبيب ينوي في دراسته أنه سيعالج المسلمين في المستقبل، وكذلك المهندس وغيره، كل شخص ينوي إفادة الإسلام والمسلمين حسب تخصصه.

وغير ذلك، فما منا من أحد إلا وهو محتاج إلى السعي في الكسب، والإنفاق على أهله، والنوم، وغير ذلك، فلا تحتقر احتساب أي شيء من هذه المباحات، وإخلاص النية فيها، فربما كان من أسباب نجاتك يوم الدين.

- **حماية النفس من الشياطين:**

فالشيطان لما أخذ العهد على نفسه أن يغوي عبد الله استثنى المخلصين فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فالشيطان لا يستطيع إغواء من تحصن بالإخلاص.

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٥).

وقال معروف الكرخي رَحِمَهُ اللَّهُ يذكّر نفسه: «يا نفس أخلصي؛ تتخلصي»[١].

- **انقطاع الوساوس، والبعد عن الرياء:**

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[٢].

- **النجاة من الفتن:**

فالمرء ينجو من الفتن بالإخلاص، ويُجعل له حرز من الوقوع في الشهوات، ومن الوقوع في براثن أهل الفسق والفجور، فبالإخلاص نجى الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من فتنة امرأة العزيز، فلم يسقط في وادي الفسق والفجور: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

- **زوال الهم، وكثرة الرزق:**

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن كانتِ الآخرةُ همَّهُ؛ جَعَلَ الله غِناهُ في قَلبِه، وَجَمَعَ لَهُ شَملَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنيَا وَهِيَ رَاغِمَة، ومَن كانت الدُّنيا همَّهُ؛ جَعَلَ الله فَقرَهُ بَينَ عَينَيه، وَفَرَّقَ عَلَيهِ شَملَهُ، وَلَم يَأتِهِ مِن الدُّنيا إلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**»[٣].

- **تفريج الكروب:**

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خَرَجَ ثَلَاثَةٌ يَمشُونَ، فَأَصَابَهُمُ المَطَرُ، فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانحَطَّت عَلَيهِم صَخرَةٌ، قَالَ: فَقَالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: ادعُوا الله بِأَفضَلِ عَمَلٍ عَمِلتُمُوهُ. فَقَالَ أَحَدُهُم: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنتُ أَخرُجُ فَأَرعَى، ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحلِبُ، فَأَجِيءُ بِالحِلَابِ فَآتِي أَبَوَايَ فَيَشرَبَانِ، ثُمَّ أَسقِي الصِّبيَةَ وَأَهلِي وَامرَأَتِي، فَاحتَبَستُ لَيلَةً، فَجِئتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ، قَالَ: فَكَرِهتُ**

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٦٥)، وصحّحه الألباني في صحيح الترمذي.

أَن أُوقِظَهُمَا، وَالصِّبيَةُ يَتَضَاغَونَ عِندَ رِجلِي، فَلَم يَزَل ذَلِكَ دَأبِي وَدَأبَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الفَجرُ. اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعلَمُ أَنِّي فَعَلتَ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرُج عَنَا فُرجَةً نَرَى مِنهَا السَّمَاءَ. قَالَ: فَفُرِجَ عَنهُم. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعلَمُ أَنِّي أُحِبُّ امرَأَةً مِن بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَت: لاَ تَنَالُ ذَلِكَ مِنهَا حَتَّى تُعطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ. فَسَعَيتُ حَتَّى جَمَعتُهَا، فَلَمَّا قَعَدتُ بَينَ رِجلَيهَا قَالَت: اتَّقِ الله، وَلاَ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَقُمتُ وَتَرَكتُهَا، فَإِن كُنتَ تَعلَمُ أَنِّي فَعَلتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرُج عَنَّا فُرجَةً. قَالَ: فَفَرَجَ عَنهُمُ الثُّلُثَينِ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعلَمُ أَنِّي استَأجَرتُ أَجِيراً بِفَرَقٍ مِن ذُرَةٍ، فَأَعطَيتُهُ، وَأَبَى ذَلِكَ أَن يَأخُذَ، فَعَمَدتُ إِلَى ذَلِكَ الفَرَقِ فَزَرَعتُهُ حَتَّى اشتَرَيتُ مِنهُ بَقَراً وَرَاعِيهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبدَ الله، أَعطِنِي حَقِّي. فَقُلتُ: انطَلِق إِلَى تِلكَ البَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ. فَقَالَ: أَتَستَهزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلتُ: مَا أَستَهزِئُ بِكَ، وَلَكِنَّهَا لَكَ. اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعلَمُ أَنِّي فَعَلتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجهِكَ فَافرُج عَنَّا. فَكُشِفَ عَنهُم»[1].

- **كفاية الله ما بينه وبين الناس:**

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من خلصت نيته في الحق ولو على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وما بين الناس»[2].

- **تحلي صاحب الإخلاص بالحكمة:**

قال مكحول رحمه الله: «ما أخلص عبد قط أربعين يوماً؛ إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[3].

- **وبالإخلاص يؤجر المرء ولو أخطأ:**

كالمجتهد والعالم والفقيه، إذا نوى بالاجتهاد استفراغ الوسع وإصابة الحق لأجل الله، فلو لم يصب فهو مأجور على ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣)

(٢) سنن البيهقي الكبرى (١٠/ ٢٥٠)

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

• **الخير كله في الإخلاص:**

قال داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيراً، وإن لم تنصب»[1]. فحري بنا أن نكون من أهل الإخلاص، ما دامت هذه الفوائد كلها للمخلصين.

* * *

(١) الإخلاص والنية (ص٦٤)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٣).

أضرار عدم الإخلاص

كما أن للإخلاص فوائد وثمرات يجنيها المسلم من إخلاصه؛ فإن لعدمه أضراره التي تلحق بصاحبه، ومن تلك الأضرار:

- **عدم دخول الجنة:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن تَعَلَّمَ عِلماً مِمَّا يُبتَغَى بِهِ وَجهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَتعلَّمهُ إلا لِيُصِيبَ بِه عرضاً مِن الدُّنيَا، لَم يَجِد عَرفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ» يَعنِي رِيحَهَا[1].

- **دخول النار يوم القيامة:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ أَولَ النَّاسِ يقضى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ: رَجُلٌ استُشهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى استُشهِدتُ. قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلتَ لأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ وَعَلَّمتُهُ وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ. قَالَ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيهِ وَأَعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ:

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه

كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ فَقَد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ»[١].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه كلما أراد التحديث بهذا الحديث يُغشى عليه من هوله، فعن شُفَيٍّ الأصبحي: «أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أنشدك بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثتَنِي حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلته وعلمته. ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلاً ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق، فمسح وجهه فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته عليَّ طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم: ...» وحدث بمثل الحديث السابق، وفي آخره: ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال: «يَا أَبَا هُرَيرَةَ أُولَئِكَ الثلاثة أول خَلقِ الله تُسَعَّرُ بِهِم النَّارُ يَومَ القِيَامَةِ»[١].

فالنار لا تُسَعَّرُ أول ما تسعر بالقاتل والزاني والسارق وشارب الخمر، بل تسعر بقارئ قرآن ومتصدق ومجاهد، وكل ذلك بسبب الرياء.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن طَلَبَ العِلمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَو لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو يَصرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ؛ أَدخَلَهُ الله النَّارَ»[٢].

- عدم قبول العمل:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي

أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ شَيْءَ لَهُ» فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ شَيْءَ لَهُ». ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ أَجْرَ لَهُ!» فأعظمَ ذلك الناسُ، وقالوا للرجل: عد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلعلك لم تفهمه. فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضاً من عرض الدنيا، فقال: «لاَ أَجْرَ لَهُ!» فقالوا للرجل: عد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له الثالثة، فقال له: «لاَ أَجْرَ لَهُ»(٣).

- **ضياع ثواب العمل وأجره:**

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفي الحديث القدسي أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول للمرائين: «اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»(٤).

* * *

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه النسائي (٣١٤٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٢)

(٣) رواه أبو داود (٢٥١٦)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود

(٤) رواه أحمد (٢٣٦٨١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥١).

شأن السلف مع الإخلاص

لم يتعامل السلف مع الإخلاص على أنه آيات تتلى، وأحاديث تنشر فحسب، بل كان لهم معه شأن ليس لغيرهم، وكانت سيرتهم مع الإخلاص نبراساً يقتدى به، لأنهم عرفوا أهميته، يقول الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يريد الله عَزَّوَجَلَّ منك نيتك وإرادتك»[١].

ثم إنهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أدركوا مدى صعوبة التحلي بالإخلاص، وبينوا للناس ذلك، سُئِل سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ قال: «الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب»[٢].

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»[٣].

وإليك نماذج من شأن السلف مع الإخلاص، لعلك تعتبر بهم وتتبعهم على هذا الصراط

عدم وصف النفس بالإخلاص:

لما علم السلف أن الإخلاص من أصعب ما يواجهه المرء في حياته، وأنه يحتاج إلى جهدٍ حقيقيٍّ من قِبَل المسلم؛ اتهموا أنفسهم.

قال هشام الدستوائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ»[٤].

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣)

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٩٢)، وجامع العلوم والحكم (١/ ١٧)

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣)

(٤) تاريخ الإسلام (٣/ ١٧٥)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥٢)

هل تعرفون من هو هشام الدستوائي الذي يتهم نفسه في الطلب؟!.

يقـول عنه شـعبة بن الحجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أقول إن أحـداً يطلب الحديث يريد به وجه الله إلا هشام الدستوائي».

ويقول عنه شاذ بن فياض: «بكى هشام حتى فسدت عينه».

وكان هشام يقول عن نفسه: «إذا فقدت السراج ذكرت ظلمة القبر».

وكان يقول: «عجبت للعالِم كيف يضحك»[١].

وقال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي لأنها تتقلب علي»[٢].

ويقول يوسف بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر»[٣].

وكان مـن دعـاء مطرِّف بـن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهم إني أستغفرك مما تبتُ إليك منه ثم عـدتُ فيه، وأسـتغفرك مما جعلته لك عـلى نفسي ثم لم أوفِ لك به، وأسـتغفرك مما زعمتُ أني أردتُ به وجهك فخالط قلبي فيه ما قد علمتَ»[٤].

صاروا أئمة يقتدى بهم، ومع ذلك هم أشد الناس اتهاماً لأنفسهم!!.

إخفاء العمل:

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ -متحدثاً عن اجتهاد السلف في إخفاء أعمالهم-: «إن كان الرجلُ لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور -أي الضيوف- وما يشعرون به، ولقد أدركت أقواماً ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبداً!!.

---

(١) تاريخ الإسلام (٣/ ١٧٦).

(٢) الإخلاص والنية (ص٦٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٩٢).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وشعب الإيمان (٧١٦٧، ٧١٦٨).

لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم عَزَّوَجَلَّ، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]»[١].

إخفاء الأعمال عن الأهل والزوجات:

تقول امرأة حسان بن أبي سنان عن زوجها رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيها، فإذا علم أني نمت سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي، قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله، كم تعذب نفسك؟! ارفق بنفسك. فقال: اسكتي ويحك، فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زماناً»[٢].

وهكذا صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله، يحمل معه غداءه من عندهم فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشياً فيفطر معهم[٣].

التخفي أثناء الجهاد:

إن الجهاد من المواطن التي يُتَصَوَّر فيها الرياء وعدم الإخلاص، فليس كل من حمل سلاحه وقاتل مع المسلمين يكون مخلصاً، وقد سبق شيءٌ من الأحاديث التي تؤكد على أهمية النية والإخلاص في الجهاد، ومن صور الإخلاص في الجهاد عند سلفنا الصالح: أنهم كانوا يتخفون في الجهاد حتى لا يعرفون، وإليك هاتين القصتين:

القصة الأولى: يقول عبدة بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رَجُل، فطارده ساعة، فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثم وجهه بكمه، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك، فَقَالَ: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا!!»[٤].

(١) الزهد لابن المبارك (ص٤٥-٤٦).
(٢) حلية الأولياء (٣/ ١١٧)، وصفة الصفوة (٣/ ٣٣٩).
(٣) حلية الأولياء (٣/ ٩٤).
(٤) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٧).

القصة الثانية (قصة صاحب النفق): حاصر جيش المسلمين يوماً حصناً من حصون الأعداء، واشتد عليهم رمي الأعداء، فقام أحد المسلمين من تلقاء نفسه وحفر نفقاً، واستطاع أن يصل إلى داخل الحصن، وقاتل حراسه حتى فتح الباب، فدخل المسلمون الحصن وانتصروا، ولم يُعرَف هذا الرجل من هو، وأراد مَسلَمة قائد جيش المسلمين أن يعرف الرجل لمكافأته، ولما لم يجده سأله بالله أن يأتيه، فأتاه طارقٌ بليلٍ وسأله شرطاً: وهو أنه إذا أخبره من هو فلا يبحث عنه بعد ذلك أبداً، فعاهده، وأخبره أنه هو، فكان مسلمة يقول: «اللهم احشرني مع صاحب النفق»[1].

الأعرابي والغنائم:

عن شداد بن الهاد: أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك. فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبي فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ. فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا؟! قال: «**قَسَمتُهُ لَكَ**» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا -وأشار إلى حلقه- بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «**إِن تَصدُقِ الله يَصدُقكَ**» فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي ﷺ يُحمل، قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «**أَهُوَ هُوَ؟**» قالوا: نعم. قال: «**صَدَقَ الله فَصَدَقَهُ**» ثم كفنه النبي ﷺ في جبته -أي جبة النبي ﷺ- ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللَّهُمَّ هَذَا عَبدُكَ، خَرَجَ مُهَاجِراً فِي سَبِيلِكَ، فَقُتِلَ شَهِيداً، أَنَا شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ**»[2].

الخوف من التصنع والمجاملات:

يقول علي بن بكار البصري الزاهد رحمه الله: «لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى فلاناً؛ أخاف أن أتصنع له؛ فأسقط من عين الله»[3] فقد كان السلف يخشون من المجاملات.

---

(١) بستان الخطيب (ص٢٤).

(٢) رواه النسائي (١٩٥٣)، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٢٧٠).

عدم إظهار العلم:

ذكر ابن فارس عن أبي الحسن القطان رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «أُصبت ببصري، وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أثناء الرحلة». يظن أن مرضه عقوبة بسبب إظهاره علمَه.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «صدق والله، فإنهم كانوا مع حسن القصد وصحة النية -غالباً- يخافون من الكلام وإظهار المعرفة والفضيلة، واليوم يُكثرون الكلام مع نقص العلم وسوء القصد، ثم إن الله يفضحهم، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم في علمهم»[1].

إخفاء البكاء:

يقول حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أيوب ربما حدَّث بالحديث فيرق وتدمع عيناه، فتجيء عَبرة، فجعل يمتخط ويقول: ما أشد الزكام!!»[2] فيُظهر الزكام؛ لإخفاء البكاء.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عَبرتُه فيردها، فإذا خشي أن تسبقه قام»[3].

ويقول محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم به»[4].

ويقول أيضاً: «لقد أدركت رجالاً، كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلَّ ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جانبه»[5].

الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ وتصنيفه للكتب:

وللإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ قصة عجيبة في الإخلاص في تصنيف الكتب، فقد ألف

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٦٤-٤٦٥).

(٢) مسند ابن الجعد (١٢٤٦)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠).

(٣) الزهد لأحمد (ص٢٦٣).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

(٥) حلية الأولياء (٢/ ٣٤٧).

المؤلفات في التفسير والفقه وغير ذلك، ولم يظهر شيء منها في حياته، ألفها وأخفاها في موضع لا يعلمه أحد، ولما دنت وفاته قال لرجل يثق به: «الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا عاينتُ الموت ووقعت في النَّزع فجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء، فاعمد إليها وألقها في دجلة بالليل، وإن بسطتُ يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت، وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من الله».

قال ذلك الرجل: فلمَّا احتُضِرَ وضعت يدي في يده، فبسطها، فأظهرتُ كُتُبَهُ[1].

علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ وصدقة الليل:

كان زين العابدين علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين في الظلمة، ويقول: «الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب». وكان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل، ورأوا على ظهره آثارًا مما كان ينقله من جرب الدقيق بالليل، وقد كان يعول مائة بيت!![2].

تلك الأحوال والقصص، مع أن أصحابها كانوا يحاولون إخفاءها؛ إلا أن الله أظهرها؛ ليكون أصحابها أئمة: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

* * *

(١) تاريخ الإسلام (٧/ ١٦٩)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٦٦).

(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٩٢)، وتاريخ دمشق (٤١/ ٣٨٣-٣٨٤).

علامات الإخلاص

للإخلاص علامات تظهر على العبد المخلص ذكرها العلماء، ومنها:

عدم حب الشهرة، عدم حب المدح والثناء، الحماس للعمل للدين، المبادرة للعمل واحتساب الأجر، الصبر والتحمل وعدم التشكي، الحرص على إخفاء العمل، إتقان العمل في السر، الإكثار من العمل في السر، أن يكون عمل السر أكبر من عمل العلانية.

فهذه كلها من علامات الإخلاص، ولكن! لتحذر يا أخي المسلم، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص؛ فإن إخلاصه يحتاج إلى إخلاص.

نسأل الله أن يجعلك وإياكم من المخلصين، وأن يطهر قلوبنا وأعمالنا من الرياء والنفاق.

* * *

مسائل في الإخلاص

متى يكون إظهار العمل مشروعاً؟

ذكرنا حال السلف في الإخلاص، وكيف أنهم كانوا يحرصون على إخفاء أعمالهم، وذكرنا أن من علامات الإخلاص: إخفاء العمل، ومع ذلك، فإن إظهار العمل قد يكون مشروعاً أحياناً، وقد يكون أفضل من إخفائه.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فصلٌ في بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات».

قال: «... وفي الإظهار فائدة الاقتداء، وترغيب الناس في الخير، ومن الأعمال ما لا يمكن الإسرار به كالحج والجهاد، والمُظهِر للعمل ينبغي أن يراقب قلبه حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي، بل ينوي الاقتداء به».

قال: «ولا ينبغي للضعيف أن يخدع نفسه بذلك، فإن مثل الضعيف مثل الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم، وأقبل عليهم حتى تشبثوا به، فهلكوا وهلك معهم.

فأما من قوي وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم؛ فلا بأس بالإظهار له؛ لأن الترغيب في الخير خير»[1].

ولتوضيح المسألة نقول: إن إظهار العمل وإخفاءه له أحوال:

الحالة الأولى: أن يكون العمل من السنة إخفاؤه، فيخفيه. وذلك كقيام الليل والخشوع.

الحالة الثانية: أن يكون العمل من السنة إظهاره، فيظهره. وذلك كالمحافظة على صلاة الجمعة والجماعة، والجهر بالحق.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٢٣-٢٢٤).

الحالة الثالثة: أن يكون العمل بين الإسرار والإظهار، فيسن إخفاؤه لمن يخشى من نفسه الرياء بذلك، ويسن إظهاره لمن يريد أن يقتديَ الناس به. كصدقة التطوع، فإن المرء إذا ظن أنه سيدخل قلبَه شيءٌ من الرياء إذا رآه الناس فعليه أن يخفي صدقته، وأما إذا ظن أن الناس سيقتدون به في صدقته وأنه سيجاهد نفسه في الرياء، فيسنّ له إظهار صدقته.

وكالعالم الذي يُصَلِّي النافلة أمام الناس في المسجد؛ ليبين لهم ما هي النوافل، وعدد ركعاتها، ونحو ذلك.

وقد ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يظهرون بعض أعمالهم الشريفة ليُقتدى بهم، كما قال بعضهم لأهله حين الاحتضار: «لا تبكوا علي؛ فإني ما لفظت سيئة منذ أسلمت».

قال أبو بكر بن عياش لولده: «يا بني، إياك أن تعصي الله في هذه الغرفة؛ فإني ختمت القرآن فيها اثني عشر ألف ختمة»[1].

وهنا أمر لابد من التنبيه عليه: وهو أن من دعا إلى كتم جميع الأعمال الصالحة عن جميع الناس؛ فهذا إنسان خبيث، يقصد إماتة الإسلام، والمنافقون إذا رأوا متصدقاً بصدقة كبيرة قالوا: مُراءٍ، وإذا رأوا متصدقاً بصدقة قليلة قالوا: إن الله غني عن هذا، وهدفهم من ذلك أن لا يظهر في المجتمع عمل صالح، حتى لا يقتدي بالصالحين غيرهم من الناس.

فلذلك، إذا أظهر أحد الأخيار شيئاً من أعماله الصالحة، وناله الأذى من هؤلاء المنافقين؛ فليصبر على أذاهم، ولا يلتفت إليهم، وليعلم أنه على خير عظيم إن شاء الله.

ترك العمل خوف الرياء:

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»[2].

هذا إذا ترك العمل بالكلية، أما إذا تركه أمام الناس ليعمله في الخفاء: فلا بأس.

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٢٤).

(٢) شعب الإيمان (٦٨٧٩).

ويدخل ضمن هذا الباب: ما يفعله بعض الجهلة، الذين يقصرون ويحلقون لحاهم بحجة عدم الرياء، ويقولون: إن اللحية تدل على أن صاحبها يدعي الإيمان والصلاح!

وأين هؤلاء من النصوص الصريحة الكثيرة الواردة عن النبي ﷺ بإعفاء اللحية وإرخائها وعدم حلقها؟ نسأل الله البصيرة في الدين.

الفرق بين الرياء، ومطلق التشريك في العمل:

الرياء: هو أن يعمل الرجل عملاً شرعياً، يقصد به غير وجه الله.

والتشريك في العمل: أن يعمل الرجل عملاً شرعياً، وينوي مع قصد وجه الله شيئاً آخر.

وبالنظر في الأمرين السابقين نقول:

إن العمل الشرعي ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يعمل الرجل العمل لله، ولا يلتفت إلى شيء آخر، وهذا القسم هو أعلى الأقسام وأفضلها.

القسم الثاني: أن يعمل الرجل العمل لله، ويلتفت إلى أمر آخر يجوز الالتفات إليه، كأن يصوم لوجه الله، وينوي مع صيامه الحفاظ على صحته.

وكأن يسافر الرجل للحج لوجه الله، وينوي مع حجه التجارة.

وكأن يجاهد الرجل لوجه الله، وينوي مع جهاده الحصول على شيء من الغنيمة؛ ليطعم بها أهله وولده.

وكأن يمشي الرجل إلى المسجد، قاصداً التقرب إلى الله، وينوي مع ذلك رياضة المشي.

فهذا لا يبطل الأعمال، ولكنه قد ينقص من أجرها، والأفضل أن لا ينوي الرجل في عمله إلا التقرب لله عز وجل.

القسم الثالث: أن يعمل الرجل العمل لله، ويلتفت إلى أمر لا يجوز الالتفات إليه، كأن يريد الثناء من الناس، أو ينوي الحصول على مالٍ مقابل صلاته، فهذا له أحوال:

- إذا كان هذا العرض قد خطر له في باله قبل أن يبدأ بالعمل، ويكون أصلاً وسبباً للعمل: فهذ مفسد له، كأن يقوم الرجل لأداء النافلة، وهو يرجو نظر الناس له.
- أن يعرض له هذا الغرض أثناء العمل فيدافعه ويجاهده، كمن بدأ في الصلاة ابتغاء وجه الله، ثم رأى من ينظر إليه، فأعجبه ذلك وطمع في مدحهم وثنائهم، ثم دافع هذا الطمع وهذه الرغبة وجاهدها حتى انتهى من صلاته، فهذا عمله صحيح، وله أجر على جهده.
- أن يطرأ عليه الغرض والرياء أثناء العمل ولا يدافعه، فهذا يبطل العمل.

القسم الرابع: أن يقصد بعمله ما يجوز طلبه مع عدم الالتفات إلى الأجر الشرعي، كأن يصوم لأجل الحمية فقط، وأن يكون جهاده لأجل الحصول على الغنيمة فقط، وأن يخرج زكاة أمواله لتنمو فقط، فهذا عمله باطل، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

القسم الخامس: أن يقصد بعمله ما لا يجوز طلبه شرعاً، مع عدم الالتفات إلى طلب مرضاة الله، كأن يصلي مراءاةً للناس فقط.

فصاحب هذا القسم عمله باطل، وهو آثمٌ أيضاً.

الكذب للابتعاد عن الرياء:

قد يستبيح بعض المسلمين الكذب؛ ابتعاداً عن الرياء -كما يَدَّعون-، وهذا خطأ شنيع، وعمل فاحش؛ فإن الكذب ليس من أخلاق المسلم.

كمن يبني مسجداً أو مدرسة لوجه الله، ثم يُسأل عنها فيقول: بناها فلان من الناس، وهو كاذب في كلامه، ومثل هذا عليه أن يستخدم التورية في كلامه، فيقول مثلاً: بنيت المسجد بمال أحد المسلمين، ويقصد ب (أحد المسلمين) نفسه.

أشياء يُظنّ أنها من الرياء، وليست منه:

- إذا حمدك الناس على الخير بدون قصد منك، فهذا عاجل بشرى المؤمنين.

- اكتساب الشهرة بغير طلبها، كالعالم وطالب العلم الذي يعلّم الناس أمر دينهم، ويفتيهم فيما يشكل عليهم، فينال من الشهرة، فلا يمتنع عن هذا الخير، بحجة الابتعاد عن الرياء، بل عليه أن يصحح نيته، ويمضي في سبيله.
- بعض الناس قد يرى رجلاً عابداً نشيطاً في العبادة، فينشط للعبادة مثله، فليس هذا رياءً، فإذا قصد بعبادته وجه الله فهو مأجور.
- تحسين وتجميل الثياب والنعل، وطيب الرائحة، كل هذا ليس من الرياء.
- كتمان الذنوب وعدم التحدث بها ليس من الرياء، بل إننا مطالبون شرعاً بالستر على أنفسنا وعلى غيرنا، وبعض الناس يظن أنه لابد من الإخبار بالذنوب حتى يصبح مخلصاً، وهو ظن في غير محله، وخديعة من إبليس لهذا الرجل؛ لأن الإخبار بالذنب من باب إشاعة الفاحشة بين المؤمنين.

* * *

الخاتمة

أخي المسلم، إننا في مأزقنا الذي نعيش فيه، وفي وضع الأمة الإسلامية الراهن، نحتاج إلى الإخلاص حاجة شديدة؛ لإصلاح هذا الوضع، وللخروج من هذا المأزق.

فهناك مشاريع إسلامية دعوية وخيرية كبيرة، قامت، ثم أجهضت بسبب عدم الإخلاص، أراد بعض المسؤولين فيها الرياء والسمعة والدنيا، وابتعدوا عن الإخلاص، فقاموا بأعمال، تسببت في انهيار هذه المشاريع.

وعمل الفرد في نفسه لابد له من إخلاص، وليت شعري! كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟

وكيف يُخلص من لم يعرف حقيقة الإخلاص؟

اللهم ارزقنا الإخلاص، وثبته في قلوبنا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

***

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع، أسئلة إجاباتها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما هو الفرق بين النية والإخلاص؟

٢. اذكر فرقاً بين الصدق في العمل، والإخلاص فيه؟

٣. لماذا كان حديث: «إنما الأعمال بالنيات» من أهم الأحاديث النبوية؟

٤. «إني أحب أن أذهب للصلاة» يقولها بعضهم كلما عُوتِب عن غيابه عن الصلاة في المسجد فما رأيك في قوله؟ وهل هو محب للذهاب إلى الصلاة حقاً؟

٥. اذكر ثلاث فوائد من فوائد الإخلاص، وثلاثة أضرار من عدمه.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. اذكر بعض الأعمال التي ترى انتشار الرياء فيها في وقتنا الحاضر، مع ذكر العلاج.

٢. اذكر عدداً من الأمثلة لقلب العادة إلى عبادة بالنية، غير ما ذكر في الفصل.

٣. قال بعض السلف: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد» بيّن معنى هذه المقولة.

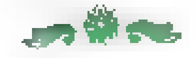
٤. رجلٌ أراد أن يُخفِيَ أعماله عن الناس، وأن يخلص في عمله؛ فغاب عن صلاة الجماعة؛ حتى لا يتحدث الناس عنه أنه يصلي مع الجماعة، ما رأيك في عمله؟

٥. اذكر عدداً من الكتب التي اهتمت بموضوع (الإخلاص).

٦. اذكر قصة في (الإخلاص) تأثرت بها، لم ترد في هذا الفصل.

٧. ما هي الأمور التي تعين العبد على الإخلاص؟

٨. لم سميت سورة (الإخلاص) بهذا الاسم؟





التفكر

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، والصَّلاة والسَّلام علَى أشْرَف الأنبِيَاء والمُرسَلِين، نبيِّنَا محمَّد، وعلَى آلِهِ وصَحْبِه أجْمَعِين، أمَّا بعد:

فإنَّ التَّفكُّر مفتاح الأنوَار، ومَبْدأ الإبْصَار، وأداة العُلوم والفهُوم، وهو مِن أعْمال القُلوب العَظِيمَة، بل هو مِن أفضل العِبَادات، وأكْثَر النَّاس قد عرَفُوا فَضْلَه، ولكن جهلوا حقِيقَته وثمرَته، وقليل منهم الَّذِي يتفكَّر ويتدبَّر.

يقول الله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

وإنَّ أشرف المجَالس وأعْلَاها: الجُلوس مع الفِكْرة؛ بالتَّأمُّل في أسْماء الله وصِفَاته، وجنَّته ونَاره، ونعِيمِه وعذَابِه، وآلائه وآيَاتِه المَسْطُورة في كِتَابه، والمنشُورة في كوْنِه، فما ألَذ هَذِه المجَالس، وما أطْيَبها لمَن رُزِقَها.

فما التَّفكُّر؟ وما مجَالاته؟ وما ثمرَته وفوَائِده؟ وكيف كان حال السلَف مع هَذِه العبادة العظيمة؟

هَذَا ما سنَذكُره في هَذَا الفصل إن شاء الله تعالى.

* * *

تعريف التفكر

التفكر في اللغة:

لتفكر: التأمل والنظر، وهو تَفَعُّلٌ، مشتق من الفكر.

ومادة (فَ كَ رَ) تدل على تردد القلب في الشيء، يقال: تفكر، إذا ردد قلبه معتبراً.

و(فكَّر) مصدره: التفكير. فيكون (التفكر) اسم مصدر[1].

التفكر في الاصطلاح:

لتفكر: هو تصرف القلب بالنظر في الدلائل.

وقيل هو: تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

وقال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «التفكر: جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح»[2].

* * *

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٦)، لسان العرب (٥/ ٦٥)، مختار الصحاح (٥١٧)، التعريفات (ص٧٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٤).

وجوب التفكر

لقد دلَّت أدلة عديدة على وجوب التفكر على المؤمنين، سواء كان هذا التفكر في الآيات، أو في المخلوقات، أو في أنفسهم، أو في عذاب الله وعقابه، أو في رحمته وجنته.

• فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، فدلت الآية على أن إنزال الذكر -الذي هو القرآن- إنما كان لأجل أن يتفكر الناس في هذا الذكر المنزَّل.

• وأثنى الله في كتابه العزيز على عباده المتفكرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٢].

قال عطاء: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ؟ قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: «ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سَرَّكَ. قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يؤذن بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله! لِمَ تبكي، وقد غفر الله لك ما تَقَدَّمَ وما تَأَخَّرَ؟ قال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ

فيهـا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[1].

● فـدل هـذا الحديث على أن من لم يتفكر في هذه الآيـات، فإنه متوعدٌ بالويل والعذاب، ولا يتوعد الله بالعذاب إلا مَن خالف أمره، فتبيَّن من هذا: أن التفكر أمرٌ واجب.

وقـد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ التفكـر في كتابه مقروناً بذكر الأمثال، آمراً عباده بالتفكر في هذه الأمثال.

فقـال تعـالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فهذا الرجل قلبه متعلق بالبستان، من أكثر من جهة:

١. أنها جنة، وليست مزرعة صغيرة.

٢. وأن فيها أشجاراً متنوعةً، نخيلاً وأعناباً.

٣. وأن المـاء الـذي في هذه الجنة لا يُسـتخرج من الآبـار بالمجهود الكبـير، بل إن هناك أنهاراً تجري في هذه الجنة.

٤. وهـو قد أصابه الكِبَر، والإنسـان إذا أصابـه الكِبَر يحتاج إلى شيء يعـود عليه بالمال، دون أن يتعب فيه كثيراً.

٥. وله ذرية ضعفاء: صغار أو مرضى، وليس لهم مصدر للرزق، إلا هذه الجنة.

فدرجـة تعلُّقِه بهذه الجنة كبيرةٌ جداً، فكيف يكون شـعوره، وخيبـة أمله، وإحباطه، إذا أصابها إعصار فيه نار، فاحترقت؟!.

يقـول تعـالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، أي: أنه سبحانه ما ضرب هذا المثل وما ساقه، إلا لأجل أن يتفكر عباده فيه.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، وصححه الألباني.

وعند التفكر والتأمل في الآية – كما أراد منّا سبحانه –: نكتشف أن المراد بهذا المثل: هو تشبيه حال صاحب هذه الجنة بحال المرائي والمنان في صدقاته؛ إذا أتى يوم القيامة، وهو محتاجٌ لكل حسنةٍ من حسناته، فإذا هي قد أصبحت هباء منثوراً.

فحال صاحب الجنة إذا أصابها إعصار فاحترقت؛ كحال صاحب الصدقة الذي أحرق حسناته بالمنّ والمراءاة.

وبالتفكر في هذه الأمثال يصل الإنسان إلى إخلاص العمل.

وقال تعالى في مثلٍ آخر من أمثال القرآن: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي هذا المثل بيان لحقيقة هذه الحياة، وأنها كأرضٍ أنتجت أحسن ثمارها، ثم أصابتها جائحة من الجوائح، فإذا هي خالية، كأنها لم تكن مليئة بالثمرات والخضروات.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢٠-٢١].

فليتفكر الإنسان في هذا القرآن، وفي قوة تأثيره، وأنه لو أنزل على جبل لانهدّ، فماذا ينبغي أن يكون أثره على نفسه؟!

كما أنه سبحانه عدّد لعباده أنواع مخلوقاته في السموات والأرض، وذكر صفاته سبحانه، ونِعَمه التي أنعمها على عباده؛ ليتفكروا فيها.

فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١٤].

• والناس أيضاً مأمورون بالتفكر في عاقبة مَن مضى قبلهم من الأمم، وما هو السبب في هلاكهم؟ وهل كانوا ضعفاء لا يتحملون العذاب؟ أم أنهم كانوا أصحاب قوة عاتية، ومع ذلك لم يصمدوا أمام جنود الله؟

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٨-٩].

وقد تنبه السلف الصالح إلى وجوب التفكر؛ فكانوا يأمرون أصحابهم بذلك.

قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «عوِّدوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر»[١].

* * *

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٧٤).

أنواع التفكر ومجالاته

إن للتفكر حدوداً يجب على المسلم أن يقف عندها، فلا يشطُّ في تفكيره بعيداً، فعليه أن لا يتفكر في ذات الله سبحانه وتعالى، ولا يتفكر في كيفية صفاته.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ الله، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الله عزوجل**»[1].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في الله»[2].

وَلَا تَفْكِرَنَّ فِي ذِي العُلَا عَزَّ وَجْهُهُ ... فَإِنَّكَ تَرْدَى إِنْ فَعَلْتَ وَتُخْذَلُ
وَدُونَكَ مَصْنُوعَاتِهِ فَاعْتَبِرْ بِهَا ... وَقُلْ مِثْلَ مَا قَالَ الخَلِيلُ المُبَجَّلُ[3]

فإذا دخلت هذه الأفكار في رأس العبد، فعليه أن ينتهيَ عنها، وليستعذ بالله منها، وليحاول أن يُفكر في أمورٍ أخرى.

أما التفكر في معنى أسماء الله وصفاته، دون بحث عن الكيفية: فهذا أمر مطلوب؛ لأن من يتأمَّل -على سبيل المثال- في معنى علم الله الشامل لكل شيء، ومراقبة الله له، واطلاعه عليه، يقوده ذلك إلى الخوف منه سبحانه، والبعد عن يسخطه.

كما أن الإنسان قد يفكر في أشياء لا تفيده، لا دنيوياً ولا أخروياً، بل تضره، فيتفكر مثلاً في كيفية إبداع اللاعب الفلاني في لعبه، أو في كيفية أداء المطرب الفلاني في أغانيه،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٨٨).
(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١٠٨). قال ابن حجر في فتح الباري (١٣/ ٣٨٣): «سنده جيد».
(٣) تفسير القرطبي (١٧/ ١٠٣).

أو في طريقة تمثيل الممثل في أفلامه ومسلسلاته، وقد يرى امرأة أجنبية عنه، فيتفكر في جمالها ومحاسنها، ويذهب عقله وقلبه شرقاً وغرباً في التفكر فيها، وهذا التفكر وأشباهه مذمومٌ عقلاً وشرعاً.

والتفكر المحمود: هو التفكر الذي يوصل العبد إلى ثمراته وفوائده.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الخير والشر من قِبَلِ التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب؛ في الزهد، والترك، والحب، والبغض.

وأنفع الفكر:

١. الفكر في مصالح المعاد.

٢. وفي طرق اجتلابها.

٣. وفي دفع مفاسد المعاد.

٤. وفي طرق اجتنابها.

فهذه أربعة أفكار هي أجلُّ الأفكار، ويليها أربعة:

١. فكر في مصالح الدنيا.

٢. وفكر في طرق تحصيلها.

٣. وفكر في مفاسد الدنيا.

٤. وفكر في طرق الاحتراز منه.

فعلى هذه الأقسام الثمانية، دارت أفكار العقلاء.

ورأس القسم الأول: الفكر في آلاء الله ونعمه، وأمره ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه، وصفاته، من كتابه، وسنة نبيه، وما والاهما»[1].

فما هي المجالات التي يمكن للإنسان -بالتفكر فيها- أن يصل إلى فائدة وثمرة؟

وما هي الأشياء التي إذا أعمل المسلم فيها عقله وقلبه، خرج منها بنتيجة وربح؟

---

(١) الفوائد (ص١٩٨).

التفكر في النفس:

لقد أمر سبحانه بالتفكر في النفس، وحث على ذلك، فقال سبحانه؛ ذامّاً للمشركين: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

والتفكر في النفس أولى من التفكر في غيرها من المخلوقات؛ لأنها أقرب إلى الإنسان من غيرها، والإنسان أعلم بأحوالها من أحوال ما عداها.

ومن تأمل في ذاته، وتفكر في صفاته، ظهرت له عظمة بارئه، وآيات مبدئه، بل مَن عرف حقيقة نفسه، فقد عرف عظمة ربه.

والتفكر في النفس يشمل عدة أمور:

- التفكر في كيفية خلق الله للإنسان، كيف خلق هذا الجسد؟ وكيف شكَّله؟ وكيف جعل فيه السمع والبصر؟
- والتفكر في عيوب هذه النفس، وهو أمر مهم جداً؛ لأنه لا يمكن أن يقوّم الإنسان نفسه ويصحح عيوبها ويعدلها إلا بعد التفكر، فإذا كان فكره صحيحاً عرف العيوب واكتشف الأخطاء، وبالتالي امتنع عن الوقوع فيما كان وقع فيه من أخطاء، واجتهد في تحصيل ما يستر به عيوب نفسه.
- التفكر في أحوال الزوجة والأولاد والأسرة؛ لأن الله خلق أزواجنا من أنفسنا، وأبناؤنا إنما خرجوا من أصلابنا، وكذلك نحن جزءٌ من آبائنا وأمهاتنا، فالتفكر في أحوال هؤلاء هو جزء من التفكر في النفس.

  فيتفكر الإنسان في أحوالهم، وأعمالهم، وما هي الثغرات في هذه الأسرة؟ وما هي الطريقة المناسبة لإصلاحهم؟

التفكر في خلق السموات والأرض، وعجائب الكون:

إن في خلق الله من العجائب والغرائب الدالة على حكمة الله وقدرته وجلاله شيئاً يهول الناظرين والمتفكرين.

فماذا يتفكر الناس في خلق السموات والأرض، وعجائب الكون؟

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مجيباً على هذا السؤال: «ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[آل عمران: ١٩١] عن كل ما لا يليق بجلالك»[١].

وعلى الإنسان أن يستفيد من العلوم التجريبية والطبيعية في مجال التفكر، فكم من المخلوقات التي لم يكن أسلافنا يعرفونها قد ظهرت للوجود، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

فهو سبحانه يخلق ما لا نعلمه في قيعان المحيطات، وفي أجواف المغارات، وفي أقطار السموات، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

التفكر في نعم الله:

ومن مجالات التفكر المهمة: تفكر المسلم في نعم الله عليه، فيتفكر في وظيفته التي رزقه الله إياها، وفي زوجته التي دلّه الله عليها، وقد لا يكون يعرفها من قبل، فأصبحت من أقرب الناس إليه، وفي الأمن والأمان الذي اختصه الله به، وهو يسمع بحوادث التفجير والقتل التي تكون من حوله.

التفكر في الدنيا والآخرة:

يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٩-٢٢٠].

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: «يعني: في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها»[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٦١).

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٦٩).

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة؛ فتعرفون فضل الآخرة على الدنيا»[1].

محذورات في التفكر:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

تدل هذه الآية على أن هناك أشياء في نشأة الإنسان تخفى على البشر، ولا يمكن معرفتها، فلا يجوز لنا إضاعة الوقت في التفكر في هذه الأمور.

وهذا من الفروق بين النظرة الإسلامية والنظرة الغربية إلى المخلوقات، فالنظرة الغربية الملحدة ترى أنه من الممكن تجربة ومعرفة كل شيء، والنظرة الإسلامية تعترف بأن هناك أشياء لا يُمكن معرفتها، وحدودا لا يجوز تجاوزها.

فمثلاً: أبحاث الروح.

هذه الأبحاث التي أضاع كثيرٌ من أهل الكفر أوقاتهم فيها، ولو علموا أن الله سبحانه اختص نفسه بأسرار الروح لتوقفوا عند حدودهم، وأوقفوا تلك الأبحاث التي أهدرت الأموال والطاقات، بل وأدخلت كثيراً من الشكوك والشبهات في المعتقدات.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأيضاً:

فكثير من العوالم الغيبية لا يمكن استكشافها وإخضاعها لقواعد العلم المادي، كعالم الملائكة، وعالم الجن، وغير ذلك. فهذه من الأمور التي يجب على المسلم أن يُوقف فكرَه على ما ورد به الشرع، وألا يتجاوز ذلك؛ لأنها من المغيبات التي لا يمكن اكتشافها بالفكر والتجربة.

---

(١) تفسير الطبري (٢/ ٣٦٩).

وبعد هذا:

فإليك هذه المقولة البيانية البديعة، والتي فيها تحريك للتفكُّر في خلق الإنسان، وخلق الحيوانات، وخلق السموات والأرض:

يقول الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن من آيات الله عز وجل هذا الإنسانَ المخلوقَ من نطفة، وأقرب شيء إليك نفسُك، وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره، وأنت غافل عنه!! فيا من هو غافل عن نفسه، وجاهل بها؛ كيف تطمع في معرفة غيرك؟

وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ذكر أنك مخلوق من نطفة مهينة، قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢].

ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

فتكرير ذكر (النطفة) في الكتاب العزيز ليس ليُسمع لفظه، ويترك التفكر في معناه.

فنظر الآن إلى النطفة، وهي قطرة من الماء قذرة، لو تُرِكت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب!.

وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة و لمحبة في قلوبهم!.

وكيف قادهم بسلسلة المحبة و لشهوة إلى الاجتماع!.

وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع!

وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم!.

ثم كيف خلق المولود من النطفة، وسقاه بماء الحيض، وغذاه، حتى نما وربا!.

وكيف جعل النطفة -وهي بيضاءُ مشرقةٌ- علقةً حمراءَ!.

ثم كيف جعلها مضغةً!.

ثم كيف قسم أجزاء المضغة وهي متساوية متشابهة إلى العظام، والأعصاب، والعروق، والأوتار، واللحم!.

ثم كيف ركّب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاءَ الظاهرة، فدوّر الرأس، وشقّ السمع، والبصر، والأنف، والفم، وسائر المنافذ، ثم مد اليد والرجل، وقسّم رؤوسها بالأصابع، وقسم الأصابع بالأنامل!.

ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة، من القلب، والمعدة، والكبد، والطحال، والرئة، والرحم، والمثانة، والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص، ومقدار مخصوص، لعمل مخصوص!.

ثم كيف قسم كل عضو من الأعضاء بأقسام أُخَر، فركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصف مخصوص، وهيئة مخصوصة، لو فُقدت طبقةٌ منها، أو زالت صفة من صفاتها؛ تعطلت العين عن الإبصار!.

فنظر الآن إلى العظام -وهي أجسام صلبة قوية- كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قواماً للبدن، وعماداً له، ثم قدرها بمقاديرَ مختلفةٍ، وأشكالٍ مختلفة، فمنه صغير،

وكبير، وطويل، ومستدير، ومجوف، ومصمت، وعريض، ودقيق، ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه؛ لم يجعل عظمه عظماً واحداً، بل عظاماً كثيرة، بينها مفاصل؛ حتى تتيسر بها الحركة، وقدَّر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها، وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم، وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه، وفي الأخرى حفراً غائصة فيه، موافقة لشكل الزوائد؛ لتدخل فيها، وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعطل عليه ذلك

ثم انظر كيف خلق الله عظام الرأس، وكيف جمعها وركبها! وقد ركبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور، فألف بعضها إلى بعض، بحيث استوى به كُرةُ الرأس، كما تراه.

وليس المقصود من ذكر عدد العظام أن يُعرف عددها، فإن هذا علم قريب، يعرفه الأطباء والمشرحون، إنما الغرض أن ينظر في مدبرها وخالقه، كيف قدرها ودبرها، وخالف بين أشكالها وأقدارها، وخصصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحد لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعه، ولو نقص منها واحد لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها؛ ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها؛ ليستدلوا على جلالة خالقها ومصورها. فشتّان بين النظرين.

وكذلك التفكر في أمر هذه الأعصاب، والعروق، والأوردة، والشرايين، وعددها، ومنابتها.

فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، وإلى بدنه وصفاته، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب، وكل ذلك صنعه الله في قطرة ماء، فترى من هذا صنعه في قطرة ماء؛ فما صنعُه في ملكوت السموات وكواكبها؟!.

وما حكمته في أوضاعها، وأشكالها، ومقاديرها، وأعدادها، واجتماع بعضها، وتفرق بعضها، واختلاف صورها، وتفاوت مشارقها، ومغاربها؟!.

فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة، بل هي أحكم خلقاً، وأتقن صنعاً، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً، وما صارت إليه ثانياً، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً، أو بصراً، أو عقلاً، أو قدرة، أو علماً، أو روحاً، أو يخلقوا فيها عظماً، أو عرقاً، أو عصباً، أو جلداً، أو شعراً، هل يقدرون على ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كُنْهَ حقيقته، وكيفية خلقته، بعد أن خلق الله تعالى ذلك: لعجزوا عنه!.

فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط، تأنّق النقاش في تصويره، حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان!! عَظُمَ تعجُّبُك من صنعة النقاش، وحذقه، وخفة يده، وتمام فطنته، وعَظُم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ، والقلم، واليد، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش، ولا خلقه، بل هو من خلق غيره، وإنما منتهى الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه، وتستعظمه، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة، فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب، ثم أخرجها منها فأحسن تشكيلها، وقدَّره فأحسن تقديره، وصوَّرها فأحسن تصويرها، وقسَّم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها، وحَسَّن أشكال أعضائها، وزين ظاهرها وباطنها، ورتب عروقها وأعصابها، وجعل لها مجرى لغذائها؛ ليكون ذلك سبب بقائها.

وجعلها سميعة، بصيرة، عالمة، ناطقة، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها، والبطنَ حاوياً لآلات غذائها، والرأسَ جامعاً لحواسها.

ثم تفكر في ما يحدث في خلق الجنين في الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصوّر ولا آلته، فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه، ولا يلاقيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه، وأظهر برهانه.

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته؛ فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكّس وانقلب وتهيأ للخروج، وتحرك وخرج من ذلك المضيق، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه!.

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفاً، لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في اللبن اللطيف المستخرج بين الفرث والدم، سائغاً خالصاً، وكيف خلق الثديين، وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، فقدّر الحَلَمة على قَدْر فتحة الفم في الصبي، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً، حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجاً، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه إلى الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع، ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته، كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن، فيستغني عن السن، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان في وقت الحاجة، لا قبلها، ولا بعدها.

فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثاة اللينة، ثم حنّن قلوب الوالدين عليه، للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه، فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة، والتمييز، والعقل، والهداية، تدريجاً، حتى بلغ وتكامل فصار مراهقاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، إما كفوراً أو شكوراً، مطيعا أو عاصياً، مؤمناً أو كافراً، تصديقاً لقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرّك، ثم في أنهارها، وجبالها، ومعادنها، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات.

فتنظر إلى الأرض وهي ميتة، فإذ أنزل عليها الماء اهتزت، وربت، واخضرت، وأنبتت عجائب النبات، وخرجت منها أصناف الحيوانات، ثم تنظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب، وكيف أودع المياه تحتها، ففجر العيون، وأسال الأنهار تجرى على وجهها، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماءً رقيقاً، عذباً، صافياً، زلالاً، وجعل به كل شيء حي، فأخرج به فنون الأشجار والنبات، من حب، وعنب، وقضب، وزيتون، ونخل، ورمان، وفواكه كثيرة لا تحصى، مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات، يُفضّل بعضها على بعض في الأُكل، تُسقى بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة.

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض، وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس، ما خُلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي، وعلى الوجه الذي ينبغي، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه.

ومن آياته: أصناف الحيوانات، وانقسامها إلى ما يطير، وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجليه، وإلى ما يمشي على أربع، وعلى عشر، وعلى مائة، كما يشاهد في بعض الحشرات.

وتذكر عجائب العنكبوت، وهي من صغار الحيوانات: في بنائها بيتها، وفي جمعها غذاءها، وفي إلفها لزوجها، وفي ادخارها لنفسها، وفي حذقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها.

فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر، فيطلب -أولاً- موضعين متقاربين، بينهما فرجة بمقدار ذراع، فما دونه، حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه، ثم يبتدئ ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به، ثم يعدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردد ثانياً، وثالثاً، ويجعل بعد ما بينهما متناسبَ تناسباً هندسياً، حتى إذا أحكم معقد القمط، ورتب الخيوط، اشتغل باللحمة، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع

الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه، وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر، وبقي منكساً في الهواء، ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمى بنفسه إليها، فأخذها، ولف خيطه على أرجلها، وأحكمه، ثم أكلها.

وما من حيوان -صغير ولا كبير- إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى. أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه، أو تكون بنفسه، أو كونه آدمي، أو علّمه، أو لا هادي له، ولا معلّم؟!. أَفَيَشُكُّ ذو بصرة في أنه مسكين ضعيف عاجز؟

بل الفيل العظيم شخصه، الظاهرة قوته، عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف؟ أفلا يشهد هو بشكله، وصورته، وحركته، وهدايته، وعجائب صنعته، لفاطره الحكيم، وخالقه القادر العليم؟

فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته، ما تتحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات.

وهذا الباب لا حصر له؛ فإن الحيوانات، وأشكالها، وأخلاقها، وطباعها، غير محصورة، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة، نعم، إذا رأى حيواناً غريباً -ولو دُوداً- تجدد تعجبه، وقال: سبحان الله! ما أعجبه!. والإنسان أعجب الحيوانات، وليس يتعجب من نفسه، بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها تعجب وقال: سبحان الله! ما أعجبه![1].

❋ ❋ ❋

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٣٥-٤٤٢) بتصرف

كيف نستطيع أن نتفكر؟

التفكر من الأعمال القلبية التي يمكن استجلابها بعمل الأمور التالية:

- **الاستعاذة بالله من الشياطين:**

إن إبليس قد أخذ عهداً على نفسه أن يغوي الثقلين، وقد جعل الله له جنوداً وأتباعاً يعملون على ذلك، وهم حريصون على منع الإنسان من أعمال الخير كلها، خاصةً الأعمال القلبية، والتي منها التفكر.

قال الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة استحواذ الشيطان على العبد: أن يشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمائه، والقيام بشكرها، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة، بتدبير الدنيا وجمعها»(١).

وقد دلنا سبحانه وتعالى على الاستعاذة بالله من إبليس قبل قراءة القرآن؛ لأن التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم من أهم مجالات التفكر، والاستعاذة قبل الابتداء بقراءة القرآن سببٌ لطرد الشيطان الموسوس للإنسان.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر»(٢).

- **الابتعاد عن المعاصي:**

لقد منع الله سبحانه وتعالى كلَّ من تكبر في الأرض بغير الحق، وامتنع عن الإيمان بآياته، والانقياد لأحكامه، هذا الخيرَ العظيمَ، والذي هو التفكر.

---

(١) تفسير النسفي (٤/ ٢٢٧) باختصار.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٧٣).

يقول تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال الحسن في تفسير هذه الآية: «أمنع قلوبهم التفكر في أمري»[١].

ومن أكبر المعاصي المانعة للتفكر في عظمة الله تعالى: سماع الغناء. يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن سماع الغناء يلهي القلب عن التفكر في عظمة الله سبحانه»[٢].

فاحرص -أخي المسلم- ألا تنقاد لشهواتك ورغبتك؛ لئلا تُمْنَع من هذا الخير العظيم.

- **زيارة القبور:**

وزيارة القبور من أهم الأعمال التي تساعد على تفكر القلب، فإذا زار العبدُ القبورَ تفكر بعين بصيرته، وعلم أن مآله إلى هذه الحفرة، فيكثر من الأعمال الصالحة.

قال مغيث الأسود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زوروا القبور تفكركم»[٣].

* * *

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٤).

(٢) تلبيس إبليس (٢٧٤).

(٣) أهوال القبور (ص١٥٤).

من فوائد التفكر

لقد تنبّه سلف هذه الأمة إلى فوائد التفكر العظيمة، وثمراته الجليلة، فحثوا أنفسهم وإخوانهم على التفكر، وعدُّوه عملاً جليلاً، من أهم الأعمال وأفضلها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»[1]. ومثله عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وعن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ[3].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ركعتان مقتصدتان في تفكر، خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساهٍ»[4].

وعن محمد بن كعب القُرَظي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بـ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ لا أزيد عليهن، وأتردد فيهما وأتفكر، أحب إليّ من أن أهُذَّ القرآن ليلتي، أو أنثره نثراً»[5].

وهذه بعضٌ من ثمرات وفوائد التفكر:

الاجتهاد في العمل:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة

---

(١) العظمة، لأبي الشيخ (١/ ٣٠٢)

(٢) شعب الإيمان (١١٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٠٩)، وقال ابن صاعد: صحيح

(٣) الزهد للإمام أحمد (٢٧٢)

(٤) الزهد، لابن المبارك (٢٨٨).

(٥) الزهد، لابن المبارك (٢٨٧).

وشرفها ودوامه، وفي الدنيا وخستها وفنائها؛ أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت»[1].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه»[2].

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من تفكر في خلق نفسه، عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[3]

وقال وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل»[4].

الخوف من الله، واستشعار عظمته:

قال بشر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو تفكر الناس في عظمة الله: لما عصوا الله»[5].

وقال حاتم الأصم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الذكر يزيدُ الحبُّ، ومن التفكر يزيد الخوف»[6].

وقيل: «الفكرة تُذهِب الغفلة، وتُحدث للقلب الخشية»[7].

محبة العبد لربه:

إن محبة العبد لله تحصل من التفكر في النعم؛ لأن النفس مجبولة على محبة من أحسن إليها، فإذا تأمل الإنسان نِعَم الله الكثيرة عليه، أوصله ذلك إلى محبته، والرضى عنه.

زيادة الإيمان:

إن التفكر في آيات الله وخلقه في الكون، وفي الآفاق، وفي الأنفس، من وسائل زيادة

---

(١) الفوائد (ص١٩٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٧)

(٤) العظمة لأبي الشيخ (١/ ٣١٣).

(٥) حلية الأولياء (٨/ ٣٣٧)

(٦) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)

(٧) تفسير النسفي (١/ ١٩٨).

الإيمان؛ لأنه بهذا التفكر يترسخ في قلبه معاني قدرة الله، وقوته، وعظمته، وتدبيره، وقيوميته، وحياته، ورحمته.

يقول خليفة العبدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يُعبد إلا عن رؤية ما عبده أحد، ولكن المؤمنون تفكروا في مجيء هذا الليل إذ جاء، فملأ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء، فمحا سلطان الليل، وفي السحب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء، والصيف، فوالله ما زال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حتى أيقنت قلوبهم بربهم»[1].

تَفَكَّرْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَبْصَارٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ[2]

معرفة حال النفس، ومحاولة إصلاحها:

إن الإنسان متى تفكر في نفسه عرف عيوبها ومحاسنها.

قال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «التفكر مرآة، تريك حسناتك وسيئاتك»[3].

ومتى ما علم الإنسان حال نفسه فإنه سيسعى إلى إصلاح عيوبه، وتطوير محاسنه.

وكان سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «الفكرة نور تدخله قلبك» وكان دائماً يتمثل:

إِذَا المَرْءُ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ... فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

وقال: «التفكر مفتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكر فيتوب»[4].

كما أن الثمرة الخاصة للتفكر هي العلم، وإذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب إلى الخشية، والإحساس بالتقصير في حق الله، والرغبة في الجد والاجتهاد، فإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح، فيصلح الإنسان، ويعلو شأنه، ويتحسن حاله.

(١) الدر المنثور (٤/ ٣٤٣).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٣٥).

(٣) العظمة لأبي الشيخ (١/ ٢٢٧)، حلية الأولياء (٨/ ١٠٩).

(٤) حلية الأولياء (٧/ ٣٠٦).

عَنْ مُغِيثِ بْنِ سُمَيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كان رجل ممن كان قبلكم يعمل بالمعاصي، فبينما هو ذات يوم يسير، إذ تفكر فيما سلف منه، فقال: اللهم غفرانك. فأدركه الموت على تلك الحال، فغفر له»[١].

الارتقاء بالأمة الإسلامية:

إننا لو أردنا أن نصلح أحوال المسلمين علينا أن نتفكر في الوضع الراهن لهذه الأمة، ونحاول اكتشاف أخطائها، ومقارنة حالها بحال السلف، ولنعلم السبب الذي جعل أسلافنا يسيطرون على أرجاء الدنيا، بينما نحن نحاول أن نسلَمَ من الأيدي التي تطالنا!.

وهؤلاء المصلحون والمجددون الكبار الذين مروا على الأمة الإسلامية، من المؤكد أن أول ما فعلوه هو النظر في حال المسلمين: ماذا ينقصهم؟ وأين الخلل؟ وما هي الثغرات؟ ثم بعد ذلك شمّروا عن ساعد الجد والاجتهاد، في تحصيل أسباب القوة والارتقاء بحال المسلمين، وسد الثغرات، من جهل، وشرك، ومعاصٍ.

تكثير العلم، واستجلاب المعرفة:

إن التفكر سببٌ لأن يرزق الله صاحبه العلم والمعرفة والحكمة، وسببٌ لأن يصل إلى فهم الشريعة على أكمل الوجوه وأحسنها.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واصفاً لقمان الحكيم: «ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال، ولكنه كان رجلاً صِمْصَامَةً سِكِّيتاً، طويل التفكر، عميق النظر، وكان يغشى السلطان، ويأتي الحكام؛ لينظر، ويتفكر، ويعتبر؛ فبذلك أوتي ما أوتي»[٢].

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر، حتى استنطقت قلوبهم، فنطقت بالحكمة»[٣].

---

(١) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٦٨)، الدر المنثور (٤/ ٥٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٥).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ١٩).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمة، ويحيي القلوب»[1].

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «استعينوا على الكلام بالصمت -أي على وزنه وجودته-، وعلى الاستنباط بالفكرة»[2].

وقال أيضاً: «الفضائل أربع، إحداها: الحكمة، وقوامها: الفكرة، والثانية: العفة، وقوامها: التغلب على الشهوة، والثالث: القوة، وقوامها: التغلب على الغضب، والرابعة: العدل، وقوامه: في اعتدال قوى النفس»[3].

فكيف أنتج العلماء هذا الإنتاج الغزير؟!، وكيف ألفوا هذه الكتب؟!، وكيف استنبطوا هذه الأقوال، سواء في التفسير، أو في الفقه، أو غير ذلك من فروع العلم؟!

لا شك أن جزءاً كبيراً من ذلك كان نتيجةً للتأمل في آيات الله، والتأمل في الأحداث والوقائع، وربط ذلك بالوحي.

وبالفكر استطاع العلماء حل الأمور المستعصية!.

وبالفكر استطاع العلماء أن يجمعوا بين النصوص التي ظاهرها التعارض!.

كقوله تعالى -مثلاً-: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**»[4].

فإن الآية القرآنية دلَّت على أن الإنسان لا يتحمل معاصي الآخرين، ودل الحديث على أن الميت يعذب بمعصية أهله، ونوحهم، وجزعهم.

ولكن العلماء بالتفكر استطاعوا أن يصلوا لحل هذه المسألة، فقالوا: إن عذاب الميت إنما يكون إذا أمر أهله من بعده أن يبكوا عليه، فهو قد عُذِّبَ على ما أَمَرَ به.

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠)، فيض القدير (٢/ ٣١٤)

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)، بتصرف

(٤) رواه البخاري (١٢٤٢)، ومسلم (٩٢٧)

بين العبادة والتفكر

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه بات ليلة عند خالته ميمونة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ... فنام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إذا انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، استيقظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الخواتم من سورة آل عمران..... ثم قام يصلي[1].

فما كاد يستيقظ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نومه إلا ويبدأ بالتفكر بالآيات التي أمر بالتفكر فيها وتدبرها، وهي آخر آيات سورة آل عمران. وهذه هي الطريقة التي يجب أن يسير عليها المسلم، فيجمع بين التفكر والعبادة، فلا يستغرق وقته في التفكر بدون عبادة، ولا يستغرق وقته في عبادة دون تفكر، بل يجمع بينهما.

يقول ابن العربي عن فعله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فانظروا -رحمكم الله- إلى جمعه بين التفكر في المخلوقات، ثم إقباله على صلاته بعده، وهذه السنّة هي التي يعتمد عليها، فأما طريقة الصوفية، أن يكون الشيخ منهم يوماً وليلة وشهراً مفكراً لا يفتر؛ فطريقة بعيدة عن الصواب، غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة على السنن»[2].

فعلى المسلم أن يجمع بين الطريقتين، ولا يعتني بواحدة دون أخرى؛ لأن ذلك يوصله إلى الزلل، ويوقعه في الخطَل.

* * *

(١) رواه البخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣٠١).

حال السلف مع التفكر

على المسلم أن يقتدي بأسلافه الصالحين، من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم إلى يوم الدين.

وقد تنبه أسلافنا إلى أهمية التفكر، فدأبوا عليه، وعملوا به، وجعلوه جزءاً أصيلاً من حياتهم اليومية.

عن محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ: أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد وفاة أبي ذر، يسألها عن عبادة أبي ذر، فأتاها، فقال: جئتك لتخبريني عن عبادة أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قالت: «كان النهار أجمع خالياً يتفكر»[١].

وعن عون رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سألت أم الدرداء قلنا: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: «التفكر والاعتبار»[٢].

وهذا عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول يوماً لسهل بن عدي -ورآه ساكتاً متفكراً-: أين بلغت؟ قال: «الصراط!»[٣].

وبكى عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يوماً بين أصحابه، فسئل عن ذلك، فقال: «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادَّكر»[٤].

(١) حلية الأولياء (١/ ١٦٤)

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٣٠٠)

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٢٥)

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٩)

وكان بعض الصالحين جالساً في مجلس، فانطفأ السراج، فعمّت الظلمة الغرفة، فلما أضاؤوا السراج، وجدوا دموعه تنهمر من عينيه، فقالوا: ما لك؟ قال: «تذكرت القبر».

وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: «الفكرة مخ العقل»[1].

وعن أبي أسامة المصري قال: بينا أبو شريح يمشي، إذ جلس فتقنع بكسائه، فجعل يبكي، فقلنا: ما يبكيك؟ قال: «تفكرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي»[2].

وكان داود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ليلة مقمرة، فتفكر، فقام، فمشى على السطح وهو شاخص، حتى وقع في دار جار له، فوثب صاحب الدار من الفراش، فأخذ السيف، ظاناً أنه لص، فلما رأى داود رجع ووضع السيف، وأخذ بيده، حتى رده إلى داره، فقيل لداود، فقال: «ما دريت»، أو «ما شعرت»[3].

وقال حاتم: «من مر بفناء القبور ولم يتفكر في نفسه، ولم يدع لهم؛ فقد خان نفسه، وخانهم»[4].

وحُكي أن بعض العُبّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل، فأدخل أصبعه في أذن القدح، وقعد يتفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك فقال: «أدخلت أصبعي في أذن القدح، فتذكرت قول الله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١] وذكرت كيف أتلقى الغل، وبقيت ليلي في ذلك أجمع»[5].

ومرَّ بعضهم على تنُّور خباز، فوقف ينظر في النار التي في التنور، ثم جعلت دموعه تنهمر، ويبكي بكاء حاراً، فقيل له: ما لك؟ قال: «ذكرت النار».

ويروى أن أعرابياً كان يسير على جمل له، فخر الجمل ميتاً، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به ويتفكر فيه، ويقول: «ما لك لا تقوم؟! مالك لا تنبعث؟! هذه أعضاؤك كاملة،

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٠).

(٢) العمر والشيب، لابن أبي الدنيا (٢٢).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٢٨٠).

(٤) العاقبة في ذكر الموت (ص١٩٥).

(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٢٤٥).

وجوارحك سالمة، ما شأنك؟! ما الذي كان يحملك؟! ما الذي كان يبعثك؟! ما الذي صرعك؟! ما الذي عن الحركة منعك؟!».

ثم تركه وانصرف، متفكراً في شأنه، متعجباً من أمره[1].

فهذا حال سلف هذه الأمة، فهلاّ كانوا قدوة لنا وأسوة.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٢١).

الخاتمة

إن القلب الذي لا يتفكر ولا يتدبر في مخلوقات الله وآياته ليس بقلب سليم.

والتفكر النافع إنما هو تفكر المستبصر، الذي يريد الاستفادة، أما من يتفكر في تلك الآيات، لينال بذلك العلم فقط، ولا يسعى لتحصيل العمل من بعده؛ فهو ظالم لنفسه.

قال أبو العتاهية:

إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى

فَكَرْتُ فِي الدُّنْيَا وَجِدَّتِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ جَدِيدِهَا يَبْلَى

وَبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا ... كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى

أَسْمَى مَنَازِلِهَا وَأَرْفَعُهَا ... فِي الْعِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ الْمَهْوَى

مَا زَالَتِ الدُّنْيَا مُنَغَّصَةً ... لَمْ يَخْلُ صَاحِبُهَا مِنَ الْبَلْوَى

تَقْفُو مَسَاوِيهَا مَحَاسِنَهَا ... لَا شَيْءَ بَيْنَ النَّعْيِ وَالْبُشْرَى

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا ... مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالْمَوْلَى

أَتُرَاكَ تُحْصِي مَنْ رَأَيْتَ مِنَ ... الْأَحْيَاءِ ثُمَّ رَأَيْتَهُمْ مَوْتَى!

فعلى الإنسان أن يديم التفكر ويطيله؛ لأنه يوصل إلى مرضاة الله، وانشراح الصدر، وسكينة القلب، ويورث الخوف والخشية من الله، ويورث العلم والحكمة والبصيرة، ويحيي القلوب.

فتذكر ما أنت صائر إليه حق ذكره، وتفكر فيما مضى من عمرك: هل تثق به، وترجو به

النجاة من عذاب ربك؟! أم أنك ستجد المساوئ والعيوب التي تخشى بها الردى والهلاك؟ وإياك أن تكون من الآمنين اللاهين الغافلين، الذين يتبعون أهواءهم.

نسأل الله أن يجعلك من الذين يتفكرون، ومن الذين يعقلون، ومن الذين يتدبرون.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. اذكر تعريف الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتفكر؟

٢. ما حكم التفكر؟ مع الدليل.

٣. للتفكر مجالات أربع، اذكرها؟

٤. اذكر أمرين من الأمور المعينة على التفكر؟

٥. للتفكر فوائد وثمرات متعددة، فما هي؟

٦. اذكر صوراً ونماذج من حال السلف الصالح مع التفكر؟

٧. لماذا عدد الله لعباده أنواع مخلوقاته في السموات والأرض؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما هي ضوابط التفكير المحمود؟

٢. اشرح العبارة التالية: (من عرف حقيقة نفسه، فقد عرف عظمة ربه).

٣. كيف يكون التفكير سببا لزيادة الإيمان؟

٤. هل هناك تلازم بين الفكر والعبادة؟

٥. اذكر كتابين من الكتب التي اهتمت بموضوع (التفكر).

٦. ما هي الأمور التي تعين العبد على التفكر، غير ما ذكر؟





التقوى

مُقدمة

الحمدُ لله ربِّ العَالمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى أشرف الأنبياءِ والمُرسَلِين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلَى آلِه، وصَحْبِه أجمعين.

أمَّا بعد:

فسنتحدَّث في هَذا الفصلِ عن منزلة التَّقوى، والتي هي خير زاد للدَّار الآخِرة، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والتَّقوى ميزان التَّفاضُل بين النَّاس، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والتَّقوى منبع الفضائل، ومستودع الشَّمائل: فالرَّحمة، والوفاء، والصِّدق، والعَدْل، والورع، والبَذْل، والعطاء؛ كلها مِن ثَمراتها.

وهي الأنيس في الوَحْشَة، والمُنجية مِن الهلكة.

ولأجل شرفها وفضلها؛ فقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعاون مِن أجلها، فقال سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

نسأل الله أن نكون من أهلها.

* * *

تعريف التَّقوى

التَّقوى لغة:

أصل التَّقوى في اللُّغة: قِلَّة الكلام. ومنه قولهم: التَّقِيّ مُلجَمٌ، وَ لمُتَّقِي فَوقَ المُؤمِنِ والطَّائِعِ، وَهُوَ الَّذِي يَتَّقِي بِصَالِحِ عَمَلِهِ، وَخَالِصِ دُعَائِهِ، عَذَابَ اللهِ تَعَالَى، مَأخُوذٌ مِنَ اتِّقَاءِ المَكرُوهِ، بِمَا تَجعَلُهُ حاجِزاً بَينَكَ وَبَينَهُ.

وَقَدْ تَوَقَّيتُ، واتَّقَيتُ الشَّيءَ، وتَقَيتُهُ، أَتَّقِيه، تُقًى، وتَقِيَّةً، وتِقاء: حَذِرتُه، وَالِاسمُ التَّقوى[1].

وأما المعنى الشرعي:

فقد ذكر العُلَماء في تعريفها عِدَّة عبارات، فمن ذَلِك:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقوى: فِعل ما أمر الله به، وترك ما نَهى الله عنه»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأَمَّ التَّقوى: فحَقِيقَتها العمل بطاعة الله إيماناً واحتِساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به إيماناً بالآمِر، وتصديقاً بوعده، ويترك ما نَهى الله عنه إيماناً بالنَّاهِي، وخوفاً مِن وَعِيده.

كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا وقعت الفتنة فأطفِئوها بالتَّقوى. قالوا: وما التَّقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ مِن الله، ترجو ثَوَاب الله، وأن تَترك معصِيَة الله، على نورٍ مِن الله، تَخاف عِقَاب الله[3].

وهَذَا أحسن ما قيل في حدِّ التَّقوى»[4].

---

(١) نظر: تفسير القرطبي (١/ ١٦١)، لسان لعرب (١٥/ ٤٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٠).

(٣) نظر كلامه في: الزهد لابن المبارك (ص٣٧٦)، رقم (١٣٤٣)

(٤) زاد المهاجر لابن قيم الجوزية (ص١٠)

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل التَّقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقوى: اسمٌ جامِع لِفعل الطَّاعات، وترك المُنكرات»[2].

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقوى: كمال التَّوقي عمَّ يَضُرُّه في الآخِرَة»[3].

وقال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُتَّقي: مَن يَترك ما لا بأسَ به، خوفاً مِمَّا فيه بأس»[4].

وقيل: «التَّقوى: هي الخَوف مِن الجَليل، والعمَل بالتَّنزِيل، والقناعة بالقَليل، والاستعداد ليَوم الرَّحِيل»[5].

وسأل عمر بن الخطَّاب أُبيَّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن التَّقوى، فقال: «هل أخذت يوماً طريقاً ذا شَوك؟» قال: نعم. قال: «فما عملت فيه؟» قال: تَشَمَّرتُ، وحذرت. قال: «فذاك التَّقوى»[6].

قال ابن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ[7]:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصنَع كَمَاشٍ فَوقَ أَر ... ضِ الشَّوكِ يَحذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وقيل أيضاً في التَّقوى: «أن لا يَراكَ الله حيث نَهاك، ولا يَفقِدك حيثُ أمَرك»[8].

فإذا نَهاكَ أن تجلس في مجالس يُكفَر فيها بآيات الله، ويُستَهزأ بها فلا يجدك هناك، وإذا أمَرك أن تكون في المسجد والصَّلوات الخمس، والجمعة؛ فلا يَفتَقِدك هناك.

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، (ص ١٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٢١٢).

(٣) تفسير أبي السعود (١/ ٢٧-٢٨).

(٤) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٠١).

(٥) سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي (١/ ٤٢١).

(٦) تفسير القرطبي (١/ ١٦١-١٦٢).

(٧) ديوان ابن المعتز (ص ٤٥).

(٨) تفسير أبي السعود (١/ ٢٨).

والتَّقوى تُطلَق في القرآن الكريم على عددٍ مِن الأمور، منها:

١. الخشية والهيبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]؛ أي: اخشوني وهابُوني.

وكذلك في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ أي: خافوا هذا اليوم وما فيه، وقال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «تارة تُضاف التَّقوى إلى اسم الله عزوجل؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]، فإذا أُضيفت التَّقوى إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالمقصود: اتَّقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يُتَّقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدُّنيوي والأخروي، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلٌ أن يُخشى، ويُهاب، ويُجَلّ، ويعظَّم في صدور عِباده؛ حتَّى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقُّه مِن الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوَّة البطش، وشدَّة البأس.

وتارةً تُضاف التَّقوى إلى عقاب الله، وإلى مكانه؛ كالنَّار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، أو إلى زمان العقاب؛ كيوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]»[1].

٢. الطَّاعة والعِبادة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، يعني: أطيعُوه حقَّ الطَّاعة، واعبدوه حقَّ العبادة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير الآية: «أن يطاع فلا يُعصَى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر»[2].

٣. التنزُّه عن الذُّنوب، وهذه هي التَّقوى في الاصطلاح، قال عزوجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص١٥٨-١٥٩)، بتصرف.

(٢) تفسير الطبري، (٧/ ٦٥)

حكم التَّقوى

لتَّقوى مِن أوجَب الواجِبَات، وقد دلَّ علَى ذَلِكَ نصوصٌ كثيرة مِن القرآن الكريم، والسُّنة الصَّحيحة، وكلام السَّلف الصَّالح؛ فقد أمرَ اللهُ ووَصَّى بها في أكثر مِن آية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمر بالتَّقوى كان عامًّا لجميع الأُمَم»[١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتَّقوى واجبة علَى الخَلق، وقد أمر اللهُ بها، ووصَّى بها في غير موضع، وذم من لا يتقي الله، ومَن استغنى عن تقواه توعَّده»[٢].

وقال بعض أهل العلم: «هَذِه الآية هي رَحَى آيِ القرآن كله؛ لأنَّ جميعَه يدور عليها»[٣].

يقول السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هَذِه الآية: «يخبر تعالى عن عُموم مُلكه العَظِيم الواسِع؛ المستلزم تدبيره بجميع أنواع التَّدبير، وتصرفه بأنواع التَّصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشَّرعي أن وصَّى الأوَّلين والآخِرين، أهل الكتب السَّابقة واللَّاحقة بالتَّقوى المُتضمنة للأمر والنَّهي، وتَشريع الأحكَام، والمُجازَاة لِمَن قام بهَذِه الوصيَّة بالثَّواب، والمُعاقَبة لمن أهملَها وضيَّعها بأليم العذَاب»[٤].

والنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أيضاً- قد أمَر بالتَّقوى، فعَن أبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ الله حَيثُمَا كُنتَ»[٥].

فاجتمع الكتاب والسنة على إيجاب التَّقوى، والأمر بها.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٨)

(٢) شرح العمدة (٣/ ١٢٧)

(٣) تفسير القرطبي (٥/ ٤٠٨).

(٤) تفسير السعدي ص(٢٠٧)

(٥) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي

منزلة التَّقوى

لا شكَّ أنَّ للتَّقوى مَنزِلة كبيرة، فلم يَزل الأنبياء والصَّالِحُون يُوصُون بها أقوَامَهُم وأهليهم.

قال العِرباض رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «صلَّى بنا رسُول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذات يوم، ثُمَّ أقبَل علينا، فوعَظَنا موعِظَةً بليغَةً، ذرَفَت منها العُيون، ووَجِلَت منها القُلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأنَّ هَذِه موعِظَة مودِّع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أُوصِيكُم بِتَقوَى الله...»» الحديث[1].

وجميع الرُّسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ كانوا يُوصُون أقوامهم بالتَّقوى: قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

ولم يزل السَّلف الصَّالح يتوَاصَونَ بالتَّقوى:

فعن عبد الله بن عُكَيم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: «خطَبَنا أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فحمد الله، وأثنَى عليه بما هو له أهل، ثُمَّ قال: «أُوصِيكُم بِتَقوَى الله»»[2].

وعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُٱللَّهُ: أنَّ أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمَّا بعث الجُنود نحو الشَّام: يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسَنة، قال -يعني سعيد بن المسيب-: «لمَّا ركِبُوا مشَى أبو بكر مع أُمَراء جنوده يودعهم؛ حتَّى بلغ ثنيَّة الوداع، فقالوا: يا خليفةَ رسول

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، واللفظ له، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٣٤٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٩٣).

الله، أَتَمْشِي ونحن رُكبَان؟! فقال: «إِنِّي أحتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سبيل الله»، ثم جعل يوصيهم فقال: «أوصيكم بتقوى الله»[١].

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا بعث سريَّة؛ ولَّى أمرها رجلاً، فقال له: «أوصيكَ بتقوى الله الَّذِي لَا بُدَّ لك من لقائه»[٢].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام رحمه الله: «دخلت البصرة لأسمع من حمَّاد بن زيد، فقدمت؛ فإذا هو قد مات، فشكوت ذَلِكَ إلى عبد الرحمن بن مهدي، فقال: مهما سُبِقتَ به، فلا تُسبقَنَّ بتقوى الله عزوجل»[٣].

قال ابن تيمية رحمه الله: «مَا أعلم وصيَّةً أنفع من وصيَّة الله ورسوله لمن عقلها واتَّبعها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ووصَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم معاذاً لَمَّا بعثه إلى اليمن، فقال: «يَا مُعَاذ؛ اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنتَ، وَأتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا، وَخَالِقِ النَّاس بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٤]، وكان معاذ رضي الله عنه من النَّبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة عالية؛ فإنَّه قال له: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[٥]... ثم وصَّاه هَذِهِ الوصيَّة، فعُلِمَ أنَّها جامعة. وهي كذَلِكَ لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصيَّة القرآنية.

أمَّا بيان جمعها؛ فلأنَّ العبد عليه حقَّان: حق لله عز وجل، وحق لعباده.

ثُم الحقُّ الَّذِي عليه لا بُدَّ أن يخل ببعضه أحياناً؛ إمَّا بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه، فقال النَّبي: «اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنتَ»، وهَذِهِ كلمة جامعة. وفي قوله: «حَيثُمَا كُنتَ» تحقيقٌ لحاجته إلَى التَّقوى في السِّر والعلانية. ثُم قال: «وَأتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا»، فإنَّ الطَّبيب متى تناول

(١) سنن البيهقي الكبرى (١٧٩٠٤).

(٢) السنة للخلال (٥٩)، قال محققه: إسناده صحيح.

(٣) الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي (ص١٧٩).

(٤) رواه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٥) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

المَرِيضُ شيئاً مُضِرّاً أمره بما يصلحه، والذَّنب للعَبد كأنَّه أمرٌ حتم، فالكيِّس هو الَّذِي لا يزال يأتِي مِن الحسَنات بما يمحو السَّيئات»[1].

فهَـذِه إذاً منزلة التَّقـوى؛ عرَفنـاهَا مِن خـلال الوصَايا والإنذارات التي أطلقها الرُّسُـل والسَّلف لأقوامهم وأصحابهم.

***

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٣-٦٥٥).

المتقون هم أولياء الله تعالى

إنَّ أهل التَّقوى هم أولياء الله في الحقيقة، وليس هؤلاء الَّذين يمشون على البحر، ويَطِيرُون في الهواء، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]؛ فالمُتَّقون هم أصحاب الولاية حقًّا، المجتهدون في فِعل الطَّاعات والنَّوافِل.

فعَن أبي هُرَيرَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَن عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»[1].

ومِن هنا يتبيَّن كَذِب، ودَجَل ادِّعاء مَن قالوا: إنَّهم أولياء الله؛ مِن مُنحَرِفي الصُّوفية، الَّذين يرقصُون، ويَضربُون بالطَّبل في المَوَالِد، ويتمَايلُون، ويتساقَطُون، ويَزعمُون الصَّرع، ويُعشِّرُون المُردَان والنِّسوان، كما نقل عنهم العلماء، ثم يقولون: نحن أولياء الله، ويَدعُون النَّاس إلى الاستغاثة بهم، أو يَرضَون بذَلِك!!.

وقد جعَلَ الله عَزَّوَجَلَّ لنا فرقاناً نفرِّق به بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وقال: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

قال السَّعدي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فكُلُّ مَن كان مؤمناً تقياً؛ كان لله تعالى وليّاً»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٦٨).

مراتب التّقوى

التّقوى تكون على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى:

التّوقّي مِن العمل الذي يخلّد صاحبه في النّار، وهو الشّرك والكُفر، وذلك باتّباع التّوحيد، وكلمة التّوحيد، وهي المقصودة بقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ [الفتح ٢٦].

فمن النّاس مَن يقي نفسه من الخلود في النّار؛ فهَذِه همّته، ولا يتّقي المعاصي التي تُدخِلُه جهنّم ولو حيناً مِن الدّهر، فيقر بالتّوحيد، ويصدق بالرّسول ﷺ، ويأتي بأركان الإسلام والإيمان، ولكنّه لا يحرص أن يَقِيَ نفسه من دخول النّار بالكُلّيّة؛ فيفرّط في الواجبات، ويفعل المحرّمات، فينبغي أن يعلم هَذَا أيُّ درجةٍ مِن التّقوى هو عليها، إذ مِثل هَذَا لا يَستَحِقُّ صاحبه اسم المُتّقي بإطلاق؛ لأنّه متعرّضٌ للعذاب، مستحقٌّ للعقاب بما يفعله، إلّا أن يتدارَكَهُ الله برحمته؛ لأنّ العُصاة المُوحّدين داخلون في المَشيئة، إن شاء الله عفَا عنهم، وإن شاءَ عذّبهم، ثم يخرجهم من النار متى شاء.

المرتبة الثانية:

التّوقّي من كل ما يكون سبباً للعذاب في النّار، ولو لبُرهَةٍ يسيرة، مِن الكبائر والصغائر

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويدخل في التّقوى الكاملة: فِعل الواجبات، وترك المُحرّمات والشُّبهات، وربما دخَل فيها -بعد ذَلِك- فِعلُ المندوبات، وترك المكروهات، وهي أعلى درجات التّقوى، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١-٤]»[١].

فمن النَّاس مَن يتَّقِي الكفر، وكبائر الذُّنوب، ويفعل الواجبات، لكن لا يَمتنع مِن الصَّغائر، ولا يُكثِر مِن النَّوافل؛ فهذا قريب مِن النَّجاة، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. وعَن أبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**الصَّلَوَاتُ الخَمسُ، وَالجُمعَةُ إِلَى الجُمعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجتَنَبَ الكَبَائِرَ**»[٢].

عدم استصغار الذنوب:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إنَّ المُؤمِن يرَى ذنوبه كأنَّه قاعدٌ تحت جبَلٍ يخاف أن يقَعَ عليه، وإنَّ الفَاجِرَ يرَى ذنوبه كذُبَابٍ مَرَّ على أنفِه، فقال به هكذَا»[٣]؛ أي: بيده فوق أنفه.

واللهُ عزوجل قد قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، يعني ليس أن تتقي الخلود فقط في جهنم، أو تتقي الكبائر فقط، بل لا بد مِن اتِّقاء الصَّغائر أيضاً، واتِّقاء كل ما يؤدِّي للدُّخول في النَّار، وذلك بأن تجعل بينك وبين النَّار جُنَّةً حَصِينَةً بهذه الطَّاعات.

والصَّغائر لها خطرٌ عظيمٌ وكَبِير، وقد حذَّر منها سيِّد المرسلين ﷺ؛ فعن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُم وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهلِكنَهُ**»، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلاً: «**كَمَثَلِ قَومٍ نَزَلُوا أَرضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ القَومِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً، فَأَجَّجُوا نَاراً، وَأَنضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا**»[٤].

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص١٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٤) رواه أحمد (٣٨١٨)، وحسنه محققو المسند، والألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٧).

لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرَةً ... إِنَّ الصَّغِيرَ غَداً يَعُودُ كَبِيرَا
إِنَّ الصَّغِيرَ وَلَو تَقَادَمَ عَهدُهُ ... عِندَ الإِلَـهِ مُسَطَّرٌ تَسطِيرَا
فَازجُر هَوَاكَ عَنِ البَطَالَةِ لَا تَكن ... صَعبَ القِيَادِ وَشَمِّرَن تَشمِيرَا
إِنَّ المُحِبَّ إِذَا أَحَبَّ إِلَهَـهُ ... طَارَ الفُؤَادُ وَأُلهِمَ التَّفكِيرَا
فَاسأَل هِدَايَتَكَ الإِلَـهَ بِنِيَّةٍ ... فَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيرَا[1]

المرتبة الثالثة:

أن يتنزَّه العبد عن ما يشغل نفسه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولو كان من المباح، فهَذِه هي المَرتبة العالية «مرتبة الكُمَّل»، فإنَّ الانشغال بالمُباحات يشغل القلب عن الله عَزَّوَجَلَّ، وربما يؤدِّي إلى القَسوَة، وبالتَّالي يؤدِّي إلى الوقوع في المَكرُوهَات، والمكروهات تؤدِّي للوقوع في المُحرَّمات، وهَذَا التسلسل يعرفه الإنسانُ مِن نفسه في بعض الأحيان؛ فلا يبلغ العبد درجة المُتَّقِين حتَّى يَدَع ما لا بأس به؛ حذراً مِمَّا به بأس.

قال أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تمام التَّقوى: أن يتَّقِيَ اللهَ العبدُ حتى يتَّقِيَه في مثقال ذرَّة، حتى يترك بعض ما يرى أنَّه حلالٌ خشية أن يكون حراماً»[2].

وليس المقصود أن يترك كل الحلال، ولكن الحذر يقتضي ترك شيءٍ مِن المُباح؛ خشية الوقوع في الحَرام، وهَذَا هو الورَع، فإنَّ الله قد بيَّن للعِبَاد أنَّه مَن يعمل مثقال ذرَّةٍ شرّاً يره، فلا بد لكي تتَّقِيَ الذَّرَّة مِن الشَّر: أن تُوَسِّع دائرته لتبتعد عنه؛ لأنَّ مَن رعى حول الحِمَى يوشِك أن يقع فيه.

عَن النُّعمَان بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرضِهِ مَحَارِمُهُ»**[3]، وفي رواية: **«وَالمَعَاصِي حِمَى الله، مَن يَرتَع حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَن يُوَاقِعَهُ»**[4].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤١).
(٢) الزهد لابن المبارك (ص٤٥٢).
(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه البخاري (١٩٤٦).

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما زالت التَّقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام»(١).

وقال الثَّوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما سُمُّوا المتَّقين؛ لأنَّهم اتَّقوا ما لا يُتَّقى»(٢)؛ أي: ما لا يُتقى عادة، أو لا يتَّقِيه أكثر النَّاس.

***

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب (التَّقوى)، كما في (الدر المنثور) (١/ ٦١).

(٢) رواه ابن أبي الدُّنيا في كتاب (التَّقوى)، كما في (الدر المنثور) (١/ ٦١)

العلم والتّقوى

هناك مسألةٌ مهمّةٌ في هَذَا الباب، وهي وجوب ارتباط التَّقوى بالعِلم، فلا تصح التَّقوى مع الجَهل.

فيلزم الإنسان أن يعرف أوّلاً ماذا يتقي، فيتعلّم أحكام الدِّين، ويعرف الحلالَ مِن الحرَام، حتَّى إذا عرف المُحَرّم؛ ابتَعدَ عنه وترَكَهُ.

وبدعوى التَّقوى؛ امتنع كثيرٌ مِن الجَهَلة عن بعض المُباحَات الخالصة الَّتي لا يَشُوبُها شائبة الحرَام، وهَذَا مِن باب وضع الشّيء في غير محَلّه، وهو ظلمٌ مِن العبد لنفسه؛ لأنَّه حرّمَ نفسه مِن المُباحِ تعبُّداً، وليس ذَلِكَ مِن التَّعبُّد في شيء.

***

صفات المتقين

إنَّ للمُتَّقين صفاتٍ يُعرفُون بها بين النَّاس، ذَكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعضاً منها، فمن هَذِه الصِّفات:

١. يؤمنون بالغيب إيماناً جازماً، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣].

٢. يعفون ويَصفَحُون، قال سبحانه: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

٣. لا يَقترفُون الكبائر، ولا يُصِرُّون على الصَّغائر، وإذا ما وقَعُوا في ذنبٍ سارَعُوا إلى التَّوبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

٤. يتحرَّون الصِّدق في الأقوال والأعمال، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

٥. يعظِّمُون شعائر الله ومَناسِكَه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومعنى تعظيم شعائر الله: أنَّ يعظِّم المرء حرُمَات ربِّه؛ فلا ينتهكها، ويعظِّم أوامر الله؛ فيأتِي بها على وجهها.

٦. يتحرَّون العَدل، ويحكُمون به، قال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٨].

٧. يتَّبعون سبيل الأنبياء، والصِّدقين، والمُصلحين، ويكونون معهم، قال جلَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

السبيل إلى التَّقوى

إنَّ الوصُول إلى تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الغالب لا يَتِمُّ بمُجَرَّد الأعمال الظَّاهرة؛ وإنَّما يحصل بما يَقَع في القلب مِن خشية الله، ومراقبته، وعظمَتِه[١]، فمَن أراد أن يصبح مِن أهل التَّقوى؛ فعليه أن يعمل على إصلاح قلبه أوَّلاً، مع إصلاح الأعمال الظَّاهرة ثانياً.

ومن الأمور الَّتي إذا قام بها العبد أصبح مِن المتَّقِين:

طلب التَّقوى من الله:

عَن عَبدِ الله بنِ مَسعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ الهُدَى، وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ، وَالغِنَى**»[٢].

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفسِي تَقوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنتَ خَيرُ مَن زَكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّهَا وَمَولَاهَا**»[٣].

وفي دعاء السَّفَر كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقوى**»[٤].

وبلغ مالك أن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**اللهم اجعلني مِن أئمَّة المُتَّقِين**»[٥].

---

(١) شرح السيوطي على صحيح مسلم (٥/ ٥٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢١).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٤) رواه مسلم (١٣٤٢).

(٥) موطأ مالك (٥١٠).

استشعار مراقبة الله سبحانه على الدوام:

قال بعضهم:

لَا خَيرَ فِيمَن لَا يُرَاقِبُ رَبَّهُ ... عِنْدَ الهَوَى وَيَخَافُهُ إِيمَانَا

حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الهَوَى فَأَخُو التُّقَى ... يَخْشَى إِذَا وَافَى المَعَادَ هَوَانَا[١]

إصلاح النية:

عن عَون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «فوَاتح التَّقوى: حُسن النِّيَّة»[٢].

الإيمان بالله وبالقضاء خيره وشره:

عن عَطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سألتُ الوليد بن عبادة بن الصَّامت: كيف كانت وصيَّة أبيكَ إيَّاكَ حين حضَره الموت؟ قال: دعاني فقال: «يا بُنيَّ؛ أوصيك بتقوى الله، واعلَم أنَّك لن تتَّقيَ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى تؤمنَ بالله، واعلم أنك لن تؤمن بالله، ولن تطعم طعم حقيقة الإيمان، ولن تبلغ العلم حتَّى تؤمن بالقدر كله؛ خيره وشره»[٣].

وبالصَّبر على القضاء؛ يَصِل الإنسان إلى التَّقوى.

قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأس التَّقوى الصَّبر»[٤].

محاسبة النفس:

عن مَيمُون بن مِهرَان رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لا يكون الرَّجُل مِن المُتَّقين حتَّى يحاسب نفسه أشد مِن محاسبة شريكه، حتَّى يعلم مِن أين مطعمه؟ ومِن أين مَلبَسه؟ ومِن أين مَشربه؟ أمِن حلَالٍ ذَلِك أم مِن حرام؟»[٥].

وعن الحارث بن أسد المُحَاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «أصل التَّقوى: محاسبة النَّفس»[٦].

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص٢٣٦)

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٤/ ٢٥٠)

(٣) الشريعة للآجري (١/ ٢١٥)، والقدر للفريابي (٢٢٥) وقال محققه: إسناده حسن

(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (٤/ ٢٤٥).

(٥) حلية الأولياء (٤/ ٨٩)

(٦) المرجع السابق (١٠/ ٧٦).

العلم:

قال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النتيجة للعلم هي التَّقوى»(١).

ومِن العلم: معرفة ما في الحرام مِن المَفَاسِد والآلَام؛ فإنَّ الإنسان إذ تأمَّل فيما حصَل للأقوام السَّابقة؛ التزم التَّقوى.

فما الَّذِي أخرَجَ الأبوَين مِن الجنَّة إلى الأرض؛ مِن دار النَّعِيم واللَّذَّة والسُّرور إلَى دار الآلام والأحزان؟

إنَّها المعصية، وترْك التَّقوى!

وما الَّذِي أخرج إبليس مِن مَلكُوت السَّماء، وطَرده ولعنه، ومسخ باطنه وظاهره، فجعله في أقبح صورة، وبدَّلَهُ بالقُرب بُعداً، وبالرَّحمة لعنة، وبالجنَّة نار تلظَّى؛ فهَانَ على الله غاية الهوَان، وصار فاسِقاً مجرماً، قاد البشَريَّة إلى كُلِّ فسَادٍ وشرٍّ؟

إنَّها المعصية، وترْك التَّقوى!

وما الَّذِي أغرق أهل الأرض جميعهم؛ حتَّى علَا المَاءُ فوق رُؤوس الجِبَال في عَهد نُوح؟

وما الَّذِي سلَّط الرِّيح العقيم على قوم عاد؛ حتَّى ألقتهُم صَرعَى علَى سطح الأرض؟

ومَا الَّذِي أرسل علَى قوم ثَمُود الصَّيحة؛ حتَّى قطَّعت قلوبهم في أجوَافهم؟

وما الَّذِي رَفَع قرية سدوم -قرية قوم لوط- حتَّى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثُم قلبها عليهم؛ فجَعل عاليَها سافِلَها، وأتبعَها بحجارة؛ فأصبحت مكاناً مُنتِناً لا يُوجَد فيه حياة؟

وما الَّذِي أرسل علَى قوم شُعَيب عذاب الظُّلَّة، فلمَّا صار فوق رؤوسهم أمطرَهُم ناراً تلظَّى؟

وما الَّذِي أغرق فرعون وقومه في البَحر، ثُم نُقِلت أرواحهم إلى جهنَّم؛ تعرض عليها غدوًا وعشياً؟(٢)

---

(١) حاشية السندي على النسائي (٨/ ٣٢٦).

(٢) الداء والدواء (ص/ ٩٨-١٠٠) بتصرف.

أنَّها المعصية، وترك التَّقوى.

فتأمَّل ما في الذُّنوب مِن الآلام والمصائب؛ يقُود الإنسان إلى التَّقوى.

قال مسعر بن كدام رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفنَى اللَّذاذةُ مِمَّن نَالَ صَفوَتَهَا ... مِنَ الحَرَامِ وَيَبقَى الإِثمُ وَالعَارُ
تَبقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغَبَّتِهَا ... لَا خَيرَ فِي لَذَّةٍ مِن بَعدِهَا النَّارُ[1]

وهَذا رجلٌ زنَى بامرأة، فحمَلَت المرأة، وهو في حيرة لا يدري ماذا يفعل، أيتزوَّجها ويتعرَّض للفضيحة في أهله؟ أم يقتل الولد في بَطنِه، وهَذه جناية أخرى أعظم؟ أم يتركها وولدها؛ ويتشرَّد الولَد؟ وكلها مصائب وكلها آلام!

ولو أنَّه تأمَّلَ عواقب فعلَتِه قبل أن يفعلها؛ لقَادهُ تأمُّله إلى التَّقوى.

الحياء:

قال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَياء أخف التَّقوى، ولا يَخاف العبد حتَّى يَستَحيِي، وهل دخل أهل التَّقوى في التَّقوى إلَّا مِن الحياء؟!»[2].

وأنشد المبرد رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَا إِن دَعَانِي الهَوَى لِفَاحِشَةٍ ... إِلَّا نَهَانِي الحَيَاءُ وَالكَرَمُ
فَلَا إِلَى فَاحِشٍ مَدَدتُ يَدِي ... وَلَا مَشَت بِي لِزَلَّةٍ قَدَمُ[3]

الصدقة حال الصحة والشح:

قال عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: «لن تنالوا شرف الدِّين والتَّقوى حتَّى تتصدَّقوا وأنتم أصِحَّاء أشِحَّاء، تأملون العَيش، وتخشَون الفَقر»[4].

---

(١) حلية الأولياء (٧/ ٢٢١)

(٢) فيض القدير (١/ ٤٨٧)

(٣) المستطرف للأبشيهي (ص٤٠٧).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ١٣٣)

الصوم:

قال الطَّاهر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّوم: أصل قديم مِن أصُول التَّقوى»[١].

لأنَّ الإنسـان متَى ما صامَ؛ فإنَّه يكبح الكثير مِن شـهواته، وهَذَا الكبح هو الَّذِي يوصله إلى تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أكل الحلال:

قال المُبارَكفُورِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أكل الحلَال رأس التَّقوى كله»[٢].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «طلَب كَسب الحلَال مِن أصُولِ الورَع، وأسَاس التَّقوى»[٣].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ١٥٩)، بتصرف.

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ١٢٠)، بتصرف.

(٣) فيض القدير (٦/ ٩١).

مواطن التّقوى

في السر والعلن:

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ستة أيام: «اعقِل يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ بَعدُ». فلمّا كان اليوم السّابع، قال: «أُوصِيكَ بِتَقوَى الله فِي سِرِّ أمرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ...»[1].

وهَٰذه الأشياء سهلةٌ بالقول، وصعبةٌ في التّطبيق، فبعض النّاس يغفل وينسى مراقبة الله له، وينسى حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض جسدي فقال: «اعبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَكُن فِي الدُّنيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ، أو عَابِرُ سَبِيلٍ»[2].

قال أبو نوّاس رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِذَا مَا خَلَوتَ الدَّهرَ يَوماً فَلَا تَقُل ... خَلَوتُ وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحسَبَنَّ الله يَغفَلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخفَى عَلَيهِ يَغِيبُ[3]

في الحضر والسفر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجُلاً قال: يا رسول الله: إنّي أريد أن أسافِر، فأوصِني. قال: «عَلَيكَ بِتَقوَى الله، وَالتَّكبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ»، فلمّا أن ولى الرجل قال: «اللهم اطوِ لَهُ الأرضَ وَهَوِّن عليه السَّفَرَ»[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٥٧٣)، قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٦١). حسن لغيره

(٢) رواه الإمام أحمد (٦١٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٤٧٣)

(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر، (١٣/ ٤٥٥)

(٤) رواه الترمذي (٣٤٤٥)، وأحمد (٨٣١٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

والتَّقوى في السَّفر بالذَّات لها طعم خاص، فالمسافر يغيِّر مكانه وحاله، وقد يكون في بلاد الغُربة لا يخشَى مِمَّا يخشى منه في بلده وموطنه، فلا يخشى من الفضيحة، لكن في بلده يخاف منها؛ لذَلِك كانت ملازمة التَّقوى في السَّفَر مهمَّةً جداً.

***

ثمرات وفوائد التَّقوى

إنَّ تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي النَّافعة في الدَّارين، وهي الرَّافعة فيهما، والموصلة إلى خيرهما، والدَّافعة لشرِّهما.

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجُلٌ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أوصِني. قال: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَجُلاً جاءه فقال: أوصِني. فقال: «سألتَ عمَّا سألتُ عنه رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن قبلك؛ أُوصِيكَ بتقوى الله؛ فإنَّه رأس كل شيء»[2].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «إنْ أحدكم لن يزال بخير ما اتَّقى الله»[3].

وكتب رجلٌ مِن السَّلف إلى أخيه: «أُوصِيكَ وأنفُسَنا بالتَّقوى؛ فإنها خير زادِ الآخِرَة والأُولَى، واجعَلهَا إلى كل خيرٍ سبيلَك، ومِن كل شرٍّ مَهرَبَك؛ فقد تكفَّل الله عَزَّ وَجَلَّ لأهلها بالنَّجاة مِمَّا يَحذَرُون، والرِّزق مِن حيث لا يحتسبون»[4].

وكتب عمر بن عبد العَزِيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض أُمَراء الأجنَاد: «أمَّا بعد، فإنِّي أُوصِيكَ بتقوى الله، وطاعته، والتَّمَسُّك بأمره، والمُعاهَدة على ما حمَّلك الله مِن دينه، واستَحفظَك مِن كتابه؛ فإنَّ بتقوى الله نجَا أولياؤه مِن سخَطِه، وبها تحقَّق لهم ولايته، وبها وافَقُوا أنبياءه،

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٩٤٩)، وقال الألباني: صحيح لغيره. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٦٩).

(٢) رواه أحمد (١١٧٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٥٥).

(٣) رواه البخاري (٢٩٦٤).

(٤) جامع العلوم والحكم (ص١٦١).

وبها نضرت وجوههم، وبها نظروا إلى خالقهم، وهي عِصمةٌ في الدُّنيَا مِن الفِتَن، والمخرج مِن كرب يوم القيامة»[1].

فتأمَّل ما في القرآن والسُّنة وكلام السلف مِن ذِكرٍ للتقوى، وكم عُلِّق بها من خير، وكم وُعِد عليها من ثواب، وكم أضيف إليها من سعادة! إنَّك إن تأمَّلتَ في ذَلِك كان سبباً لحثِّكَ على التَّقوى، والتِزَامِكَ لها، وعملك بها.

فإليك شيئاً مِن هَذِه الثَّمرات والفوائد، لعلَّ الله أن ينفعنا وينفعك به.

التَّقوى سبب لنيل رحمة الله سبحانه:

عن سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ يَومَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ مائةَ رَحمَةٍ، كُلُّ رَحمَةٍ مِلءُ مَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرضِ، فَقَسَمَ مِنهَا رَحمَةً بَينَ الخَلَائِقِ؛ بِهَا تَعطِفُ الوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا، وَبِهَا يَشرَبُ الوَحشُ وَالطَّيرُ المَاءَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ، فَإِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ؛ قَصَرَهَا عَلَى المُتَّقِينَ، وَزَادَهُم تِسعاً وَتِسعِينَ»[2].

التَّقوى سبب لقبول العمل:

وهَذِه مِن أعظم الثَّمرات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

دخل سائلٌ إلى ابن عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال لابنه: «أعطِه ديناراً». فأعطاه، فلمَّا انصرف، قال ابنه عقيل: «تقبل الله منك يا أبتاه». فقال: «لو عَلِمتُ أنَّ الله تقبَّل مِنِّي سجدةً واحدةً، أو صدقة درهم؛ لم يَكُن غائبٌ أحبَّ إليَّ مِن الموت، تدري مِمَّن يتقبَّل الله؟ إنَّما يتقبَّل اللهُ مِن المُتَّقِين»[3].

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ إلى رَجُل: «أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ الَّذِي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلَّا أهلها، ولا يثيب إلَّا عليها، فإنَّ الواعِظِين بها كثير، والعَامِلِين بها قَلِيل»[4].

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي، (٢٠٢)، وحلية الأولياء (٥/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٧٦٢٨)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وأخرجه مسلم (٢٧٥٣) عن سلمان مرفوعاً بنحوه.

(٣) تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر (٣١/ ١٤٦).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٦٧).

التَّقوى سبب للنجاة من عذاب الدُّنيا:

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]؛ أي: من عذاب الدُّنيا.

التَّقوى توصل إلى مرضاة الرب عَزَّوَجَلَّ، وتكفير السيئات، والنجاة من النَّار، والفوز بالجنة:

وهَذَا هو قِمَّة المَطلُوب، وأعلَى مُراد المُسلِم، وهو أن يُدخِلَه الله عَزَّوَجَلَّ الجنَّة، وينجيه من النَّار.

فيكفر الله سيئات المُتَّقِين، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

ولا يحزنهم الفزع في ذَلِك اليوم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم ينجيهم من النَّار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

ثم يورثهم الجنة بالتَّقوى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]. فيُسَاقُونَ إليها زُمَرًا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

وهؤلاء المُتَّقون لا يذهَبُون إلى الجنَّة مشياً، وإنَّما يذهبون رُكباناً، مُوقَّرين مُكرَّمين: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

فيجتمعون بأحبابهم: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، على سرر متقابلين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٧].

فينالُونَ ما تَشتَهِيه أنفُسُهم: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١]

في غُرَفٍ مَبنِيَّةٍ، مِن فَوقِهَا غُرَف. ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

وينعمون في ظِلَالِ الجنَّةِ وعيونِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٣].

وينالون العِزَّةَ، والفوقيَّة، والشَّرَف في تِلكَ الدَّار: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل النَّاس الجنَّة؟ فقال: «تَقوَى الله، وَحُسنُ الخُلُقِ»[1].

نِعمَت جَزَاءُ المُتَّقِينَ الجَنَّةُ   دَارُ الأَمَانِي وَالمُنَى وَالمِنَّه[2]

التَّقوى سبب لغفران ذنب المتقي وذنب غيره:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّقوى تكون سببًا لمغفرة ذنوب المُتَّقِي، ومغفرة ذنوب غيره؛ لأنَّ مِن التَّقوى: الانكِفَاف عن مشاركة أهل المَعَاصِي في مَعَاصِيهم؛ فيَحصُل بذَلِك انكِفَاف كثيرٍ منهم عن معاصيهم تأسِّيًا، أو حياءً؛ فتتعطَّل بعض المعاصي، وذَلِك ضربٌ مِن الغُفرَان»[3].

التَّقوى سبب للإكرام عند الله عزوجل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

محبة الله والملائكة والنَّاس للعبد المتقي:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وإذا أحبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّه ينادي جبريل ويأمره أن يُحِبَّه، ثُم يحبه أهل السَّماء، ثُم يحبُّه أهل الأرض.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٤)، وأحمد (٩٦٩٦)، وحسنه محقق المسند، والألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) شرح شذور الذهب - لابن هشام (ص٢٧).

(٣) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٢٣).

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «مَن اتَّقى ربَّه، ووصَل رحِمَهُ؛ نُسِئ في أجَلِه، وثَرى ماله، وأحبَّه أهله»[1].

وعن زيد بن أسلم رَحِمَهُٱللَّهُ قال: «يقال: مَن اتَّقى اللهَ؛ أحبَّهُ النَّاس وإن كرهُوا»[2].

نصرة الله للمتقي وتأييده له وتسديده:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، والمَعِيَّة هَذه: معيَّةُ نُصرةٍ، وتأييد، وتسديد، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعطاها للأنبياء المُتَّقِين، فقال لموسى وهارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

قال رجل ليونس بن عُبَيد رَحِمَهُٱللَّهُ أوصِني، قال: «أُوصِيكَ بتقوَى الله، والإحسان؛ فإنَّ الله مع الَّذِين اتَّقوا والَّذِين هم مُحسِنُون»[3].

ثُمّ إنَّ العاقبة في النهاية دائماً ما تكون للمُتَّقِين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

التَّقوى سبب لبركة الأعمال:

كتب ليث بن أبي سُليم إلى سليمان بن طرخان رَحِمَهُمَاٱللَّهُ: «سلامٌ عليك، فإنِّي أحمَدُ إليكَ الله الَّذِي لا إله إلَّا هو العزيزُ العظيم، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله؛ أمَّا بعد: فإنِّي أوصيكَ بتقوى الله؛ فإنَّ المتقي ينفعه مِن عمَلِه ما قلَّ منه أو كثُر، جعَلَنا اللهُ وإيَّاكَ برحمته مِن المُتَّقِين»[4]

البشرى:

سواءٌ كانت تِلكَ البُشرَى ثناءً مِن الخلق، أو تبشير مِن الملائكة عند الموت، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٨)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٢٢٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص١٦١).

(٤) ذم الدُّنيا لابن أبي الدنيا (٤١٩).

يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

التَّقوى سبب لنيل هداية الكتاب:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

ومن أهم ما يُكافأ به المتقي: أنه يُعطى العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وإنَّ مِن أسباب نقصان العِلم والحِفظ، وذهاب المسائل، وعدم الحَمَسة للعِلم: المعاصي، فهي تَصُدُّ النَّفسَ عن العلم.

البصيرة من أعظم ما يرزق به المتقي:

فالمُتَّقي له بصيرة، وله فُرقان؛ يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، وله نورٌ مِن ربِّه يُضِيءُ دَربَه؛ فيحذَر الشر، ويرجو الخير، ويوفَّق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩].

الخروج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يدري المتقي:

لأنَّ الله وعَدَ بذلك، ووَعدُ الله لا يتخلَّف، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

حكَى تاجرٌ أنَّه كان يعمل في تجارة بعض الأجهزة، وأنَّه كان يتعرَّض للرشوة في كثير مِن البيع والشِّراء، فلمَّا علم بأنَّ ذلك حرامٌ ومعصية كبيرة؛ اتَّقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وامتنَع خوفاً مِن الله عَزَّ وَجَلَّ.

يقول: فما هو إلَّا أن جاء مَن يطلب منه أجهزة كثيرة بدون رشوة، وقضَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، وأخلَف عليه، وعجَّل له مَوعُودَه؛ لأنَّه صدَق مع الله في تقواه.

والتَّقوى لا تكون في جانبٍ دون جانب، أو أمرٍ دون أمر، أو نَهيٍ دون نَهي، فالَّذي يستعجل موعود الله ويَستبطِئه؛ عليه أن ينظر في نفسه أوَّلاً: هل حقَّق كمال التَّقوى، فلا

شك أنَّ مَن يفعل أموراً دون أمور، وينتهي عن نواهٍ دون نواهٍ؛ أنه لم يُحقِّق كمال التَّقوى، وأنَّه لا يستحق تمام الأجر المُرتَّب عليها مِن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

تيسير الأمور:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

المتقي يُرزق بركات من السموات والأرض.

والبَركة تكثير القليل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ وهَذا معناه: أنَّه وسَّع عليهم في الخير، ويسَّرهُ لهم بسبب التَّقوى.

وكذلك إذا لم تحصُل التَّقوى يظهر الفساد في الأرض، قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فالتَّلوُّث، والأمراض، والسَّرطانات ونحوها صورة مِن صُوَر الفساد، الَّذي هو مِن جزاء عدم التَّقوى.

وهَذِه امرأةٌ مِن أهل البادية؛ أدركَت هَذِه الثَّمرة، فأوصَت ابناً لها أراد سَفراً، فقالت: «أوصيك بتقوى الله؛ فإنَّ قليلها أجدَى عليك مِن كثير عَقلِك»[1].

الوقاية والحفظ:

فإنَّ الإنسان لا يخلو أن يكون له عدوٌّ حاسِدٌ وكائدٌ، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]؛ فبالتَّقوى يدفع الله عن المُتَّقِي شَرَّ الأشرار، وكَيدَ الفُجَّار.

كتبت عائشة إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أُوصِيكَ بتقوى الله، فإنَّكَ إن اتَّقيتَ الله كفاكَ النَّاس، وإن اتَّقيتَ النَّاس لم يُغنُوا عنك مِن الله شيئاً؛ فعليك بتقوى الله»[2].

وإذا كانت آفات الدُّنيا كثيرة، وعوارضها المؤذية لا حصر لها، لكن، بالتَّقوى يحصل الإنسان على الوقاية والحفظ من ربِّه -سبحانه-.

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/ ٣٩٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٧١٧).

عن الأغر أبي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لمَّا أراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يستخلف عُمَر، بعث إليه فدَعَاهُ، فأتاه، فقال: «إنِّي أدعوك إلى أمر متعب لمن وَلِيَه؛ فاتَّقِ الله يا عُمَر بطاعته، وأطِعه بتقواه؛ فإنَّ المُتَّقِي آمَن محفوظ»[1].

وكتب عمر بن الخطَّاب إلى ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أمَّا بعد: فإنِّي أوصيك بتقوى الله عزوجل؛ فإنَّه مَن اتَّقاه؛ وقاه، ومَن أقرضه؛ جزاه، ومَن شكَره؛ زاده، واجعل التَّقوى نصبَ عينيك، وجِلاء قلبك»[2].

ولمَّا حضرت عبد الملك بن مروان رَحِمَهُ اللَّهُ الوفاة؛ جمع ولده، فقال: «أوصيكُم بتقوى الله؛ فإنَّها عصمةٌ باقية، وجُنَّةٌ واقية، وهي أحصَن كهف، وأزيَن حِليَة»[3].

حفظ الأهل والمال وللصالح من بعده:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، فأرشد الله الآباء الَّذِين يخشَون ترك ذُرِّيَّة ضعاف بالتَّقوى في سائر شؤونهم؛ لكي يحفظ أبناءهم، ويغاثون بالرِّعاية الإلهيَّة.

بالتَّقوى يصبح للإنسان شرف وهيبة بين الخلق:

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أحبَّ رفعة الدُّنيا والآخِرَة؛ فعليه بالتَّقوى»[4].

قال أبو العتاهية رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَلَا إِنَّمَا التَّقوى هِيَ العِزُّ وَالكَرَم ... وَحُبُّكَ لِلدُّنيَا هُوَ الذُّلُّ وَالسَّقَم
وَلَيسَ عَلَى عَبدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إِذَا حَقَّقَ التَّقوى وَإِن حَاكَ أو حَجَم[5]

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، (٣٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص١٦١).

(٣) تاريخ دمشق (٦٣/ ١٧١).

(٤) صفة الصفوة (٤/ ٩٧).

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٦/ ٢٥٩).

وقال السري بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَمَا ضَرَّ ذَا التَّقوى تَضَاؤُلُ نِسبةٍ وَمَا زَالَ ذُو التَّقوى أَعَزَّ وَأكرَمَا
وَمَا زَالَتِ التَّقوى تَزِيدُ عَلَى الغِنَى إِذَا مَحَضَ التَّقوى مِنَ العِزِّ مِيسَما[1]

وقال بعضهم:

مَا يَصنَعُ العَبدُ بِغَيرِ التُّقى وَالعِزُّ كُلُّ العِزِّ لِلمُتَّقِي[2]

التعويض من الله خيراً مما تركه:

عن أبي قتادة وأبي الدهماء رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، قالا: «أتينا على رَجُل مِن أهل البدية، فقال البدوِيُّ: أخذَ بيدي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل يُعَلِّمُني مِمَّا علَّمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقال: «إنَّكَ لَن تَدَعَ شَيئاً اتِّقَاءَ الله -جَلَّ وَعَزَّ- إِلَّا أعطَاكَ الله خَيراً مِنهُ»[3].

التَّقوى خَلَفٌ من كل شيء:

لَمَّا وُلِّيَ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطَب؛ فحمِدَ الله، وأثنى عليه، وقال: «أوصيكم بتقوى الله؛ فإنَّ تقوى الله خلَفٌ مِن كل شيء، وليس مِن تقوى الله عزوجل خلف»[4].

فالتَّقوى يمكن أن تعوِّض أي شيء، ولكنَّها إذا فُقِدَت لا يُعَوِّضُها شيء.

وكتب أحد طلبة العلم إلى سوار بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا ولي القضاء: «أوصيك بتقوى الله -يا سوار- الَّذِي جعل التَّقوى عِوَضاً مِن كُلِّ فائتٍ مِن الدُّنيَا، ولم يجعل شيئاً مِن الدُّنيَا يكون عِوَضاً عن التَّقوى؛ فإنَّ التَّقوى عقدة كل عاقل، إليها يستروح، وبها يسترشد»[5].

التَّقوى سبب لاطمئنان القلب.

ذلك أن التقيّ يخاف الله تعالى ويراقبه، فلا يكاد يترك واجباً، أو يقع في محرم؛ ولذلك يطمئن قلبه.

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٧٥).

(٢) فيض القدير (٢/ ١٤٤).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٠٧٣٩)، وصححه محققو المسند.

(٤) صفة الصفوة (٢/ ١١٤)، وتاريخ دمشق (٤٥/ ٣٥٧).

(٥) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا (١٣٣).

الخاتمة

إنَّ تقوى الله أفضل ما يحصل عليه الإنسان في هَذِه الحياة؛ لأنها سببٌ لكلِّ خيرٍ وفلاح، وسببٌ لسعادة الدَّارَين.

يُرِيدُ المَـرءُ أن يُعطى مُنَاهُ وَيَـأبَـى الله إلَّا مَـا أرَادَا
يَقُولُ المَـرءُ فَـائِـدَتِي وَمَـالِي وَتَقوَى الله أفضَلُ مَا استَفَادَا[1]

والتَّقـوى بـابٌ لا يمكن للإنسـان أن يبلغ آخـره، فعليك -أيها المسـلم- أن تحافظ على التَّقوى، وأن تتَّقِيَ الله في كل شيء، وفي كل لحظةٍ وساعة، وإن كُنتَ غريباً بين النَّاس.

فَلَو الحَقّ وَالتَّقوى غَرِيبٌ بِوَقتِنَا تَغَرَّب بِتَقوَى الله وَاتَّبِعِ السلما[2]

عليك بالتَّقوى قبل مفارقة الدِّيَار والأحباب.

قال أبو العتاهية رَحِمَهُ اللَّهُ[3]:

عِش مَا بَـدَا لَكَ سَالِماً فِي ظِل شَاهِقَةِ القُصُورِ
يُسعَى عَلَيكَ بِمَا اشتَهَيتَ لَدَى الرَّوَاحِ وَفِي البُكُورِ
فَـإذَا النُّفُوس تَقَعقَعَت فِي ضِيقِ حَشرَجَةِ الصُّدُور
فَـهُـنَـاكَ تعلم مُوقِناً مَا كُنت إلَّا فِي غُـرُور

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٥٦).

(٢) نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف، للحبيشي، (ص ٨٦).

(٣) ديوان أبي العتاهية (ص ١٦٣).

للهُمَّ أحيِنَا علَى كَلِمَةِ التَّقوى، وتوَفَّنا علَيهَا، واجعَلنَا مِن صَالِحِي أهلِهَا.

وصلَّى اللهُ وسلَّم علَى نبيِّنا محمَّدٍ الأمِين، وعلَى آلِه وصَحبه أجمَعِين.

وآخِر دَعوَانا أن الحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان مِن الأسئلة حول الموضوع، أسئلة حلُّوهُا مُباشِرَة، وهي أسئلة المستوى الأوَّل.

وأسئلة تحتاج إلى بحثٍ وتأمُّل، وهي أسئلة المستوى الثَّاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما تعريف ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ للتَّقوى؟

٢. ما حكم التَّقوى، مع الدَّليل؟

٣. التَّقوى تُطلَق في القرآن على عددٍ مِن الأمور؛ فما هي؟

٤. ما مَراتب التَّقوَى؟

٥. للمُتَّقِين صفاتٌ وسِماتٌ خاصَّة؛ فما هي؟

٦. ماذَا يلزم العبد فعله لِيكُون مِن المُتَّقِين؟

٧. اذكُر ثمرات وفوائد التَّقوى الدُّنيويَّة، والأُخرَويَّة.

٨. اذكر مَواطِن التَّقوى.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. هل هناك تلازُمٌ بين العِلم والتَّقوى؟ وضِّح ذَلِك.

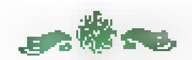
٢. يدَّعي المُتصوِّفة أنهم أولياء الله تعالى، فكيف يُرَدُّ عليهم؟

٣. تحقيق التَّقوى بابٌ مِن أبواب الدَّعوة إلى الله تعالى، فهلَّا ذكَرت قصةً علَى ذَلِك؟

٤. كيف تكون التَّقوى سبباً لغُفرَان ذنب المُتَّقي، وذنب غيره؟

٥. اذكُر كِتابَين تحدَّثا عن التَّقوى؟

٦. كيف يكون الحيَاءُ سبباً لحصول التَّقوى؟





التوكل

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ علَى أشرف الأنبياء والمُرسَلِين، نبيِّنَا محمَّد، وعلَى آلِه وصَحْبِه أجْمَعِين.

أمَّا بعد:

فالتَّوَكُّل علَى الله مَقامٌ جليلٌ عَظِيم الأَثَر، وهو مِن أعْظَم واجبَات الإيمان، وأفضَل الأعْمَال والعِبَادات المُقَرِّبة إلى الرَّحمن، وأعلَى مَقامَات توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الأمُور كلها لَا تَحصل إلَّا بالتَّوَكُّل على الله عَزَّوَجَلَّ والاستِعَانة به.

وسنَتَطَرَّق في هَذَا الفصل لبيان معنى التَّوَكُّل وحقيقته، والفرق بينه وبين التَّوَاكُل، ثُم نذكر شيئاً مِن فوَائِده، والأمُور المُنافِيَة له، ونَخْتِم بذِكْر ما تيسَّر مِن قصَص المتوَكِّلين.

ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوفيق والسَّداد، وصلَّى اللهُ وسلَّم علَى نبيِّنا محمَّد، وعلَى آله، وصحبه أجمعين.

* * *

أهمية الموضوع

قال سعيد بن جُبَير رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوَكُّل على الله جِمَاع الإيمان»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوَكُّل نصف الدِّين، والنِّصف الثَّاني: الإنابة؛ فإنَّ الدِّين استعانة وعِبَادة، فالتَّوَكُّل هو الاستِعَانة، والإنابة هي العِبَادة.

ومَنْزِلته أوْسَع المَنازل وأجْمَعها، ولا تَزال معمورة بالنَّازلين؛ لِسعَة متعلق التَّوَكُّل، وكثرة حوائج العَالَمين»[2].

فالتَّوَكُّل يتعَلَّق بكلِّ شيءٍ مِن الوَاجبات والمُسْتحبَّات والمُبَاحات، بل قد يتعلَّق أصحاب المُنكَرات بالله عزوجل، ويتوكَّلُون عليه في حصُول مُرادِهم.

وأيضاً فَإنَّ حاجات النَّاس كثِيرَة، ولا بُدَّ لهم مِن التَّوَكُّل على الله في قضَائها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو توكَّلَ العبدُ على الله حقَّ توكُّلِه في إزَالة جبل عن مكَانه، وكان مأمُوراً بإزالته؛ لأزالَهُ»[3].

فالمسلم لا يرَى التَّوَكُّل على الله في جميع أعمَالِه أمراً مُسْتحباً؛ بل يراه فريضة دينية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتَّوَكُّل جامع لمقام التَّفويض، والاستِعَانة، والرِّضا، لا يتصور وجوده بدونها»[4].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٨١).

(٤) مدارج السالكين (١/ ١٣٦).

وقال الشَّيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأصل الجامع الَّذي تفرَّعت عنه هذه الأفعال -يقصد العِبَادات- هو: التَّوكُّل على الله، وصِدْق الالْتجاء إليه، والاعتِمَاد بالقَلْب عليه، هو خُلَاصَة التَّفريد، ونهاية تَحْقِيق التَّوحِيد الَّذِي يثمر كل مقام شَرِيف؛ مِن المحَبَّة، والخَوْف، والرَّجاء، والرِّضى به ربًّا وإلهًا، والرِّضا بقضائه، بل ربما أوْصَل العبد إلى التَّلذُّذ بالبَلاء، وعدَّه مِن النِّعماء، فسبحان مَن يتفَضَّل على مَن يشاء بما يشاء، والله ذو الفَضْل العَظِيم»[1].

***

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٨٦).

تعريف التَّوَكُّل

التَّوَكُّل في اللغة:

يُقال: وَكِلَ بالله، وتوكَّل عليه، واتَّكل: استسلم إليه.

وتوكَّل بالأمر: إذا ضمن القيام به.

ووكَّلْتُ أمري إلى فُلان: اعتمدتُ في أمري عليه.

ووكَّل فلانٌ فلاناً: إذا عجز عن القِيَام بأمر نفْسِه، أو وثق فيه بأنْ يَقُوم بأمره.

ووكَلَ إليه الأمر: سلَّمه[1].

فالتَّوَكُّل: هو إظْهَار العَجْز، والاعتماد على الغَيْر.

والتَّوَكُّل في الاصطلاح:

للعلماء عدَّة تعريفات للتَّوَكُّل، منها:

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو: صِدْق اعْتِمَاد القَلْب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودَفْع المضَار، مِن أمور الدُّنيا والآخِرَة كلها»[2].

وقال الحسَن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ تَوَكُّل العبد على ربِّه: أنْ يَعْلَم أنَّ الله هو ثِقَته»[3].

قال الزَّبيدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوَكُّل: الثِّقة بما عند الله -تعالى، واليَأس عما في أَيْدِي النَّاس»[4]

(١) لسان العرب لابن منظور (١١/ ٧٣٤).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (ص٤٣٦).

(٣) المرجع السابق (ص٤٣٧).

(٤) تاج العروس للزبيدي، مادة: (وكل) (٣١/ ٩٨).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوَكُّل: هو صِدْق الاعْتِماد علَى الله عزوجل في جلب المَنافع ودفع المضار، مع فِعْل الأسباب الَّتي أمَرَ الله بها»[1].

وهَذَا تعريف جيد جامع.

***

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (١/ ١٠٦).

حقيقة التَّوَكُّل

حقيقة **التَّوَكُّل** هي: اعتِمَاد القلب علَى الله، مع الأخذ بالأسْبَاب، مع التَّيقُّن الكامِل بأنَّ الله هو: الرزَّاق، الخالق، المُحْيِي، المُمِيت، لا إلهَ غيره، ولا ربَّ سِوَاه.

والتَّوَكُّل أعمُّ مِن الاستعانة؛ فإنَّ الاستِعَانة هي: أنْ تطلب مِن الله أنْ يُعِينك علَى فِعْل أمرٍ مِن الأمور.

أمَّا التَّوَكُّل: فيدخُل فيه الاستِعَانة، فتتوكَّل علَى الله في إعانَتك علَى أمورك، والتَّوَكُّل -أيضاً- أوْسَع وأشْمَل مِن ذلك؛ فيدخل فيه التَّوَكُّل على الله في جَلْب المَنافِع، ودفع المَضار، وغير ذلك مِن الأمور.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوَكُّل يتناول التَّوَكُّل عليه؛ ليُعِينَه علَى فِعْل ما أمر، والتَّوَكُّل عليه؛ ليُعْطِيه ما لا يقدر العَبْد عليه، فالاستِعَانة تكُون علَى الأعْمَال، وأمَّا التَّوَكُّل فأعمُّ مِن ذلك، ويكُون التَّوَكُّل عليه؛ لجَلْب المَنْفَعة، ودفع المَضَرَّة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩]»[١].

فالتَّوَكُّل يكُون في جَلْب المَنافِع ودفع المَضار، والاستِعَانة تكُون علَى العِبَادة؛ فالتَّوَكُّل أعمُّ مِن الاستعانة، وقد جمع الله بيْنَ الأصْلَيْن في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالعِبَادة له، والاستِعَانة به، والتَّوَكُّل علَيْه وحْدَهُ لا شَرِيكَ له.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٨/ ١٧٧).

يقول الشَّريف المرتضى:

إِذَا مَا حَذِرْتَ الأَمْرَ فَاجْعَلْ إِزَاءَهُ رُجُوعاً إِلَى رَبٍّ يَقِيكَ المَحَاذِرَا
وَلاَ تَخْشَ أَمْراً أَنْتَ فِيهِ مُفَوِّضٌ إِلَى الله غَـايَـاتٍ لَـهُ وَمَـصَـادِرَا
وَكُنْ لِلَّذِي يَقْضِي بِهِ الله وَحْدَهُ وَإِنْ لَمْ تُوَافِقْهُ الأَمَـانِي شَاكِرَا
وَإِنِّي كَفِيلٌ بِالنَّجَاةِ مِنَ الأَذَى لِمَنْ لَمْ يَبِتْ يَدْعُو سِوَى الله نَاصِرَا[1]

فإذا جاءت الأمور على غير ما تتمنَّى؛ فكُنْ شاكِراً لله، ولا تخش شيئاً، وإذا فوَّضت أمرك إلى الله، وكنت رجَّاعاً إلى الله مُتَّكِلاً عليه؛ فعِنْد ذلك ينصرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويُؤيِّدك.

* * *

(١) مجموعة القصائد الزهديات لعبدالعزيز السلمان (١/ ٤٤٥).

الأخذ بالأسباب

إنَّ التَّوَكُّل علَى الله لا يَعْنِي بحالٍ عدم اتِّخاذ الأسباب.

فالتَّوَكُّل يعتمد علَى أمْرَيْن: الثِّقة بالله، والاعْتِمَاد علَيْه، مع الأخْذ بالأسْبَاب.

وإنَّما الَّذي ينبغِي مُلاحظَته: هو عدَم الاعْتِمَاد علَى الأسباب، وأنْ يَعْرِف العَبْد أنَّ الأخْذ بالأسْبَاب إنَّما هو سَيْرٌ على السُّنن الكونِيَّة، وأنَّ النَّافع والضَّار هو الله وحْدَه فقط.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سِرُّ التَّوَكُّل وحقِيقَته هو: اعتِمَاد القَلْب علَى الله وحْدَه، فلا يضُرُّه مباشرة الأسباب، مع خُلُوِّ القَلْب مِن الاعتِمَاد عليها، والرُّكُون إليها»[1].

وهَـذَا هو الفَرْق بيْنَ مَن تـوكَّل علَى الله حقِيقَة التَّوَكُّل، ومَن توكَّل عليه ادِّعاءً باللِّسَان فقَط، فإنَّ ذَهاب الأسباب لا يعني شيئاً للمُتوكِّل حقيقةً؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله الَّذِي يعتمد عليه باقٍ وموْجُود.

أمَّـا الَّـذي يتوكَّل عـلى الله ادِّعاءً: فـإنْ تَنْهَار الأسباب حتَّى يَنْهَار هـو معَها؛ لضَعْف توكُّلِه علَى الله واعتِمَاده عليه.

اتخاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأسباب:

لقَـد كان النَّبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظـم المُتوكِّلـين على الله، ومـع ذلك فقد اتَّخذ الأسـباب العَدِيدة في مواقف كثيرة؛ ليُبيِّن لأُمَّته أنَّ اتِّخاذ الأسْبَاب لا يُنافِي التَّوَكُّل.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص٨٧).

فقد ظاهر ﷺ بين درعين؛ أي: لبس درعين، واحدة فوق الأخرى، فعن السائب بن يزيد رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ ظاهرَ بين درعين يوم أُحُدٍ»[1]، «ولَبِس لأمته ﷺ»[2].

ووضع المِغفر -الخوذة- على رأسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل عامَ الفتحِ وعلى رأسِهِ المِغفرُ»[3].

وفي طريق الهجرة اتَّخذ دليلاً يُرشِدُه إلى الطَّريق، وعَمَد إلى تعمية الأثر، وخرج في وقت يغفل فيه النَّاس، وذهبَ مِن طريقٍ غير الَّذي يُسلَك عادةً.

كل هَذَا مِن باب الأخذِ بالأسباب، وتعليم أُمَّته أنَّ اتِّخاذ الأسباب مِن الأشياء المُهِمَّة جدًّا، والتي لا يستغني المُسلِم المُتوكِّل عنها.

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً»[4].

فَفِي هَذَا الحديث بيانٌ لأهمِّيَّة الأخذ بالأسباب؛ فالطَّير التي تكفَّل الله برزقها لم تبقَ في عُشِّها تنتظر أنْ يأتيَها الرِّزق؛ بل خرجت في الغُدُوِّ -وهو الصَّباح الباكر- جائعة تبحث عن رزقها؛ فحقَّق الله لها مُرادها، وجعلها تَعُود إلى أعشاشها وقد شبعت.

وعلى المسلم أنْ يتنبَّه حين الأخذ بالأسباب أنْ تكون تلك الأسباب جائزة شرعًا، حيث نرى بعض النَّاس يُرشِي المُوظَّفِين؛ لإتمام مصالحه، ويقول: «هَذَا من باب التَّوكُّل»، ويغش الطَّالب في الامتحان، ويقول: «هَذَا مِن باب التَّوكُّل». وهَذَا كله ليس مِن التَّوكُّل في شيء؛ بل هو مُنافٍ ومضادٌّ للتَّوكُّل؛ لأنه لو توكَّل على الله حقَّ توكُّله لم يرتكب ما يخالف شرعه.

---

(١) رواه أحمد (١٥٧٦٠)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٠٢٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان، (٦٩٨٩).

(٣) رواه البخاري (١٧٤٩).

(٤) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، ورواه الحاكم في مستدركه (٤/ ٣٥٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

الفرق بين التَّوَكُّل والتواكل

كما سبق؛ فإنَّ التَّوكُّل لا بُدَّ فيه مِن اتِّخاذ الأسباب، أمَّا عدم الأخذ بالأسباب؛ فهو التَّواكُل، وهو ليس مِن دين الله في شيء.

وكما يُقال: مَن ترك التَّوكُّل قُدِح في توحيده، ومَن ترك الأسباب قُدِح في عقله.

والتَّواكُل هو أحد أسباب ضعف الأُمَّة، يجلس الرَّجُل في بيته ينتظر رِزْقه، وهو لا يُحرِّك ساكِنًا، ويقول: «أنا مُتوكِّل على الله».

وينتظر النَّاس أن ينصُرَهُم الله على أعدائهم، ولم يعدوا لذلك عِلْمًا ولا عدَّة.

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان أهل اليمن يَحُجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدِمُوا مكَّة سألوا النَّاس؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»[1].

فانظر، كيف أنكر الله عليهم ادِّعاءهم التَّوكُّل، وهم لا يتزوَّدون بشيءٍ مِمَّا يعينهم على أمور حجِّهم.

وليس المقصود أنْ يُرهِق الإنسان نفسَهُ في اتِّخاذ الأسباب، ويكلِّفها ما لا تطيق، بل يكفي أحيانًا السبب اليسير، ولنا في قصَّة مريم دليلٌ على ذلك، حيث أمرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَزِّ الجذع؛ ليتساقط عليها التَّمر، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]

وقد يتساءل البعض فيقول: «كيف لهذه المرأة الحامل الضَّعيفة، أن تهز نخلة قويَّة راسخة؛ ليتساقط عليها الرطب؟».

---

(١) رواه البخاري (١٤٥١).

ونحن نقول له: نعم؛ إنَّ الله عز وجل أراد أن يُعلمنا من خلال قصَّة هذه المرأة أهمِّيَّة تَّخذ الأسباب، ولو كانت تِلْك الأسباب ضَعِيفَة، فإنَّ هذه المرأة الصَّالحة لم يَكُن لها حيلة في ذلك الوقت إلَّا هَـذَا العمَل الضَّعيف، ولكن لما توكَّلَتْ على الله حق توَكُّله، وعملَتْ بالسَّبب الضَّعيف؛ أعطاها الله ما أرادته، وأنالها إياه.

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... وَلاَ تُؤْثِرَنَّ العَجْزَ يَوْماً عَنِ الطَّلَبْ
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الله قَـالَ لِـمَـرْيَـم ... إِلَيْكِ فَهُزِّي الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيهِ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا ... جَنَتْهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ[1]

لقد كان مِن المُمكِن أنْ يُسْقِطَ الله التَّمْرَ بلا سبب، ولكن لمَّا كان السَّبب سُنَّةً كونيَّةً؛ أمَرها بهز الجِذْع.

وإذا عدم الإنسان كل سببٍ ممكن؛ فلا ينسى أعظم الأسباب وأقواها، ألا وهو: دعاء الله عز وجل، والاستغاثة به.

***

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر (ص٢٦).

حكم التَّوَكُّل

إن التَّوَكُّل على الله واجب من أعظم الواجبات.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ التَّوَكُّل على الله واجبٌ مِن أعظم الواجبات، كما أنَّ الإخلاص لله واجب، وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتَّوَكُّل في غير آية؛ أعظم مِمَّا أمر بالوضوء، والغُسل من الجنابة، ونهى عن التَّوَكُّل على غير الله»[1].

بل إنَّ التَّوَكُّل شرط الإيمان، فالمفهوم مِن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ أنَّه إذا انتفى التَّوَكُّل؛ انتفى الإيمان.

والتَّوَكُّل هو أحد مَبني توحيد الإلهيَّة، كما يَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

آيات في فضل التَّوَكُّل والحث عليه:

ورَدَ لفظ التَّوَكُّل في القرآن الكريم في اثْنَيْن وأربعينَ مَوْضِعاً، جاء أحياناً بلفظ الإفراد، والجَمْع، وأحياناً بلفظ الماضي، والمضارع، والأمر، وكلها جاءت بمعنى الاتِّكال، والاعْتِمَاد على الله، وتفويض الأمر إليه.

وقد تنَوَّع الأسلوب القرآني في بيان فضل التَّوَكُّل، والحَثِّ عليه، وإليك هذه الصُّوَر مِن صور التَّنَوُّع في الأسلوب:

أ) أمر الله عزوجل نبيه عزوجل بالتَّوَكُّل عليه:

لقد خصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأمر بالتَّوَكُّل عليه في آياتٍ مِن القرآن،

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦).

كما في قوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، وقوله عز وجل: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله أيضاً: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله عز شأنه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الملك: ٢٩].

وأمرُ الله نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتَّوكُّل، أمرٌ لأُمَّتِه.

ب) أمر الله عباده المؤمنين بالتَّوكُّل عليه:

وقد أمر الله عبده المؤمنين بالتَّوكُّل عليه، وحث على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

ج) وصف المؤمنين بأنهم يتوكلون على ربهم:

لتَّوكُّل على الله صفةٌ عليَّةٌ مِن صفات عباد الرَّحمَن، وشِعَار يتميَّزون به عمَّن سِوَاهُم، وعلامة بارِزَة لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

«أي: لا يرجون سِوَاه، ولا يقصدُون إلَّا إيَّاه، ولا يَلُوذُون إلَّا بجنَابه، ولا يطلُبُون الحَوائج إلَّا مِنه، ولا يَرْغَبون إلَّا إليه، ويعلمون أنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُن، وأنَّه المُتصرِّف في المُلْك، لا شريك له، ولا مُعقِّب لحُكمه، وهو سَريع الحِسَاب»، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

د) ذكر أمثلة من توكل الأنبياء:

- لقد أمَرَنا الله عزوجل أنْ نَتَّخِذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والمُؤمنين الَّذِينَ معه أُسْوَةً

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧)

وقُدْوةً نقتدي بهم، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤].

وحدَّثنا عزوجل عنهم، أنَّهم قالوا لقُوَّة إيمانهم: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ أي: توكَّلنا عليك في جميع أمورنا، وسلَّمناها إليك، وفوَّضناها إليك.

هكذا توكَّلوا على الله، وسلَّموا له الأمورَ تسليماً مُطْلقاً، وصحبوا التَّوكُّل في جميع أمورهم، مع بَذْل الجهد في رضا الرَّحمن تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

• ثُم إنَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هَمَّ قومُه بإحْرَاقه، وجمَعُوا لذلك حَطباً كثيراً جداً.

قال السُّدِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت المرأة تمرض، فتنذر إنْ عوفيت أنْ تحمل حطباً لحريق إبراهيم»[١].

ثُم جعلوه في جَوْبة مِن الأرض، وأضْرَمُوها ناراً؛ فكان لها شَرَرٌ عظيم، ولهَبٌ مرتفع، وجعلُوا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في كِفّة المَنْجنيق، فلمَّا ألقوه قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حَسْبِيَ اللهُ ونِعْم الوَكِيل»، كما في حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل، قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أُلْقِيَ في النَّار...»[٢].

• وها هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ توكَّل على الله، وأمَر قومه بالتَّوكُّل عليه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى الآية: أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمَر قومه بدُخُول الأرض المُقَدَّسة الَّتي كتبَ اللهُ لَهُم، ولَا يرتدُّوا على أدْبَارِهِم خوفاً مِن الجبَّارين، بل يَمْضُوا قدماً، لا يهابونهم، ولا يخشونهم، متوكِّلين علَى الله في هَزيمتهم، مُصَدِّقين بصِحَّة وعْدِه لهم؛ إنْ كانُوا مُؤمنِين»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٨٤).

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٧).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص٤١٨).

- ولنا في نبينا محمد ﷺ وأصحابه قُدْوةٌ حسنة؛ قال الله سبحانه وتعالى عنهم في غزوة أُحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النَّار، وقالها محمَّد ﷺ حين قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[1].

فالتَّوكُّل عدَّة المؤمنين يوم يتوعَّدهم النَّاس، ويخوِّفونهم بكثرة الأعداء.

قُلْ حَسْبِيَ اللهُ مَعْبُودِي وَمُتَّكَلِي ... هُوَ القَرِيبُ المُجِيبُ المُسْتَغَاثُ بِهِ

* * *

---

(١) رواه البخاري (٤٢٨٧).

المقامات التي ذُكِرَ فيها التَّوكُّل

إنَّ مِمَّا يُبيِّن منزلة التَّوكُّل وفضله: تلك المقامات التي ذُكِرَ فيها؛ حيث إنَّ التَّوكُّل ذُكِر في مَقامات عديدة، منها:

١. الأمر بالتَّوكُّل في مقام العبادة: قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين بالعِبادةِ والتَّوكُّلِ في مقامٍ واحدٍ.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطباً نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢-٣]، فبعد أنْ أمرهُ بعبادته، واتِّباع ما يُوحَى إليه مِن ربِّه؛ أمره بالتَّوكُّل عليه، وهو أمرٌ له ولأُمَّتِه مِن بَعْدِه إلى يوم القيامة؛ لأنَّ الأصل أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خوطب بشيء فهو خطاب لأمته، ما لم يقم دليل على التخصيص.

٢. الأمر بالتَّوكُّل في مقام الدَّعْوَة: قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، فهو الَّذي تنتهي إليه القُوَّة، والمُلْك، والعَظَمة، والجاه، وهو حسب مَن لاذَ به، ويَكْفِي مَن استجارَ به، يدفع عز وجل عنه الشَّر، ويَحْمِيه.

ونوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ توكَّل على الله في مقام الدَّعوة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

فبَعدَ طُول الدَّعوة، ومُكُوثه السِّنين الطِّوال في دعوةِ قَوْمِه، وتكذيب قومه له؛ توكَّلَ على الله، وفوَّضَ الأمر إليه، وهو ماضٍ في الدَّعوة.

ويجب أنْ يكون هذا شأن الدَّاعية الإسلامي، فيَصْبر علَى الأذَى في الدَّعوة، ويتوكَّل على الله في طريق دعوته.

٣. التَّوَكُّل في مقام الحُكْم والقضاء: قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القاضي، أو الحاكِم ما دامَ على الحقِّ؛ فإنَّ عليه أنْ يتوكَّل على الله؛ ليُعِينَهُ على القضاء بالحق.

٤. التَّوَكُّل في مقام الجهاد وقتال الأعداء: قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٢]، فقد أمَرَهُم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يتوكَّلوا عليه، مع أنَّهم أعدُّوا العُدَّة، وجهَّزوا الجيش؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو النَّاصرُ والغالب، وقد أوضَح ذلك بقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ هو النَّاصر في حال الضَّعف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]؛ كما أنَّه هو النَّاصِر في حال القُوَّة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي قصَّة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٢-٢٣].

٥. التَّوَكُّل على الله في مقام السلم: قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقد يَستَغرِب بعض النَّاس من التَّوَكُّل في هَذَا المقام؛ فما فائدة التَّوَكُّل بَعْدَ وضع الحرب أوْزَارها، وكف أيدي الأعداء عن المسلمين؟!

تظهر فائدةُ التَّوَكُّل في مظاهر كثيرة، منها مَا حصل بعد غزوة الحُدَيْبِيَة، حيث جنَح أهل قريش للسلم، فعَاهدَهم النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذَلِك، وبسَبب التَّوَكُّل على الله في هَذَا الصُّلح والسلم؛ دخَل في الإسْلَام الكثِيرُ مِن أهل الجَزِيرَة العربيَّة، وكان ذلك بمثابة الفتح على المُسْلِمِين.

٦. **الأمر بالتَّوكُّل في مقام المَشُورة:** قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ففي الآية إشارةٌ إلى أنَّ المَشُورة مِن باب الأخذ بالأسباب، وأمَّا السَّبب الحقيقي لتحقيق المُراد عند العَزم على الأمر: فهو التَّوكُّل على الله.

وانظر إلى العُظماء، وأصحاب المَناصِب الرَّاقية، كيف يجمع الشَّخص منهم مِئات المُستشارين والخُبَراء حوله، فيُشيرُون عليه بأحَدِ الآراء، ثُمَّ يتبيَّن له بعد الأخذ بآرائهم أنَّهم كانُوا مُخطِئين.

فلا بُدَّ مِن التَّوكُّل على الله بعد الأخذ بالمَشُورة والأسباب.

٧. **التَّوكُّل على الله في مقام طَلَب الرِّزْق:** قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنَّ أكبر آيةٍ في كتاب الله تفويضاً، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]»[١].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيُّها النَّاسُ: اتَّقُوا الله، وَأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، فإنَّ نفساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وإنْ أَبطأَ عنها، فاتَّقُوا الله، وأَجْمِلُوا في الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**»[٢].

٨. **التَّوكُّل في مَقام العُهُود والمَواثِيق:** أخبَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه توكَّل على الله عندما قال له أولاده: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٣]، فقال لهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]، والمَوْثِق: هو العُهود، والأَيْمان المُغلَّظة، ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (٩/ ١٣٤).

(٢) رواه ابن ماجة (٢١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

٩. **التَّوَكُّل في مقام الهجرة في سبيل الله:** وفي ذلك المقام الأليم علَى النَّفس؛ وصَفَ اللهُ عِبادَهُ بالمُتوكِّلين، حيث يَتْرك الإنسان مَأواه، ودَارَهُ، وأمْوالَهُ، ويتغرَّب، ويُضحِّي بعَشِيرَته، وبالذِّكريات الحبيبة، ولكن التَّوكُّل علَى الله يهوِّن عليه ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وانظُر إلَى توكُّل النَّبي ﷺ وصاحبه في طريق الهجرة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

١٠. **التَّوكُّل في مَقام إبْرامِ عقُود البَيْع، والإجَارة، والزَّواج، وغيرها:** وقد حصَلَ هَذَا في قصَّة موسى عليه السلام؛ لمَّا اتَّفق مع الرَّجُل الصَّالح على أنْ يُزوِّجه ابنته علَى أن يَأجُره ثَمانِيَ حِجَجٍ أو عَشْرًا: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧-٢٨]، وقد قضَى موسى العَشْرَ وأتمَّها وأكمَلها، كما وعَدَ.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «قَضَى أَكْثَرَهُمَا وَأَطْيَبَهُمَا، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِذَا قَالَ فَعَلَ»[1]، والأليق بالنَّبي هو الأكْمَل.

١١. **التَّوكُّل في مقام طلب الآخرة:** قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]، وهل هناك مقام أعظَم مِن هَذَا المقام؟ لأنَّ الآخِرَة هي المُنى، وهي طلب كل مؤمن، فعلَى المؤمنين أنْ يتوكَّلوا علَى الله في طلَبِها.

* * *

(١) رواه البخاري، (٢٥٣٨).

فوائد التَّوَكُّل على الله

من توكل على الله كفاه:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣]

لقد جعَلَ اللهُ لكُلِّ عمَلٍ جَزاءً مِن جِنْسِه، وجعَلَ جزاء التَّوَكُّل: الكِفَاية، فمَنْ كتفى بالله؛ كفَاهُ الله، ومَن توكَّل على الله؛ فهُوَ حَسْبُه وكَافِيه.

وَإِذَا دَجَا لَيْلُ الخُطُوبِ وَأَظْلَمَتْ ... سُبُلُ الخَلَاصِ وَخَابَ فِيهَا الآمِلُ
وَأَيِسْتَ مِنْ وَجْهِ النَّجَاةِ فَمَا لَهَا ... سَبَبٌ وَلَا يَدْنُو لَهَا مُتَنَاوِلُ
يَأْتِيكَ مِنْ أَلْطَافِهِ الفَرَجُ الَّذِي ... لَمْ تَحْتَسِبْهُ وَأَنْتَ عَنْهُ غَافِلُ[1]

ولما كان النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن أعظَم النَّاس توكُّلاً على الله، فقد جازَاهُ الله على ذلك؛ بأنْ كان حسْبه وكافيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: إنَّ الله حسْبُكَ، وكافِيكَ أنتَ والمؤمنين الَّذِينَ صدَقُوا مع اللهَ في توَكُّلِهم.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

قال ابن القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ في معنى ﴿حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾: «أي: كافِيه، ومَن كان اللهُ كافِيه ووَاقِيه؛ فلا مطمع فيه لعَدُوِّه، ولا يَضُرُّه إلَّا أذًى لا بُدَّ منه -يقصد قوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ

(١) حياة الحيوان الكبرى، للدميري (٢/ ١٧).

﴿إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]-، كالحرِّ والبرد، والجوع والعطش، وأمّا أن يَضُرَّهُ العَدُو بما يبلغ منه مُراده؛ فلا يكون»[1].

وقد حدَّثني شخصٌ شيشانيٌّ بهذه القصَّة في مَوْسِم الحج، قال: «حاصَر الرُّوس منْزلي، وهرب جميع أهل البيت، إلَّا أنَّني لم أستطع الهروب، وعندما ضاق بي الأمر، ذهبْتُ إلى حفرةٍ بجانب البيت نضع فيها محصول البطاطس، وألقيْتُ نفسي في الحُفْرة، ولم أكن أملك سِلَاحاً أُدافع به عن نَفْسِي، ولم أكن أستطيع الهروب، وعندما اقترب الجنُود مِن الحُفْرَة التي أنا فيها لم أجد شيئاً أعتمد عليه إلَّا التَّوَكُّل على الله، وكنتُ أقرأ هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، حتَّى جاء أحدُ الجُنود يبحث في الحُفْرة، ونظَر إلى عيْنَيَّ مباشرةً، ثم قال لأصحابه: ليس هناك أحد في الحُفْرة؛ فخرَجُوا مِن المنْزل وتركوني».

وهذه إحدى فوائد الصدق في التَّوَكُّل على الله عزوجل.

استشعار معية الله:

لأنَّ الإنسان متى ما توكَّل على الله، واعتمَدَ عليه؛ أحسَّ بأنَّ الله عزوجل قريبٌ منه، وأنَّه مُعِينُه على مُرادِه، وفي هَذَا اسْتِشْعَارٌ لمعِيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلِّ وقتٍ وحِين.

استجلاب محبة الرب:

فإنَّ الله عزوجل يُحِبُّ مَن توكَّل عليه حقَّ التَّوكُّل؛ لأنَّ هَذَا المُتوكِّل عمل بأوامره، وأخذ بالأسْبَاب التي شرعها الله، وبقِيَ قلبه معلَّقاً بربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما أنَّ العَبْدَ بالتَّوَكُّل يزيد حبُّه لرَبِّه وخالقه؛ لأنَّه يعلم أنَّه كافِيه، ونَاصِره، ومُغْنِيه، ورَازِقُه.

النصر على الأعداء:

إنَّ مَن توكَّل على الله؛ نصَرهُ على أعدائه، وهيَّأ له أسباب النَّصر عليهم، وخذَلَهم أمامه،

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم، (٢/ ٤٦٤-٤٦٥).

وهؤلاء الصَّحبة علِمُوا بذلك، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وقال تعالى يَصِف المُؤمنين في غزوة الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

دخول الجنة بغير حساب:

مِمَّ وردَ في فَضل التَّوكُّل: أنّه يدخل بسببه سبعون ألفاً مِن أمّة محمَّدٍ ﷺ الجنّةَ بغير حِساب.

فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ. فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ». ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[1].

الحصول على الرزق:

عن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً»[2].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٧٨)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

حفظ النفس والأهل والولد:

لذلك؛ فإنَّ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما نصَحَ أبناءه بالنَّصائح الَّتي تحفظُهم؛ أوْكَل أمره بعد ذلك إلى الله، فقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]؛ لأنَّ الله هو الحافِظ، وهو الَّذي يُعتَمد عليه في رعاية النَّفس، والأهل، والولَد.

الحفظ من الشيطان:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

فبيَّنَ تعالى أنَّ الشَّيطان لا يستطيع أنْ يَضُرَّ عبده إلَّا بإذنه، ثُم أمرهم بالتَّوكُّل عليه؛ ليَحفَظَهُم منه.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ -يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ يُقَالُ لَهُ: كُفِيتَ، وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»[1].

الراحة النفسية:

إنَّ العبد مَهْما اتَّخذَ مِن أسبابٍ لتَحقِيق مُرادِه؛ فلا بُدَّ أنْ تبقى له بعض الثَّغَرات التي لم يَسُدَّها، والتي يَخْشى أنْ يتسلَّل إليه الفشل وعدم الحصول على مُرادِه مِن خلالها، ولكنَّه متى ما توكَّل على الله، وعَلِمَ أنَّ الله سيَكْفِيه في أموره كلها؛ لم يَخشَ مِن تِلْكَ الثَّغَرات، وحصل على راحةٍ نفسية، وارتياح بالٍ.

وبالتَّوكُّل على الله: يَأمَنُ الإنسانُ مِن الانهيارات النَّفسيَّة والعصبيَّة، ولو تنبَّه الأطِبَّاء النَّفسِيُّون لأهمِّيَّة التَّوكُّل؛ لجعَلُوه مِن أهمِّ علاجاتهم.

ولو كان هؤلاء المُنتحِرون توكَّلوا على الله حقَّ توكُّله لَمَا لجؤوا إلى الانتِحَار، ولأوْكَلُوا أمْرَهُم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وأسلَمُوا أنفُسَهُم إليه، راضِينَ بقضَائه وقدَرِه.

---

(١) رواه أبو داود، (٥٠٩٥)، والترمذي، (٣٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

بعث العزيمة على العمل:

التَّوَكُّل على الله يبعث في القَلْب الحَمَاس، والعَزِيمة للعمَل؛ لأنَّ فيه فتحاً لباب الأخذ بالأسباب المشروعة، وعندما يفهم المرءُ التَّوَكُّل فهماً صحيحاً؛ ينطلق للعمَل، ويأخذ بالأَسْبَاب، وهَذَا فيه تَشْجِيعٌ علَى الإنتاج.

العز والغنى النفسي:

فالمُسْلِم متَى توكَّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَسْلَمَ أَمْرَهُ له؛ أحسَّ بالعِزِّ؛ لأنَّه يعتمد على الله العَزِيز، كما أنَّه يستغني عن النَّاس؛ لأنَّه مُسْتَغْنٍ بالغَنِيِّ.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وقد جاء باسم العزيز بعد التَّوَكُّل؛ إشعاراً بأنَّ مَن توكَّل عليه عَزَّ به، ولم يَضِعْ باستجارته به.

* * *

التَّوَكُّل: علم القلب، وعمله

التَّوَكُّل على الله عز وجل يجمع عِلْم القلب، وعمل القلب.

أمَّا عِلْم القلب: فأنْ يَعْلَم بأنَّ اللهَ مُقدِّرُ الأشياء ومُدَبِّرُها، ... إلخ.

وعمل القلب: سُكُون القلب للخالق، والاعتماد عليه، والثقة به، .. إلخ.

ولتوضيح الأمر، نقول: إنَّ على العبد المُتوكِّل على الله أنْ يتعَلَّم القضايا التالية، ويعمل بها:

١. معرفة الرَّب وصفاته: فعلَى العبد أنْ يعرف الرَّبَّ بأسمائه وصفاته، يعرف قدرة ربِّه، وكِفَايَتَه، وقيُّوميَّتَه، وقُوَّته، وعظَمتَه، وحيَاته المُطْلَقة، وعدم طُروء النَّوم والتَّعب عليه.

فإذَا عرف العبدُ كلَّ ذلك؛ توكَّل علَى الله حقَّ توكُّله، وعلِمَ أنَّه أسْلَم أمْرَهُ للقَوِيِّ العَزيز.

٢. رسوخ القَدم على طريق التَّوحِيد: فالعبد إذا حقَّق التَّوحيد؛ كان له مِن التَّوَكُّل النَّصِيب العَظِيم، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

اكتِفَاءٌ بالله، وتوحِيدٌ، وتوكلٌ.

٣. الاعتِمَاد علَى الله عَزَّوَجَلَّ في كُلِّ الأمُور: وليس كما يفعله بعض الجهَلَة حينما يتوكَّلُون علَى الله إذا عدموا الأسْبَاب، وفي حالِ وجود الأسباب نسوه، وتعلَّقوا بتِلْكَ الأسباب.

٤. حُسْنُ الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ: فمتى ما توكَّل العبد المؤمن على ربِّه؛ عليه أنْ يُحسِنَ الظَّنَّ به، وأنْ يَعلم أنَّ مَن توكَّل عليه؛ كفَاه، فلا يضطرب قلبه، ولا يبالي بإقبال الدُّنيا أو إدبارها؛ لأنَّ اعتمادَهُ علَى الله، ويكون حاله كحال إنسانٍ أعْطَاهُ مَلِكٌ دِرْهمًا، فسُرِق منه، فقال المَلِك: عندي أضعافُهُ فلا تهتم، متى جئت أعْطَيتك أضعافه مِن خزائني؛ فمَنْ يَعْلَم أنَّ اللهَ مَلِك الملوك، وأنَّ خزائنه مَلأى؛ لا يقلق إذا فاته شيء.

وفي الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1]، فحُسْن الظَّن يدعو إلى التَّوكُّل على الله، والتَّوكُّل على الله لَا بُد فيه مِن حُسْن الظَّن.

٥. استسلام القلب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فإذا استَسْلَم كاستِسْلَام العبد الذَّليل لسيده وانقاد له؛ حصل التَّوكُّل.

إِذَا ابْتُلِيتَ فَثِقْ بِاللهِ وَارْضَ بِهِ	إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ البَلْوَى هُوَ اللهُ
إِذَا قَضَى اللهُ فَاسْتَسْلِمْ لِقُدْرَتِهِ	مَا لامْـرِئٍ حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللهُ
اليَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَاناً بِصَاحِبِهِ	لَا تَيْأَسَنَّ فَنِعْمَ القَادِرُ اللهُ[2]

٦. التَّفويض: قال تعالى على لِسَان مؤمِن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ أكبر آيةٍ في كتاب الله تفويضاً، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]»[3].

قال ابن القيم -نقلاً عن شيخه ابن تيمية- رَحِمَهُمَا اللَّهُ: «المقدور يكتنفه أمران: التَّوكُّل قبله، والرِّضا بعده، فمن توكَّل على الله قبل الفِعْل، ورضي بالمقضي بعد الفعل؛ فقد قام بالعبوديَّة»[4].

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) أدب الدنيا والدين (ص٢٩٧)، المستطرف (٢/ ١٥١).
(٣) المعجم الكبير (٩/ ١٣٤).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢).

ولِذَلِكَ، انظر إلى دعاء الاستخارة: «وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ»[1]، فالتَّوَكُّل علَى الله تفويضٌ قبل وقوع المقدور، ورضاً بعد وقوعه.

٧. إثْبَات الأسباب والمُسَبَّبات، وأنَّها لا تستَقِلّ بنفسها في التَّأثِير: فإنَّ مَن جَحَد الأسباب، وعطَّلها فهو غَبِيٌّ جاهل، ومَن اعتمَد عليها فقط دون الاعتِمَاد على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهَذَا شِرْك.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله: أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟، قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[2].

وأحياناً قد لا يَجِد المرءُ إلَّا الدُّعاء، ونِعمَ السَّببُ.

والله عَزَّ وَجَلَّ قد علَّم عِبَاده الأخذ بالأسباب، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

ولمَّا سُئِل الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عن هؤلاء الَّذِين يَزْعُمون أنَّهم مُتوكِّلة، ويقولون: «نقعد وأرْزَاقنا على الله عَزَّ وَجَلَّ»، قال الإمام أحمد: «هَذَا قولٌ رَدِيء!، أليس الله قد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؟! [الجمعة: ٩-١٠]»[3].

* * *

---

(١) رواه البخاري (١١٠٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، (ص٣٤٨).

الأمور المنافية للتوكل

١. التطير والتشاؤم:

التَّطَيُّر والتَّشَاؤم: هو أنْ يَرى الرَّجل، أو يسمع شيئاً، فيتشاءم منه، ويَظُن أنَّ مقصوده لنْ يتحقَّق بسبب ما رآه أو سمعه، أو أنَّه لا ينبغي له أنْ يَمْضِيَ في عمَلِه بسبب ذلك.

وهَـذَا التَّطَيُّر يُنافِي التَّوكُّل على الله؛ لأنَّ القلب المُعَلَّق بالله، المتوكل عليه؛ لا يمكن أن يرده رؤية رجل أعْوَر، أو طيرٍ يطير إلى الشمال، أو أنَّه حجز في المقعد رقم ثلاثة عشر في الطَّائرة، وغير ذلك من التُّرَّهات والتَّفاهَات.

وقد حذَّر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هَذِه الطيرة، فقال: «لا طِيَرَةَ»[1].

والتَّطَيُّر والتَّشاؤم ليس مُنافياً للتَّوكُّل فقط، بل هو منافٍ للتَّوحِيد

٢. التنجيم والكهانة:

ومِن الأمور المُنافِيَة للتَّوكُّل -أيضاً-: الذَّهاب إلى الكهَنة، والعَرَّافِين، والمُنَجِّمين لمعرفة الغيب، ومعرفة ما الَّذِي سيَحْصل في المُسْتَقْبل.

ولو كان المؤمن مُتَوَكِّلاً على الله حقَّ التَّوكُّل؛ ما قصد أحداً غيره، ولا طلب معرفة الَّذِي سيَحْصُل مِن لا يُمْكِن له معرفة الغَيْب.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لمَّا أراد عليٌّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنْ يُسافِر لقِتَال الخوارج عرض له مُنَجِّمٌ، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تسافر؛ فإنَّ القمَر في العَقْرَب، فإنَّك إنْ سافَرْتَ والقمَر

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٢)، ومسلم (٢٢٢٣).

في العقرب؛ هزم أصحابك. أو كما قال. فقال علي: «بل نُسافِر ثقةً بالله، وتوكُّلاً على الله، وتكذيباً لك». فسافر؛ فبُورِكَ له في ذلك السَّفَر حتى قتل عامَّة الخوارج، وكان ذلك مِن أعظم ما سُرَّ به، حيث كان قِتَاله لَهُم بأمر النَّبي ﷺ»[1].

ولو سَمِع المؤمن خبَراً مِن كاهِن، أو عرَّاف، أو مُنجِّم؛ فالخير كل الخير له في مُخالفته، وعدم اعتِبَار ما قاله.

٣. تعليق التمائم:

ومِن الأمور المُنافِيَة للتَّوكُّل: تعلِيق التَّمائم، كما يفعل كثيرٌ مِن الجُهَّال، فيعلقون على صدورهم خرَزات زرقاء، أو أوراقاً يأخذونها مِن الدَّجالين والمُشَعْوذِين؛ يقصدون بها حماية أنفسهم.

وأين التَّوكُّل على الله مِمَّن هَذَا صنيعه؟!

ولهؤلاء عقوبة تناسب جريمتهم، بيَّنها ﷺ بقوله: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ»[2]، فعندما تعلَّقوا بالخرَز والورَق، وما أشبهه، ولم يتوكَّلوا على الله؛ علَّقهُم الله بما تعلَّقوا به، ووكَلهُم إليه، وكفَى بذلك خُسْرَاناً.

٤. التبرك بالأحجار والأشجار:

إنَّ التَّبرُّك بالأحجار، والأشجار، وكل ما لا يَجُوز التَّبرُّك به؛ كل هَذَا مِن الأمور المُنافِيَة للتوكُّل على الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يؤدِّي مثل هَذَا إلى الشِّرك بالله، والعياذ به.

٥. عدم السعي في طلب الرزق:

سبَقَ وأنْ ذكَرْنا أنَّ الأخذ بالأسباب مِن شروط التَّوكُّل، وأنَّ عدَم الأخذ بالأسباب مِن الأمُور المُنافِيَة للتوكُّل.

---

(١) الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٣٩٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٧٢)، والنسائي (٤٠٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

ونتحدَّث هنا عن ظاهرة شاعت في عصرنا وزماننا، ألا وهي: «البطالة»، فقد أصبح كثيرٌ مِن النَّاس يتواكلُون على غيرهم في رزقهم، فالابنُ يعتمد على أبيه في رزقه، والأخ يأخذ مِن أخته المُوظَّفة.

وأصبَحَ الشَّباب لا يبْحثُون عن العمل المُنتِج المُثمِر، بل يُحِبُّون أن يبقوا في أعمالٍ لا جهد حقيقي فيها، ويفضِّلُون البطالةَ على الجهد، والسَّعي في طلب الرِّزْق.

وقد دلَّ الكِتَاب والسُّنة على أنواعٍ مِن طرق اكتساب الرِّزق، نذكر بعضها؛ تنبيهاً لهؤلاء الكُسالى والبطَّالين:

أ) أوَّل وأعظم أسباب الرِّزْق، وأحلُّ الحلَال في الأرض؛ هو غنائم القِتَال، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»[١].

ب) العمل باليَد: قال الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[٢]، وقال: «لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَداً، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»[٣].

ج) التِّجَارة: وهي عمَلُ كثيرٍ مِن المُهاجِرين والأنصار؛ فهذا عبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما عَرَضَ عليه بعض الأنصار نِصْفَ مالِه؛ أبَى، وقال: «دُلُّونِي عَلَى السُّوق»[٤].

د) الحرْث، والغَرْس، والزَّرع: وهي مِن أهمِّ أنواع السَّعي في الرِّزْق؛ لِمَا فيها مِن توكُّلٍ على الله؛ لا يُوجَد في غيرها، وتعَلُّق حقيقي بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ المزارع متى بذر البذر وسقاه وحرَثَه؛ علم أنَّ خُروجَه متوقِّفٌ على قدرة الله ومَشِيئَتِه، وأنَّ حِمَايته مِن الجوائح ليس إلَّا بقدرةٍ مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) رواه أحمد (٥١١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٢) رواه البخاري (١٩٦٦).

(٣) رواه البخاري (١٩٦٨).

(٤) رواه البخاري (١٩٤٤).

فكَمْ مِن مُزارعٍ ذهب زَرْعُه بسببِ تكَالُب الجرَاد عليه وأكلِه، وكم مِن أصْناف المَزْرُوعَات الَّتي هلكَتْ بسَبب الجفَاف، أو بسبب كثرة نزُول المطَر أو الثَّلج عليها.

فهؤلاء الحرَّاث، والزُّرَّاع: مِن أشد أصحاب الأعمال تعلُّقاً بالله عَزَّوَجَلَّ؛ كما هو مُلاحَظ

٦. عدم السعي في طلب العلاج:

ومِن الأمور المُنافيَة للتَّوكُّل: عدَم السَّعي في طلب العِلَاج حين نزول المرض، وقد قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ له شِفَاءً»[1].

كما أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالتَّداوي فقال: «تَدَاوَوْا عِبَادَ الله»[2].

والتَّداوي ما هو إلَّا أخذٌ بالأسباب الَّتي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* * *

(١) رواه البخاري (٥٣٥٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجة (٣٤٣٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

من قصص المتوكلين

إنَّ مِن الأمور الَّتي تحث العبد علَى التَّوكُّل على الله، وتعلق قلبه به: قراءة قصص الصَّالحين المُتوكِّلين على الله عَزَّوَجَلَّ، وما أصابهُم مِن نَعْمَاء؛ بسبب صدق توكُّلهم علَى الله، وعلَى رأس هؤلاء المُتوكِّلين: رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحب السيف:

لمَّا نزل رسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه في وادٍ، وعلَّق سَيْفَهُ في شجرة، وتفرق النَّاسُ في الوادي يستظِلُّون تحت الشَّجر، لم يرُعهُم إلَّا والنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوهم، فأتوهُ، فإذا بشخص، وسيفٌ ساقط، فقال الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتاً فِي يَدِهِ -أي: مَسْلُولاً- فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: الله. ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال: قُلْتُ: الله. قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ -أي: أغمده-، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ»[1].

هَذَا هو التَّوكُّل، والتَّفويض، والاستعانة.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار:

عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدَهُم نظَرَ تحت قدَمَيْهِ لأبصرَنَا. فقال: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا»[2].

---

(١) رواه مسلم (٨٤٣).

(٢) رواه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

هَـذَا هو التَّـوَكُّل، والتَّفويض، يظهر في أوقات الأزمت جلياً واضحاً، يُظهِر أنَّ صاحبه قلبه مُفْتَقِرٌ إلى الرَّب، مُتَوَكِّلٌ عليه، مفـوِّضٌ أمره إليه، خصوصاً إذا لم يَكُن هناك أسباب تُتخذ، إلَّا تفويض الأمر إلى الله.

المرأة وعنزاها:

وهـناكَ قصَّةٌ لطيفةٌ تدُلُّ على مـدَى أهمِّية التَّوَكُّل، وما يُجْنيه المُتـوكِّل مِن الفائدة، رو ها الإمـام أحمـد رَحِمَهُ اللَّهُ عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ امْرَأَةً كانت فيه -يقصد: في بيت أشـار إليـه النَّبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَخَرَجَتْ فِي سَرِيَّةٍ مِـنَ الْمُسْـلِمِينَ، وَتَرَكَتْ ثِنْتَيْ عَـشْرَةَ عَنْزاً لَهَا وَصِيصِيَتَهَـا -أي: مغزلها- كَانَتْ تَنْسِجُ بِهَا، قـال: فَفَقَدَتْ عَنْـزاً مِنْ غَنَمِهَـا وَصِيصِيَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ ضَمِنتَ لِمَن خَرَجَ فِي سَـبِيلِكَ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ فَقَدْتُ عَنْزاً مِنْ غَنَمِي وَصِيصِيَتِي، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ عَنْزِي وَصِيصِيَتِي، فَجَعَلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا لِرَبِّهَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فَأَصْبَحَتْ عَنْزُهَا وَمِثْلُهَا، وَصِيصِيَتُهَا وَمِثْلُهَا»[1].

فيا سبحان الله!!

هـذه التـي صدقت في تَوَكُّلها على الله عَزَّ وَجَلَّ، لم يحفـظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها عنْزها فقط، بل زادَهَا الضِّعفَ؛ بسبب صِدْق تَوَكُّلها عليه.

المرأة والتنور:

وكذلك ذكَر الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بسنَدِه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «بينما رجلٌ وامرأةٌ له في السَّلَفِ الخالي، لا يقدران على شيء، فجاء الرَّجُل مِن سفره، فدخَلَ على امرأته جائعاً، قد أصابَتْهُ مَسْـغَبَةٌ شـديدة، فقال لامرأته: «أعندك شيء؟»، قالـت: «نعم، أبشر، أتاك رزق الله»، -مـع أنها ليس لديهـا شيءٌ، لكنها الثِّقة، والاعتماد على الله، ورجاء الله-؛ فاسـتَحَثَّه، فقـال: «ويْحَـكِ! ابتغي إن كان عندك شيء». قالت: «نعم، هُنَيَّة، نرجو رحمة الله». حتى إذا طـال عليه الطوى -أي: الجـوع- قال: «ويْحَكِ!، قومي، فابتغـي إنْ كان عندك خبز فأتيني به، فإني قد بلغت وجهدت». فقالت: «نعم، الآن ينضج التَّنور، فلا تعجل»، فلما أن سكَتَ

(١) رواه أحمد (٢٠٦٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٣٥).

عنه ساعة، وتحيّنت -أيضاً- أنْ يقول لها، قالت هي مِن عند نفسها: «لو قُمْتَ فنظرت إلى تنُّوري». فقمت فوجدْتُ تنورها ملآن جُنُوب الغنم، ورحييها تطحنان!! فقمت إلى الرَّحى فنفضتها، وأخرجت ما في تنورها مِن جنوب الغنم» قال أبو هريرة: «فو الذي نفس أبي القاسِم بيده -عن قول محمد ﷺ-: «لَوْ أَخَذَتْ مَا فِي رَحَيَيْهَا وَلَمْ تَنْفُضْهَا، لَطَحَنَتْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!!»[١]

عمر والمجذوم، وخالد والسم:

لقد ذكَرَتْ لنا كتُبُ الحَدِيث قِصَّتَيْنِ، قد يستَشْكِلهما بعض النَّاس: قصَّة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حينما أكل مع المَجْذُوم[٢]. وقصّة خالد بن الوليد رضي الله عنه حينما شرب مِن السُّم. فعن أبي السَّفَر، قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة، فقالوا له: «احْذَر السُّم؛ لا يسْقِيكَه الأعاجم». فقال: «ائتُوني به»، فأُتِيَ به، فأخذَهُ بيده، ثُم اقْتحَمهُ -أي: شرب-، وقال: «بسم الله». فلم يضره شيئاً[٣].

فقصَّة عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه يُستَفاد منها شدَّة توَكُّله علَى الله.

وذكَر العلماء توجيهاتٍ لهذه القِصَّة -على فرض صحتها- منها:

١. أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أراد التَّأكيد علَى نفي العدوى، ولَم يرد مخالفة أمر النَّبي ﷺ بالفِرار مِن المَجْذُوم.

٢. أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أراد مُواساة المَجْذُوم؛ لأنَّه ناقص الخِلْقة.

٣. أنَّ حديث: «لَا عَدْوَى»[٤]، إنَّما يَعْمَلُ به مَن قَوِيَ توَكُّله على الله، أما حديث: «فِرَّ مِن المَجْذُوم»[٥]، فيَعْمَلُ به مَن ضعف توكُّله علَى الله[٦].

---

(١) رواه أحمد (٩٤٦٤)، وله شاهد، رواه الطبراني في الأوسط (٥٥٨٨)، وانظر: الصحيحة (٢٩٣٧)

(٢) انظر: سنن الترمذي (١٨١٧)

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي (٧١٨٦)

(٤) رواه البخاري (٢٠٩٩)، ومسلم (٢٢٢٥)

(٥) رواه أحمد، (٩٧٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٧٨٣).

(٦) انظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٠/ ١٦٠).

وقصَّة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُستفاد منها: أنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ توكَّل على الله حقَّ توكُّلِه؛ فلم يُؤذِه السُّم.

ولكن ليس لأحدٍ أنْ يُقلِّدَ خالداً في ذلك؛ لأنَّ العلماء ذكروا توجيهاتٍ لقِصَّتِه، منها:

١. أنَّ الأمر كان كرامةً لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلا يجوز لأحدٍ أنْ يتأسَّى به؛ لِئلَّا يقتله السم.

٢. أنَّه قد يكون هناك عهدٌ لخالدٍ مِن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألَّا يُؤذِيه السُّم، وقد توكَّل خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك؛ فشَرِبه[1].

٣. ما ورَدَ في بعض الرِّوايات أنَّه إنَّما فعلَهُ لأجل أنْ يَستَسلِم الأعداء له؛ حِفاظاً على نفُوس المسلمين وأموالهم.

* * *

(١) فتح الباري، (١٠/ ٢٤٨).

الخاتمة

لقد تبيَّنَ لك أخي بعد هَذَا كُلِّه؛ عِظَم منزلة التَّوَكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأهمِّيته.

وبيَّنا لكَ أنَّ التَّوَكُّل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب، وأنَّ عدم الأخذ بالأسباب لا يُسَمَّى توكُّلاً، وإنَّما يُسَمَّى تَوَاكُلاً، وأنَّ التَّواكُل إنَّما هو صَنيع البطَّالِين والمُتكَاسِلين.

وذكَرْنا لك حُكْم التَّوَكُّل على الله، وشيئاً مِن المَقَامَات الَّتي أمر اللهُ عِبَاده فيها بالتَّوَكُّل.

وعرَضْنا لكَ صُوَراً مِن قصص مَن توكَّلَ على الله حقَّ توكُّلِه، وماذا كانت نتيجة هَذَا التَّوَكُّل.

هَذَا بعض ما يسَّره الله في موضوع التَّوَكُّل.

نَسْأَلُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يجعلَنا وإيَّاكُم مِن المتوكِّلين عليه، وأنْ يجعَلنا مِن المُوحِّدين، وأنْ يجْعَلنا مِن الَّذين يقُولون بالحقِّ وبه يَعْدِلُون.

وصلَّى اللهُ وسلَّم علَى نبيِّنا محمَّد، وعلَى آلِه وصَحْبِه أجْمَعِين.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. كيف يَكُون التَّوَكُّل نِصْف الدِّين؟

٢. اذكُر تعريف الشَّيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ للتَّوَكُّل.

٣. اذكُر أمثلة لاتِّخاذ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأسْبَاب.

٤. لَماذا أمَرَ الله مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أنْ تَهُزَّ جِذْعَ النَّخلة، ولم يسقط عليها الرُّطَب بدون أن تهزه؟

٥. ما هو دعاء الخروج مِن المَنْزِل الذي فيه ذِكْر التَّوَكُّل على الله؟

٦. التَّوَكُّل يجمع بين عِلْم القَلْب وعمَلِه. اشرح هذه العِبَارة.

٧. كيف تكون غنياً بالتَّوَكُّل؟

٨. ما رَأيكَ في رَجُل فَقَدَ عمَلَهُ، فبكَى مِن خشيةِ الفَقرِ، هل يُسَمَّى مُتَوَكِّلاً؟ ولماذا؟

٩. ما الفَرْق بيْنَ التَّوَكُّل والتَّواكُل؟

١٠. ما حكم التَّوَكُّل؟ اذكر ذلك بالتَّفصِيل.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. متَى تتوَكَّل على الله فقط؟ ومتَى تجمع بين الاسْتِعَانة والتَّوَكُّل في المَقامات التَّالية؟

أ. أثْنَاء إجابتك عن أسئلة الامتحان الدِّراسِي.

ب. عند انتِظَار ظهور نَتائج الامْتِحَان.

ج. عند نقْلِكَ أغراض المنزل مِن السَّيارة إلى البيت.

د. أثناء انتِظَار الرَّد على طلَب تَوْظِيفك.

٢. التَّوَكُّل مِن صفات الأنبياء، كيف يستفيد الدَّاعية مِن هَذَا؟

٣. ما رأيكَ فِيمَن يترك مفاتيح سيَّارته فيها، ويترك أبواب السَّيارة مفتوحة، ويقول: «أنا متوكِّلٌ على الله في عدم سرقة السَّيارة»؟!

٤. ما رأيك في الصُّوَر التَّالية:

أ. رَجُلٌ سَمِع بحُدوث زلْزَال في أقاصِي الدُّنيا، فلم يخرج مِن بيْتِه ذلك اليوم.

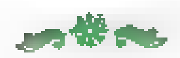
ب. شخصٌ يريد أنْ يقدم علَى وظيفة، فنظَر في باب «برجك اليوم» في إحدى الصُّحُف؛ ليختار اليوم الذي يُقدم فيه على الوظيفة.

ج. شخص خرج مِن منْزِله؛ فوجَدَ المصعد مُعطلاً، فرجع إلى منزله؛ خوفاً مِن حصول مصيبة له في ذلك اليوم.

٥. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، مَا الذي يُفهم مِن تقْدِيم المفْعُول به على الفِعْل في هذه الآية؟

٦. قال ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[1]، اشرح الحديث.

٧. ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، هل خَوفُ مُوسَى عليه السلام يُنافِي التَّوكُّل؟



(١) رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجة، (٣٥٣٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.



الخوف

مُقدمة

الحمدُ لله ربِّ العَالمين، والصَّلاة والسَّلام علَى أشْرَف الأنبِيَاء والمُرسَلِين، نبيِّنَا محمَّد، وعلَى آلِه وصَحْبِه أجْمَعِين.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ الخَوْف مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سِمَةُ المؤمنين، وآيةُ المُتَّقِين، ودَيْدَن العَارفِين، خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدُّنيا طَرِيقٌ للأَمْن في الآخِرَة، وسببٌ للسَّعادة في الدَّارين، ودليل على كَمَال الإيمان، وحُسْن الإسْلَام، وصَفاء القَلْب، وطهارة النفس.

وسنتطرَّق في هَذَا الفصلِ لبيان معنى الخَوْف، وأهمِّيته، والفَرْق بيْنَه وبيْنَ الخَشْية، ثُمَّ نَذْكُر شيئاً مِن ثمَراته العاجلة والآجِلَة، والأسْبَاب الجَالِبَة له.

نَسْأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا منه خائفِين، وله رَاجِين، ولرَحْمَتِه وعَطائه مؤملين.

وصلَّى اللهُ علَى نبيِّنا محمَّد، وعلَى آلِه وصحبه أجمعين.

* * *

أهمية الموضوع

للخوف أهمية خاصة في شريعة الإسلام؛ لأنه يدفع الناس إلى الأعمال الصالحة، ويبعدهم عن الوقوع في الأعمال السيئة.

كما أنَّ الخوف هو طريق القُرْب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو سبيل المؤمنين، العارفين بالله، الَّذين يُريدُونَ الآخِرَة، ويَعْمَلُون لها.

قال أبو حَفْص النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخَوْف سِرَاج في القَلْب، به يُبْصَرُ ما فيه مِن الخَيْر والشَّر، وكل أحدٍ إذا خفته هربتَ منه، إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، فإنَّك إذا خفته؛ هربتَ إليه، فالخائف هاربٌ مِن ربِّه إلى رَبِّه»[1].

وقد امْتَدَح اللهُ أهل الخَوْف في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوج النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: سألت النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هَذِهِ الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]: أهُمُ الَّذِين يَشْرَبُون الخَمْر ويَسْرِقُون؟ قال: «**لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ؛ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ، وَيُصَلُّونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ**»[2].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٥١٣).

(٢) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجة (٤١٩٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «عملوا -والله- بالطَّاعات، واجتهدوا فيها، وخافُوا أن ترد عليهم، إنَّ المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً!»(١).

أي: إساءة في العمل، وأمناً مِن عذاب الله!.

ومَا فارقَ الخَوْفُ قلباً إلَّا خَرِبَ، فإذ سكن الخَوْف القلوبَ؛ أحرَقَ مواضع الشَّهوات فيه، وطرد عنها إيثار الدُّنيا.

فكَمْ أطلق الخَوْف مِن سجينٍ في لذَّته كانت قد استحكمَتْ عليه سكرتُه! وكم فكَّ مِن أسير للهَوى ضاعت فيه هِمَّته! وكم أيقظ مِن غافلٍ التَحَف بلِحَاف شهوته!، وكم مِن عاقٍّ لوالديه ردَّهُ الخَوْفُ عن معصيته!، وكم مِن فاجرٍ في لهوه قد أيقَظَهُ الخَوْف مِن رقدته!، وكم مِن عبيدٍ لله قد بَكَى مِن خشيته!، وكم مِن مُسَافرٍ إلى الله رافقَهُ الخَوْف في رحلته!، وكم مِن مُحِبٍّ لله؛ ارْتوَت الأرضُ مِن دَمْعَتِه!.

فلله، مَا أعْظَم الخَوْف لِمَن عرف عظيم منْزلته.

والخَوْف ليس مقصوداً لِذَاتِه، فليس المَقْصُود أنْ نخاف لأجل أنْ نخاف؛ بل لِيكُون الخَوْف وسيلة تُصلح أحْوَالنا.

ولو كان الخَوْف مقصوداً لِذَاتِه؛ لما ذهب عن أهل الجنة، لكن لَمَّا كان دخول أهل الجنةِ الجنَّةَ نهايةً لما طُلِب منهم، وليس فيها عمل، ولا مجاهدة للنَّفْس في العِبَادات، ولا مقاومة للهَوى والشَّهَوات؛ لم يَكُن في تِلْك الدَّار خوف، قال تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

ومَنْ خاف اليوم؛ أمِنَ غداً، ومَن أمِنَ اليوم؛ خاف غداً.

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله خلق الخَلْقَ ليَعْرِفُوه، ويَعْبُدُوه، ويخْشَوْه، ونصب الأدلة الدَّالة علَى عظَمَتِه، وكِبْرِيَائه؛ ليَهابوه، ويخافوه خَوْفَ الإجْلَال، ووصَفَ لهم شدَّة عذَابه، ودار عِقَابه التي أعدَّها لِمَنْ عصَاه؛ ليتَّقُوه بصَالِح الأعمال.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥١٢).

ولهذا، كرَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه ذِكْر النَّار، وما أعدَّه فيها لأعْدَائه مِن العَذاب والنَّكَال، وما احْتَوَتْ عليه مِن الزَّقُّوم، والضَّرِيع، والحَمِيم، والسَّلاسِل، والأغْلَال، إلى غير ذلك مِمَّا فيه مِن العَظَائم، والأَهْوَال.

ودعَا عِبَادَهُ بذلك إلى خَشْيَته وتَقْوَاه، والمُسارَعة إلى امْتِثَال مَا يأمر به ويُحِبُّه ويَرْضَاه، واجْتِنَاب ما يَنْهَى عنه ويكرهه ويأباه، فمَن تأمَّل الكِتَاب الكريم، وأدارَ فِكْرَه فيه؛ وجد مِن ذلك العجَب العُجَاب، وكذلك السُّنَّة الصَّحِيحَة التي هي مُفَسِّرة ومبينة لمعاني الكتاب، وكذلك سِيَرَ السَّلف الصَّالح؛ أهل العِلْم والإيمان مِن الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسان، مَن تأمَّلها: عَلِمَ أحْوَال القَوْم، ومَا كانوا عليه مِن الخَوْف، والخَشْيَة، والإخْبَات، وأنَّ ذلِكَ هو الذي رقَّاهم إلى تِلْك الأحْوَال الشَّريفة، والمَقَامَات السنيات، من شِدَّة الاجتهاد في الطَّاعات، والانكفاف عن دقَائق الأعْمَال المَكْروهات، فضلاً عن المُحَرَّمات»[1].

* * *

(١) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب الحنبلي، (ص٧-٨).

تعريف الخَوْف

الخَوْف في لغة العرب:

مأخوذ من مادّة (خ و ف)؛ الّتي تدُلّ علَى الذُّعر والفَزَع.

يُقَال: خافَه، يخافُه، خوفاً، وخَيْفاً، ومَخافة.

ومنه: التَّخويف، والإخَافة، والتَّخوف.

والنَّعت: خائفٌ، وهو الفَزِع.

والأمر منه: خَفْ.

وخـوَّفَ الرجلَ: جعل النَّـاس يخافونه، وفي التنْزيـل العزيز: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي: يجعلكـم تخافـون أوْليـاءه، وقـال ثَعْلَـب: معنـاه: يخوِّفكُم بأوْليائه.

وطريق مَخُوفٌ، ومُخِيفٌ: تخافه النَّاس[١].

قـوم خَوْفٌ؛ أي: خائِفُـون، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ أي: خائِفين عذَابه، طامِعين في ثَوابه[٢].

والخَوْف في الاصطلاح:

هو: توَقع حلُول مكروه، أو فواتِ محبوب؛ لعلامة مظنونة، أو معلومة.

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (٩/ ٩٩-١٠٠)، بتصرف واختصار.

(٢) تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٢٨٩).

أو هو: اضطراب القلب، وحركته، وفزعه مِن مكروه يناله، أو محبوب يَفُوتُه.

وهو ضد الأمن، ويستعمل في الأمور الدُّنيويَّة و لأخرويَّة.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ الخَوْف عبارة عن تألُّم القلب واحْتِرَاقه بسبب توقُّع مكروه في الاستِقْبَال.

مِثَال ذلك: مَن جنَى علَى مَلِكٍ جنايةً، ثُم وقَع في يَدِه، فهو يخَاف القَتْل، ويجُوِّز العفوَ، ولكن يَكُون تألُّم قلبه بحسب قوَّة عِلْمه بالأسبَاب المُفْضِيَة إلَى قَتْله، وتفَاحش جِنَايته، وتأثِيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسبَاب؛ يضعف الخَوْف، وقد يَكُون الخَوْف لَا عن سبب جِنَاية، بل عن صِفَة المخوف، وعظمته، وجلالِه؛ إذ قد علم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو أهلك العَالمِين لم يبالِ، ولم يَمْنَعه مانع، فبحسب معرفة الإنسَان بعُيوب نفْسه، وبجَلَال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واستِغْنائِه، وأنَّه لا يُسْأل عمَّا يفعل؛ يَكُون خوفه»[1].

***

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، لأحمد بن عبد الرحمن بن قدامة، (ص٦٢).

معاني الخَوْف في القرآن

وردَتْ كلِمَةَ الخَوْف في القرآن، مُشاراً بها إلى عِدَّة معانٍ؛ مِمَّا يَحْصُل بسَبَبِها الخَوْف، ومِن ذلك:

- **القتل، أو الموت:**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

- **القتال:**

قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

- **توقع حصُول أمر غير مرغوب فيه:**

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ [البقرة: ١٨٢]؛ أي: علم.

وقال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ أي: يعلما.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ [النساء: ٣]؛ أي: علمتم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء: ١٢٨].

- **النَّقص:**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧].

• **الخَشْيَة مِن العَذاب والعُقُوبَة:**

قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عند شرحه لقول البخاري: «باب: الخَوْف مِن الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

«قوله: «باب: الخَوْف من الله عَزَّوَجَلَّ»: هو مِن المَقامات العَلِيَّة، وهو مِن لَوازم الإيمان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ لله، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ**»[2].

وكُلَّما كان العَبْد أقربَ إلى ربِّه؛ كان أشد له خشية مِمَّن دُونَه.

وقد وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملائكة بقَوْله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. والأنبياء بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]»[3].

* * *

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٧٧).

(٢) رواه مسلم (١١٠٨).

(٣) فتح الباري (١١/ ٣١٣)، بتصرف.

الفرق بين الخَوْف والخشية

الخَوْف والخشية؛ لفظتان مُتقاربتان، وبينهما خِلَاف بسيط في المَعْنى.

فالخَوْف: هو الفَزَع مِن أيِّ شيء.

أمَّا الخشية: فهي الخَوْف، والفزع مِن الشَّيء المعظم

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الزمخشري: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علمه بما يخشى منه، ولهذا خُصَّ العلماءُ بها»[1].

وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم»[2].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخشية هي: الخَوْف المبني على العلم بعظمة من يخشه، وكمال سلطانه»[3].

فعَلى هَذَا: تكون الخشـية أخص مِن الخَوْف مِن ناحية الشَّيء الذي يُخاف منه؛ لأنه لا بد أنْ يَكُون معظماً.

وأيضـاً: فالخشية أخص مِن جهة مَنْ تقع الخشية منه، حيث إنَّ الخشية مخصوصة بالعلماء بالله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]؛ أي: خوفاً مقروناً بمعرفة.

---

(١) فيض القدير، للمناوي، (١/ ٢١٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، (ص٢٨٣).

(٣) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، (٦/ ٥٦).

ولذلك، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَتْقَاكُمْ للهِ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»[1]؛ لأنَّه إمام العَالِمِين، والعَارفِين.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ»[2].

فعلَّق كثرة البكاء وقلَّة الضَّحِك الدَّالة على الخَوْف والخشية بالعلم.

فالخَوْف لعامَّة المؤمنين، والخشية للعلماء والعارفين، وعلى حسب قدر العِلْم والمعرفة؛ يكون الخَوْف، والخشية.

* * *

(١) رواه مسلم، (١١٠٨).

(٢) رواه الترمذي، (٢٣١٢)، وابن ماجة، (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

وجوب الخَوْف

الخَوْف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واجبٌ مِن أهم الواجبات الشَّرعية، ومِن أعظمها؛ لِمَا يَتَرتَّب عليه مِن الآثار المُهِمَّة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «منْزِلة الخَوْف: وهي مِن أجَلِّ منازل الطَّريق، وأنفعها للقَلْب، وهي فرض على كل أَحَد»[3].

وقال بعضهم: «وأما الأمان: فلا سبيل إليه، بل الخوفُ واجب، وهو شعار الصالحين»[4].

وقد تضافرت الأدلة من القرآن والسنة على وجوب الخَوْف، فمنها:

- **الأمر بالخَوْف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:**

قال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]؛ فهَذا أمر برهبته، والأمرُ يقتضي الوجوب.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر تعالى بخشيته التي هي أصل كل خير، فمَنْ لم يَخْشَ الله؛ لم يكفّ عن معْصِيَته، ولم يمتثل أمره»[5].

- **جعل الخَوْف شرطاً من شروط الإيمان:**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١١).

(٤) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير، (٩/ ١٥٦).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، للشيخ السعدي، (ص٧٣).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذه الآية: وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان؛ فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله»(١).

- **وصف الرُّسُل بأنَّ مهمتهم الإنذار والتخويف:**

الإنذار في لُغَة العَرَب: الإعلام بالشَّيء الَّذي يُخيف.

قال الرَّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنذار إخبار فيه تخويف، كما أنَّ التَّبشير إخبار فيه سُرور»(٢).

وقد جاءت آيات من القرآن واصفة الرُّسل بأنَّهم مُنذِرُون، ومن تلك الآيات: قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

كما أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أمر النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإنذار، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

عن ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾؛ صعد النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصَّفا، فجعل يُنادي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**»، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ: أَنَّ خَيْلاً بِالوَادِي، تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**»، قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلَّا صدقاً. قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وكان من أوائل أوامره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الإنذار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢].

قال القُرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «خوِّف أهل مكة، وحذرهم العذاب: إن لم يسلموا»(٤).

---

(١) المرجع السابق، (ص١٥٧).

(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني، (مادة: نذر)، (ص٧٩٧).

(٣) رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، (١٩/ ٦١).

وعن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ: كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ؛ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ؛ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ»[1].

والنَّذِير العريَان: «أصله: أنَّ رجُلاً لقِيَ جيشاً، فسَلبُوه، وأسَرُوه؛ فانقلَبَ إلى قومه، فقال: إنِّي رأيت الجيش، وسلبوني، فرأوه عرياناً، فتحقَّقوا بصِدْقِه؛ لأنهم كانوا يعرفونه، ولا يتَّهِمُونَه في النَّصِيحَة، ولا جرَتْ عادته بالتَّعرِّي؛ فقطعوا بصِدْقِه لهَذِهِ القَرائن»[2].

وقد كان العرَبُ إذا رأى أحدهم جيشاً يُغِيرُ على قبيلَتِه قد اقترب، وهو في الخارج، ولا تدري قبيلتُه؛ جاء يركُض، ويخلع ثيابه، وهو يصرخ، حتَّى يبيِّن لهم هول المصيبة التي ستنزل بهم، وفداحة الخطر، وهَذِهِ أشد أنواع النِّذَارَات عند العَرب، وقد استعَارَها النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في خِطَابه لهم، فخَاطَبَهُم بما يعرفونه مِن حالهم؛ ليُبيِّن لهم أهمية ما جاء به.

- **ذكر العذاب حتى يخاف العباد:**

قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: إنما يقص خبر هَذَا الكائن لا محالة؛ ليخوِّف به عباده؛ ليَنْزجروا عن المحارم والمآثم، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: اخشوا بأسي وسَطْوَتي، وعذَابي ونِقْمَتي»[3].

- **ذكر الآيات لتخويف العباد:**

لقد بيَّن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ ما يرسله مِن الآيات لتَصْدِيق الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ إنَّما يرسله مِن أجْلِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٣).

(٢) نظر: فتح الباري (١١/ ٣١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٤٩).

لتَّخويف، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وكذلك الآيات الكونيَّة؛ فإنَّما يريها الله لعباده لأجل أنْ يخافوا، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

وكذلك الخسوف، والكسوف، هاتان الآيتان اللَّتان يريهما الله لعباده؛ لأجل أن يتذكَّروا الآخِرَة ويخافونها؛ فإنَّ الشَّمس والقمر سيذهب نورهما يوم القيامة.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

فالخسوف والكسوف يذكِّران بذلك، فعن أبي بكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ الله تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ»[2].

- ابتلاء الصحابة والمسلمين؛ ليعلم من يخافه -وهو أعلم بهم-:

لقد ابتلَى الله الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بابتلاءٍ عظيم؛ ليظهر الَّذي يخاف، مِن الَّذي لا يخاف.

قال تعالى في شأن الصَّيد: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٤].

فهؤلاء الصحابة الذين كان كثيرٌ من طعامهم قائماً على الصيد، وكان الصَّيد مِن الرِّياضات المُحبَّبة إلى نفوسهم، ابتلاهم الله بالصَّيد في هَذَا المَقام العَظيم؛ ليعلم من يخافه مِن الَّذي لا يخافه؛ دلالة على عِظَم شأن الخَوْف عند الله.

ولقد نجَحَ الصَّحابة في ذلك، وتبيَّن أنَّهم يخافون الله في السِّر والعلانية، بعكس اليهود الذين حرَّم الله عليهم الصَّيد يوم السَّبت، فاستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل، ونصبُوا الشِّباك يوم الجمُعَة، وسحبوها يوم الأحد مَليئة بالحيتَان والأسماك، وقالوا: «ما اصطدنا يوم السبت»!، فلم يخافوا الله؛ فهلكُوا، أمَّا الصَّحابة: فخافوا الله؛ فنجَوْا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠).

(٢) رواه البخاري (١٠٤٨)، واللفظ له، ومسلم (٩١٥).

وبعد أنْ عَلِمْت وجوب الخَوْف مِن الله، وأهمِّيته؛ لا بُدَّ أنْ تَتَنَبَّه لنقطةٍ هامَّة، وهي: أنَّ الخَوْف مِن الله على مقَامَيْن:

المَقَام الأوَّل: الخَوْف مِن عذَاب الله.

المَقَام الثَّاني: الخَوْف مِن الله نفسه.

والمقَام الأوَّل: هو الَّذِي ينْزِع إليه عامَّة النَّاس، فهم يخافون مِن دخول النَّار، ويخافُونَ مِن عذَاب الله الدُّنيوي، والأُخْرَوِي، وقد لا يتنبَّهون إلَى عظمَةِ الله، ولا يتنبَّهون إلى أهمِّية الخَوْف مِن ذاته -سبحانه-.

فالعامَّة لا يخافون إلَّا عند ذِكْر الإحراق، وذكر السَّلاسل، وأنواع العذاب ... إلخ.

وأمَّا أهل العلم والفِقْه، العالِمِين بصفات الله وأسمائه وجلاله: فهُمْ يخافون مِن الله أشدَّ الخَوْف؛ لِعِلْمِهم بعظَمتِه، وجلَالِه، وسَطْوَته، وجبَرُوتِه، ويقدِّمون خوف الله علَى خوف عذابه وعقابه، وتقشعرّ جلودُهم عند ذِكْره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ في مقامَيِ الخَوْف:

«المقَام الأوَّل: الخَوْف مِن عذاب الله، وهَذَا خوفُ عامَّة النَّاس، وهَذَا النَّوع مِن الخَوْف يحصل بالإيمان بالجنَّةِ والنَّار، وكونهما جزاءين على الطَّاعة والمعصِيَة.

وأمَّا المقَام الثَّاني: فهو الخَوْف مِن الله عَزَّوَجَلَّ، وهو خوف العُلَماء العَارِفِين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وصفاته -سبحانه- تقتضي: الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد، والحجاب»[1].

وليس المقصود: التَّقليل مِن شأن عذَاب الله، وعِقَابه، وإنَّما المقصود: بيَان علُوِّ وفَضْلِ أحد المقَامَيْن علَى الآخر.

نسأل الله أنْ يجيرَنا مِن عذابه، وأنْ يَرْزُقَنا الخَوْف من جنابه.

* * *

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص٦٨).

مراتب الخَوْف

ينقسم الخَوْف إلى أقسام وأنواعٍ، بعضها محمودٌ، وبعضها مَذْمُوم، بعضها مطلوبٌ شرعاً، وبعضها مَنْهِيٌّ عنه في الشَّرع، وعلى المسلم أنْ يَعْرف أنواع الخَوْف؛ حتَّى يعبد الله على بصيرةٍ وعِلْم، بعيداً عن الضَّلال والجَهْل.

وأنواع الخَوْف هي:

الخَوْف الواجب:

وهو: الخَوْف البَاعِث على فِعْل الوَاجِبَات، وترك المُحَرَّمات، بأنْ يعلم المرءُ أنَّه إنْ ترك ما أمرَهُ الله به؛ فإنَّه مُعذَّب، وإنْ فعَلَ شيئاً مِمَّا نهاه الله عنه؛ فإنَّه مُحاسَب.

فهَذَا الخَوْف واجبٌ على كلِّ مسلم أنْ يتحَلَّى به؛ ليَدْفعَه إلى الوصُول إلى الجنَّة، والابتعَاد عن النَّار.

الخَوْف المستحب أو المندوب:

وهو: كل خوفٍ زائدٍ عن القَدْر الواجب، ولم يَصِل إلَى القَدْر المَنْهِي عنه؛ حيث يدفع المسلم لِفعْل المُسْتحَبَّات، والابتعَاد عن المَكْروهات والشُّبهات.

وهو الخَوْف الَّذي دفَعَ بالصَّالِحين إلى القِيَام في الأَسْحَار، وصِيَام الهَوَاجِر، والتَّصدُّق بالأَمْوَال، والجِهَاد في سبيل الله، والتَّشْمِير في نوافِل الطَّاعات، والكف عن دقائق المَكْروهات، وغير ذلك مِن الأعمال الصَّالحة التي مبعثها الخَوْف مِن الرَّبِّ الجبَّار.

وهذه بعضُ الأحاديث التي تدُلُّ على خوف الصَّحابة مِن رَبِّهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خوفاً زائداً عن حدِّ الخَوْف الواجب؛ نذكرها هنا لعلَّنا نقتدي بهم:

عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، فوعظنا موعظةً بليغة، وجِلَتْ منها القلوب، وذَرَفَتْ منها العُيون، فقيل: يا رسول الله؛ وعَظْتَنا موعظة مودِّع، فاعْهَد إلينا بعهد؟ ...» الحديث[1].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج حين زاغت الشمس، فصلَّى الظُّهر، فقام على المِنْبَر؛ فذكر السَّاعة، فذكر أنَّ فيها أموراً عِظَاماً، ثُمَّ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْ، فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا»، فأكثر النَّاس في البُكَاء، وأكثر أنْ يقول: «سَلُونِي». فقام عبد الله بن حذافة السهمي، فقال: «مَن أبي؟»[2]، قال: «أَبُوكَ حُذَافَةُ»[3]. ثُمَّ أكثر أن يقول: «سَلُونِي». فبَرَك عُمَر على رُكْبَتَيْه، وقال: رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد نبيّاً. فسكت. ثم قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفاً فِي عُرْضِ هَذَا الحَائِطِ، فَلَمْ أَرَ كَالخَيْرِ وَالشَّرِّ»[4].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما كان خوف المُقرَّبين أشد؛ لأنَّهم يُطالَبُون بما لا يطالَبُ به غيرهم، فيراعون تلك المنْزلة، ولأنَّ الواجب لله منه الشُّكر على المنْزلة، فيضاعف بالنسبة لعُلُوِّ تلك المنْزلة»[5].

الخَوْف القاصر:

وهو ذلك الخَوْف الَّذِي يقوم بالإنسان عند سماعه للموعظة، أو قراءة آيةٍ مِن كتاب الله، أو اطِّلاعه على حديثٍ مِن أحاديث نبيِّنا -عليه الصَّلاة والسَّلام-؛ ثُمَّ بعد ذلك لا يؤثِّر فيه التَّأثير المَطْلُوب، ولا يأتي بالنَّتِيجَة المَرْجُوَّة، فما إنْ تَنْتَهِي تلك المَوعِظَة أو الصَّلاة حتَّى يرجع إلى ما كان عليه مِن الفساد وأعمال الشَّر، وكأنَّه لم يسمع شيئاً، ولم تذرف عيناه مِن خوف وهَوْلِ العذاب الوَبِيل.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجة (٤٢)، واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) وكان ينسب لغير أبيه.

(٣) فصار إثبات نسبه بالوحي

(٤) رواه البخاري (٥٤٠)، واللفظ له، ومسلم، (٢٣٥٩)

(٥) فتح الباري، للحافظ ابن حجر، (١١/ ٣١٣).

وفائدة الخَوْف. إنَّما تحصُل بحصُول الثَّمرة، وهي: النَّدم على ما فات، والإقلاع عن الذَّنب، ونحو ذلك مِن الفَوائد.

وصاحب هَذَا الخَوْف: يُرْجَى له الخير، ويَحْتَج إلى أن يعقد عَزْمَه، وأن يُخْلِصَ نِيَّته؛ وسوف يترقَّى بعد ذلك إلى أنواع الخَوْف المُعِينَة على الخير.

الخَوْف المحرم والمذموم:

هُناكَ خوف لم يحمده الشَّرع ولا العقل، وهو الخَوْف الزَّائد عن الحدِّ، والَّذِي يؤدِّي إلى القُعود عن العمَل، وترك الطَّاعات.

فبَعْض النَّاس مِن شِدَّة الوَعِيد، ومِن شدَّة خوفه مِن عذَاب النَّار: يُصَاب باليأس، والإحباط، ويظن نفْسَهُ أنَّه لن ينجو مِن النَّار مهما عَمِلَ مِن الأعمال الصَّالحة؛ فيترك العمل لأجل ذلك؛ لأنه -كما يدَّعي- لا فائدة منه.

وهَذَا الخَوْف قد حرَّمَهُ الشَّرع، وذمَّهُ العُلَماء؛ لأنَّه يؤدِّي لنقيض المَطْلوب مِن الخَوْف، فهو لا يُوصِل إلى الجنَّة، ولا يدفع صاحبه إلى فِعْل الخير؛ بل يُقْعِده عن المَطْلوب، ويَهْوِي به في نِيرَان الجحيم.

* * *

ثمرات الخَوْف من الله

لِكُلِّ عبادةٍ فرضها الله ثمَراتها الدُّنيويَّة، والأُخرويَّة، والخَوْف عبادةٌ مِن هَذِهِ العِبَادات الَّتي لها ثمَراتٌ مُتعَدِّدة، ولا شكَّ أنَّ مَن اطَّلع على ثمرة الشَّيء، وفائدته؛ كان أكثر رغبة فيه، فمِنْ فوائد الخَوْف مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

ثمرات عاجلة:

١. دفع العبد إلى الإخلاص:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩-١٠].

ففي هَذِهِ الآية: أنَّهم ما أطعموا ليحصلُوا على جزاءٍ دُنيوي، وما فعلُوا العمَل الصَّالح لينالُوا الثَّناء والشُّكر من النَّاس، وإنَّما قاموا بذلك خوفاً مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخوفاً مِن اليَوْم العَبُوس الشَّديد الهَوْل العَظِيم الأمر.

٢. دفع العبد إلى القيام بالأعمال الصالحة:

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

فهَذِهِ الأعمال الصَّالحة مِن ذِكْر الله، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والتَّسبيح، وغير ذلك؛ إنَّما كان دافعها الخَوْف مِن يوم القيامة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ الله الجَنَّةُ»[1].

أدلج: أيْ: سار مِن أوَّل الليل[2]؛ كناية عن الاجتهاد في السَّير.

ومعنى الحديث: أنَّ مَن خاف مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومِن عذابه؛ اجتَهَد في الأعمال الصَّالحة، ومَن اجتهد في الأعمال الصَّالحة؛ بلغ المنزل: الَّذي هو الجنَّة.

٣. تكدير السيئات وعدم التلذذ بها:

قال ابن قُدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن ثَمرات الخَوْف: أنَّه يَقمَع الشَّهوات، ويكدِّر اللَّذات؛ فتَصِير المعاصي المَحْبُوبَة عنده مكروهة»[3].

وليس المقصود تكدير اللَّذات المُباحَة، فالرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو سيد الخائفين- استَمْتَع بمُباحَات الدُّنيا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ»[4]؛ فالمقصود إذن: تكْدِير اللَّذات المُحَرَّمة.

وكيف تتكَدَّر اللذات المحرمة؟

تتكدر بتذَكُّر عذاب الله ووعيده لمن وقع فيه، فهَذا الزَّاني، وتلك الزَّانية؛ لو تذَكَّرا وعيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للزُّناة في الآخِرة وعذابه، وهَذا القيح، والصَّديد الذي يسيل منهم، وشرب الزُّناة مِن القيح والصَّديد، بل لو تذكَّرا فقط ما ينتظرهم في القبر مِن عذاب البرزخ؛ لتكدَّرَتْ تلك اللَّذة المُحرَّمة، ولنُغِّصَت عليهم تلك الفاحشة الرَّذيلة.

وشارب الخمر: لو تذكَّر أنَّه سيُحْرَم مِن خمر الجنَّة؛ لتكدر عليه شربه.

ثُمَّ قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كما يَصِير العسَل مكروهاً عند مَن يشتهيه إذا علم أنَّ فيه سُماً، فتحترق الشَّهوات بالخَوف، وتتأدَّب الجوارح، ويذل القَلْب ويَستكين،

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) انظر: فيض القدير، للمناوي، (٦/ ١٢٣).

(٣) مختصر منهاج القاصدين، (ص٦٣).

(٤) رواه النسائي (٣٩٣٩)، وقال الألباني في صحيح سنن النسائي: حسن صحيح.

ويفارقه الكبر، والحقد، والحسد، ويصير مستوعبَ الهمِّ لخوفه، والنَّظر في خطر عاقبته، فلا يتفرَّغ لغيره، ولا يكون له شُغلٌ إلَّا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضنَّة[1] بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النَّفس في الخَطِرات، والخُطُوَات، والكَلِمَات، ويكون حاله كحال مَن وقع في مخالب سَبُعٍ ضَارٍ، لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه؟ ولا شغل له إلا ما وقع فيه.

فَقُوَّة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخَوْف، وقوة الخَوْف بحسب قوة المعرفة بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصفاته، وبعيوب النَّفس، وما بين يديها مِن الأخطَار والأهوال»[2].

٤. حصول الثناء من الله تعالى:

لقد أثنى الله علَى أقرب عباده، وهم الأنبياء؛ لخوفهم منه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

كما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثنى على عباده المؤمنين بوصفهم بالخَوْف من عذابه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقد أثنى الله على أُولِي الألباب، ووصفهم بأنَّهم من أصحاب الخَوْف، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٩-٢١]؛ فالخَوْف مِن الله يدلُّ على أنَّ صاحبه صاحب عقل، وعلَى أنَّه مِن أُولِي الألباب، فهو راجح العقل، يعرف الشَّيء الَّذي يخوِّف حقًّا، ويفهم الأسباب الدَّاعية للخوف جيِّداً.

---

(١) الضنَّة: من الإمساك والبخل، ومنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وانظر: «لسان العرب»، لابن منظور، (١٣/ ٢٦١).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، (ص٣٦).

٥. التمكين في الأرض:

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

فالخوف مِن الله يؤدِّي إلى التَّمكين في الأرض، والانتصار على الأعداء، ووراثة أرضهم ودِيَارهم.

٦. النجاة من كل سوء:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، وَالعَدلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَقْرِ»[1].

فهَذِهِ الخشية هي التي تحفظ العبد، وتُنجِّيه مِن كلِّ سُوء، والنَّجاة المَذكُورة في الحديث عامَّة؛ فتشمل النَّجاة في الدُّنيا، والآخِرَة.

ثمرات آجلة:

١. الاستظلال بظل العرش يوم القيامة:

ودليلُه: حديث السَّبعة الَّذِين يُظِلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، ومنهم: «رَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»[2]، فكان خوفه مِن الله: المَانع له مِن ارْتِكَاب الفاحشة؛ سببًا لكي يكُونَ في ظِلِّ العرش يوم تدنو الشَّمس مِن رؤوس الخلَائق قدر ميل، فيغرق النَّاس في العرق!

وقوله لها: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ» ظاهر الحديث: أنه يقولها بلسانه؛ ليزجر المرأة عن فعلها، وليذكِّر نفسه، ويُصِرَّ على موقفه، ولا يتَرَاجع بعد إعلان المبادئ.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٩).

(٢) رواه البخاري (٦٦٠)، واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

وكذلك مِن هؤلاء السبعة. «رَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»، فهذِهِ الخشية التي سبَّبَتْ انْهِمَار الدَّمع: كانت سبباً في الاستِظْلَال بظِلِّ العرش يوم القيامة.

٢. رفع الخَوْف يوم القيامة:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يروي عن ربِّه جَلَّوَعَلَا قال: «وَعِزَّتِي؛ لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[(١)]

٣. النجاة من النار:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضرْعِ»[(٢)].

وعن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»[(٣)].

٤. الحصول على المغفرة والرحمة.

عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلاً كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ -أي: رزقه- الله مَالاً، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حضر: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟، قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ. قَالَ فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ. فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ الله عَزَّوَجَلَّ فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ. فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»[(٤)].

٥. نيل رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى:

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

فدلت الآية على أنَّهم نالوا رضا الله عَزَّوَجَلَّ بسبب خشيتهم من ربهم.

(١) رواه ابن حبان (٦٤٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح

(٢) رواه الترمذي (١٦٣٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٤) رواه البخاري (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧٥٧).

٦. دخول الجنة:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فضيلةُ كلِّ شيءٍ بقَدْر إعانته على طلَبِ السَّعادة: وهي لقاءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والقربُ منه، فكل ما أعَانَ على ذلك فهو فضِيلَة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾»[1].

٧. قرة العين والنعيم في الجنة:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

* * *

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، (ص٦٥).

الأسباب الجالبة للخوف

قد يقول قائل: لقد علِمْنا منزلة الخَوْف مِن الشَّريعة الإسلاميَّة، وعلِمْنا الثَّمرات الدُّنيويَّة والأُخرويَّة التي تحصل لمن تحقَّق فيه الخَوْف، ولكن: كيف نَدْخُل ضمن هذا الرَّكْب؛ فنخاف مِن الله، ونَخْشاه حقَّ خشيته؟

فنقول: إنَّ هناك أسباباً تجلب الخَوْف، وتُعين علَى تحصيله، نذكر منها:

- **تذكر جلال الله، وعظمته:**

إنَّ مِن أعظَم الأسباب المُعِينة علَى خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تذكُّر جلَالِه وعظمَتِه، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيز، جبَّار، متكبِّر، قاهر، لا يعجزه شيءٌ في السَّموات والأرض، وأنَّه ما منَعَ السماوات أنْ تسقط علَى الأرض إلَّا إمساك الله لها، ولو شاء لأهلَكَ مَن في السماوات والأرض في طرفة عين.

فإنَّه مَن تفكَّر في ذلك؛ خاف الله لا محالة؛ لأنَّ التَّفكُّر يوقعه على صفات الله -جلَّ جلَالُه- وكِبْرِيَائه، ومَن شهد قلبه عظمة الله وكبرياءه؛ عَلِمَ شأنَ تحْذِيره -جلَّ وعلَا- عندما قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى في شأن عظمته: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ هَذِهِ الآية ذات يوم على المِنْبَر، ثُم قال: «يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا العَزِيزُ، أَنَا الكَرِيمُ»، فرجَفَ بِرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنبرُ، حتَّى قلنا: «ليَخِرَّنَّ به!»[١].

---

(١) رواه أحمد، (٥٤١٤)، وصححه محققو المسند.

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المِنْبَر يقول: «**يَأْخُذُ الجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ -وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا-، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟**»، وَيَتَمَيَّلُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن يَمِينه وعن يَساره، حتَّى نظرت إلى المِنْبَر يتحرَّك مِن أسفل شيء منه، حتَّى إنِّي أقول: «أَسَاقِطٌ هو برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!»[1].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ؛ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَةِ**»[2].

وهؤلاء الملائكة الَّذين هُم مِن أعلَم المخلوقات بالله: يخافون اللهَ أشد الخوف؛ لمعرفتهم جلاله وعظمته، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣].

فإذا عرف الإنسان عظمةَ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ جلب له ذلك الخوف منه.

• تدبر كلام الله عَزَّوَجَلَّ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فليس شيءٌ أنفَع للعبدِ في معاشه ومَعاده، وأقرب إلى نجاته: مِن تدبُّر القرآن، وإطالة التَّأمُّل، وجمع الفِكْر على معاني آيات الكتاب العزيز ... فلا تزال معانيه تُنهض العبد إلى ربِّه بالوَعْدِ الجَمِيل، وتُحذِّره، وتخوِّفه بوعيده مِن العذاب الوَبِيل، وتحثُّه على التَّضمر، والتَّخفف للقاء اليوم الثَّقيل»[3].

ويقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله، لو أنَّ مؤمناً عاقلاً قرأ سورة «الحديد»، وآخر سورة «الحشر»، و«آية الكرسي»، وسورة «الإخلاص»؛ بتفكيرٍ، وتدبُّرٍ؛ لتصدَّع مِن خَشْيَة الله قَلْبُه، وتحيَّر مِن عظمةِ الله لبُّه»[4].

---

(١) رواه ابن ماجه، (١٩٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «العرش وما روي فيه»، (ص٣٥)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، (٣٦١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٠٩)، وضعفه غيره.

(٣) مدارج السالكين، لابن القيم، (١/ ٤٥١-٤٥٢)، باختصار.

(٤) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، (ص ٧٣-٧٤).

- **تدبر كلام المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته:**

لأنه سيِّد المُتَّقِين، وإمَام الخائفِين، وأشد النَّاس خشْيةً لربِّ العالَمين.

- **عدم التقصير في الواجبات:**

كالصَّلاة، والصِّيام، والحج،... إلخ؛ فإنَّ هَذِهِ الأعْمَال تجْعَل العبد قريباً مِن الله -سبحانه-، وقُربه مِن ربِّه سيجعله -ولاشك- خائفاً منه، وَجِلاً مِن عقابه.

- **الخشية من عدم قبول العمل:**

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. فكم واحدٍ منَّا مِن لمُتَّقِين كي يُقْبَل عمَلُه؟

- **تذكر الذنوب السابقة:**

إنَّ تذكُّر الذُّنوب الَّتي وقَع فيها الإنسَانُ في الأوقات الفَائتة لِمن أشدِّ المُعينات على خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنَّ العبد يعلم يقيناً أنَّه قد قدم بِهَذِهِ المعَاصي، ولا يعلم هل سيَغْفِرُ اللهُ له ذنُوبَه؟ أمْ أنَّه سَيُعاقِبُه عليها؟

- **التفكر في المصير:**

سيأتي يومٌ علَيْنا تُقبَض فيه أرْوَاحُنا، ويُذهَب بنا إلى حفرةٍ ضيِّقةٍ مُظْلِمة، ونُتْرَك وحْدَنا، ليس معَنا أنِيسٌ ولا جَليس، ثم نُسأل عن أعمالنا في الدنيا، ونَمْكُث، إمَّا في حفرةٍ مِن حفر النِّيرَان -نعوذ بالله منها-، وإمَّا في روضةٍ مِن ريَاض الجِنَان -نسأل الله مِن فضله-، ثُم بعد ذلك نُخْرَج ونُحْشَر، ونقِفُ في يومٍ شديد الحَرِّ، شديد الزِّحَام، ثُم بعد ذلك نَمُرُّ على الصِّراط، ويُؤمَر بنا، إمَّا إلى جنة، وإمَّا إلى نار؛ فالتَّفكُّر في مَصِير البشَر هو طريقٌ لحصول الخَوْف مِن عذَاب الله.

- **التفكر في الموت:**

لتَّفكُّر في الموت وشِدَّته، وأنَّه لا مَفرَّ مِنه، وأنَّ الموعد مع الموت آتٍ ولا بُد، ولا ريب فيه، إمَّا في ليلٍ أو نَهارٍ، أو في صيفٍ أو شتاء، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ

مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، فالإنسان إذا فرَّ من شيء فإنه يفرُّ من شيء وراءه، ولكنه يفر من الموت وهو أمامه!!

فتذكُّر الموت يُوجِب الخوفَ من الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ؛ فَإِنَّهُ مَا ذَكَرَهُ أَحَدٌ فِي ضِيقٍ مِنَ الْعَيْشِ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ»[1].

قال أبو العتاهية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَلَا رُبَّ ذِي أَجَلٍ قَدْ حَضَر ... كَثِيرُ التَّمَنِّي قَلِيلُ الحَذَر
إِذَا هَزَّ فِي المَشْيِ أَعْطَافَهُ ... تَعَرَّفْتَ مِنْ مَنْكِبَيْهِ البَطَرْ
يُؤَمِّلُ أَكْثَرَ مِنْ عُمْرِهِ ... وَيَزْدَادُ يَوْماً بِيَوْمٍ أَشَرْ[2]

- **التفكر في القبر وأهواله:**

قال ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْراً»[3].

وعن البَراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّ مع رسول الله ﷺ في جنازة، فجلس على شفير لقبر؛ فبكى حتى بلَّ الثرى، ثم قال: «يَا إِخْوَانِي!، لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا»[4].

- **التفكر في القيامة:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٥٦٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢١١).

(٢) ديوان أبي العتاهية (ص١٨٦).

(٣) رواه الحاكم (١٣٩٣)، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص١٨٠).

(٤) رواه ابن ماجة (٤١٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

• **التفكر في النار:**

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥]، فهي أعظم إنذار، كبرت منذرة، داهية عظيمة.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا»[1].

فعلى المرء أنْ يتفكَّر إذا دخل أهل النَّار النار: ماذا يوجد فيها من الأهوال من شِدَّة عذابها، وخَطَر شأنها؟!! وماذا أعدَّه الله فيها للمُشْركين والعُصَاة؟!

فتفكَّر فيما في النَّار من الأهوال، وكرِّر ذلك على ذِهْنك، واستَحْضِره في قَلْبك؛ وستجد الخوف قد دخل قلبك.

أنشد بعضهم:

وَكَيْفَ قَرَّتْ لأَهْلِ العِلْمِ أَعْيُنُهُمْ ... أَوِ اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا
وَالمَوْتُ يُنْذِرُهُمْ جَهْراً عَلاَنِيَةً ... لَوْ لَيْسَ لِلْقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٌ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ... أَمِ الجَحِيمُ فَلاَ تُبْقِي وَلاَ تَدَعُ
لِيَنْفَعَ العِلْمُ قَبْلَ المَوْتِ عَالِمَهُ ... قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا[2]

• **التأمل في صفات الناجين:**

إنَّ الإنسان إذا عرف مَصِيرَه؛ عليه أنْ يَبْحث عن صفات النَّاجين، ويُقَارن أفعاله بأفعالهم، وصِفَاته بصِفَاتِهم، فيَجِد أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قال في كتابه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]؛ فعلَّق المَغْفِرَة بأربعةِ شُروط: التَّوبة، والإيمان، والعمَل الصَّالح، والاهتِدَاء.

وفي سورة «العصر» أقْسَم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنَّ النَّاس في خُسْرانٍ مُبِين، واستثنى نوعاً من النَّاس: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) المدهش، لابن الجوزي (ص ٢٦٦).

٣]؛ فذَكَر الله للنَّجاة مِن الخُسْران أربعة شروط: الإيمان، وعمل الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

فمتى تأمَّل الإنسانُ في صِفَات النَّاجِين، وقارنها بأفعاله؛ فإنه يَجِد التَّقصير في أعماله، بما يرقِّق قلبه، ويُشْعِره بالخَوْف مِن عدَم الالْتِحَاق بِرَكْب النَّجاة.

- **استشعار أن النار ستمتلئ بالنَّاس والجن:**

كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فهل يا ترى نكون مِن النَّاجين؟ أمْ نكُون مِمَّن حقَّتْ عليهم كلمة ربِّ العَالَمِين؟

كما أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقْسَمَ أنَّه سيَمْلأ جهنَّم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، وبهذه الآية يَنْخَلع قلب المسلم، ولا بُدَّ أنْ يَجِد الخَوْفُ طريقه إلى قلبه؛ إذا تأمَّل فيها.

كان أبو مَيْسَرة إذا أوَى إلى فراشه، قال: «يا ليت أُمِّي لم تَلِدْنِي». ثم يبكي، فقيل: وما يبكيك يا أبا ميسرة؟ قال: «أَخْبَرَنَا أنَّا وَارِدُوهَا، ولم يُخْبِرْنا أنَّا صادِرُون عنها»[1].

- **التفكر في عاقبة محقرات الذنوب التي يحتقرها النَّاس:**

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»**[2].

فهناك ارتباطٌ بَيْنَ الأعْوَاد وإيقَاد النَّار، وبين الذُّنوب وما تسبَّب مِن نضج جلود العُصَاة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، (١٦/ ١١٠).

(٢) رواه أحمد (٢٢٨٠٨)، وقال محققو المسند: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، (٢٤٧١).

- **العلم بأنه قد يُحال بينه وبين التوبة:**

إنَّ الإنسان إذا أقبل عليه ملكُ الموتِ لينزع روحه: تمنَّى لو بقيَ في هَذِهِ الحيَاة ليعمرها بالصَّالحات، ويترك الشَّهوات والمُحرَّمات، ولكن: هيْهَاتَ، هَيْهات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وكما يُحال بَيْن الإنْسَان والتَّوبة بالموت، فيُحَال بيْنَهُ وبينها بأشياء أخرى؛ كالفِتَن المُضِلَّة التي تجعله يذهل عمَّا حوله، وكالتَّسويف، والشُّبهات، والإصْرار على المعصية والشَّهوات، فإذا مات تحسَّر حين لا تنفع الحسرة: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

- **التفكر في سوء الخاتمة:**

لقد كان السَّلف يخافُون مِن سُوء الخَاتِمة، وكان الواحدُ منهم مهما بلَغ مِن الصَّلاح والتُّقى؛ يخْشَى أنْ يتحوَّل ذلك في آخِر حيَاته إلى فسادٍ، وفجُور، وكُفْر؛ فهذَا إمامهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع شأنِه ودرَجَته، كان أكثر دعائه: «يا مُقلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلى دِينِكَ»[1].

ولو تفكَّرْنا في حال مَن خُتِمَ له بسُوء: لرَأَيْنا هَوْلاً، وعجباً، ولتقطَّعت قلوبنا خشيةً، وفرقاً، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

- **مجالسة الصالحين، والعلماء المتقين:**

ومِن الأمُور المُهِمَّة لِمَن أراد أنْ يخاف ربَّه: مُجالسَة أناسٍ يُكْسِبُونه خشيةً وخوفاً مِن الله، وهُم الصَّالحون، والعُلماء المُتَّقون، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد في المسند (١٢١٠٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

صاحِبْ أصْحَابَ الخشْيَة، وأصحابَ القلوب الرَّقِيقَة: الَّذِين إذ سَمِعُوا الذِّكر تَلِينُ قلوبُهم، وجلُودُهم لِذِكْر الله، وعن هؤلاء فابْحَث.

- **قراءة سير الخائفين:**

إذا فقدت الصَّالحين مِن حَوْلِك؛ فاقرأ سِيَر الخائفين مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واصْحَبْ أنْفَاسَهُم.

أَهْلُ الحَدِيثِ هُمُ آلُ الرَّسُولِ وَإِن ... لَمْ يَصْحَبُوا نَفْسَهُ أَنْفَاسَهُ صَحِبُوا

أمسك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلسانه، وقال: «هَذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الموارد»[1].

وأخذ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تبنة من الأرض، ثم قال: «يا لَيْتَنِي كنتُ هَذِهِ التِّبْنَةَ، ليتني لم أُخْلَق، ليت أُمِّي لم تَلِدْنِي، لَيْتَنِي لم أكُ شيئاً، ليتني كنت نسياً منسياً»[2].

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو ماتَ جمل ضيعاً على شط الفرات: خَشِيتُ أنْ يَسْألني عنه الله يوم القيامة»[3].

وقال أيضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو نادى منادٍ من السماء: «يا أيها النَّاس: إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون، إلا رجلاً واحداً»؛ لخفت أن أكون أنا هو!!»[4].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَدِدْتُ أنِّي إذا مِتُّ لَمْ أُبْعَثْ»[5]، وهو مِن أكابر أصحاب النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحت عينَيْهِ مثل الشراك البالي مِن الدُّموع[6].

وقرأت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «رَبِّ مُنَّ عَلَيَّ، وَقِنِي عَذَابَ السَّمُومِ»[7].

---

(١) رواه البزار (٨٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٦٠).

(٣) المرجع السابق (٣/ ٣٠٥).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٥٣).

(٥) رواه ابن أبي شيبة (٣٤٥٣٩).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٥٢٢)، والزهد لأحمد (٧٨٤).

(٧) مصنف عبد الرزاق، (٤٠٤٨).

وقال أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وددتُ أنّي كَبْش، فذبحَني أهلي، فأكلوا لَحمي، وحسوا -أي: شربوا- مرَقي»[1].

وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لوددتُ أنّي كنت رَمَاداً، تسفيني الرِّيح في يوم عاصِف»[2].

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لوددتُ أنَّ لي إنساناً يكون في مالي، ثُم أغلق عليَّ باباً، فلا يدخل عليَّ أحدٌ حتَّى ألحَق بالله»[3].

وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُغشَى عليه -ثلاث مرَّات- وهو يحدِّث بحديث: «أوَّلُ ثَلاثةٍ تُسَعَّر بِهِمُ النَّار»[4].

وسألتْ عمرَ بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ زوجتُه فاطمة شيئاً؛ فقال بصوتٍ حزين: «إنِّي أخاف إنْ عصَيتُ ربِّي عذابَ يوم عظيم»، فتبْكي فاطمة، وتقول: «اللَّهُمَّ أعِذْه مِن النَّار»[5].

فينبغي للمسلم أن يقرأ عن هؤلاء الصَّالحين مِن الخائفين، ويقتدي بهم.

وقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين سئل من أولياء الله؟: «الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ الله عَزَّ وَجَلَّ»[6].

- **سماعُ المواعظ والخطب:**

لقد رزَقَ الله بعض الدُّعاة والخُطَباء قدرةً على التَّأثير في نفُوس النَّاس، وكلمة سَهْلة سلسة تَصِل إلى قلب المُستَمِع فتؤثِّر فيه، ومثل هؤلاء حريٌّ بمن أرادَ ترْقِيق قلبه وزرع الخَشْية مِن الله فيه؛ أنْ يَستَمِع لهم، وأنْ يُجالِسَهُم بَيْن الحِين والآخَر.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد، (٢٤١)، وابن سعد في الطبقات، (٣/ ٤١٣)، واللفظ له

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد، (٢٤١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٤٨٠٢)

(٤) رواه الترمذي، (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي

(٥) تاريخ دمشق، لابن عساكر، (٧٠/ ٣٢)

(٦) رواه الطبراني في معجم الكبير (١٢٣٢٥)، والضياء في المختارة (١٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٣)

- **الدعاء:**

الدُّعاء مِن أهَمّ الأسباب المحصِّلة لذلك، فعلى المسلم أنْ يدْعُوَ اللهَ أنْ يرزُقَه الخوْف منه.

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو، يقول: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّاراً، لَكَ ذَكَّاراً، لَكَ رَهَّاباً، لَكَ مِطْوَاعاً، لَكَ مُخْبِتاً، إِلَيْكَ أَوَّاهاً مُنِيباً، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»[1].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو بقَوْلِه: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ»[2].

وبقوله: «اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»[3].

- **الابتعاد عن موانع الخَوْف:**

فإنَّ للخَوْفِ موَانِع تمْنَعه؛ كالمعَاصي، وحب الدُّنيا وزُخْرُفِها، والرفقة السَّيئة، والغَفْلة، وتبلُّد الإحْسَاس.

***

(١) رواه الترمذي، (٣٥٥١)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي

(٢) رواه الترمذي، (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي

(٣) رواه النسائي، (١٣٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

الخاتمة

علم أن الخَوْف إذا باشَرَ قلب العَبْد؛ فاضَ أثره على الجَوارح وظهَر، وانتهى عمَّا نَهى الله عنه، واعتصَم بما به أمَر، ودعوى الخَوْف مِن غير ذلك دعوى كاذبةٌ لا حقِيقةَ لها، فعلى المسلم أنْ يُراجِعَ نفسه فيها؛ حتَّى يستَقِيمَ لأمر الله.

قال ابن شبرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عجِبتُ للنَّاس يَحتَمُونَ مِن الطَّعام مخافة الدَّاء، ولا يحتَمُون مِن الذُّنوب مخافة النَّار!!»[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل عاصٍ لله؛ فهو جاهل، وكل خائف منه؛ فهو عالِمٌ مُطِيع لله»[2].

نسأل الله -سبحانه- أنْ يجعَلنَا مِن الَّذِينَ يَخْشَوْنَهُ في الغَيْبِ والشَّهادة.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصَحْبِه أجمعين.

* * *

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، (١٥/ ٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى، (٧/ ٢٢-٢٣).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان مِن الأسئلة حول المَوضُوع؛ أسئلة إجاباتها مُباشِرة، وهي أسئلة المستوى الأوَّل.

وأسئلة تحتاج إلى بحثٍ وتأمُّل، وهي أسئلة المستوى الثَّاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. مَن هُم المُرادُونَ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾؟

٢. لماذَا نخاف مِن الله؟ مَا الحكمة مِن خوف القلوب؟

٣. ما معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؟

٤. ما الفَرق بين الخَوف والخشية؟

٥. ما معنى قوله ﷺ: «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ»[1]؟

٦. ما هي مقَامات الخَوف؟

٧. اذكُر قصَّتَيْن تدُلَّان على الفَرق بَيْنَ خوف الصَّحابة مِن الله، وخوف اليَهُود منه.

٨. لماذا كان خوف المُقَرَّبين أشد مِن خَوْف غيرهم؟

٩. لماذَا كان خوفُ المَلائكة أشد مِن خوف النَّاس على وجْهِ العمُوم؟

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).

١٠. إذا حدَّثَتْكَ نفسك بِالمَعْصِية؛ فحاول أن تكدِّر عليها حتَّى تتركها، فكيف يكون هَذَا التَّكْدِير؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. «مَن خافَ اليوم؛ أَمِنَ غداً، ومَنْ أَمِنَ اليوم؛ خافَ غداً»، ما معنى هذه العبارة؟

٢. كيف يؤدِّي الخَوْف مِن الله إلى التَّمكين في الأرض؟

٣. اذكُر بعض الأسباب الَّتِي تُعين على الخَوْف مِن الله، غير ما ذكر في هَذَا الفصل.

٤. ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾، لقد تمنَّى بعض السَّلَف أنْ يتقبَّل الله منه ركعتين فقط ويموت بعدها؛ مستدِلاً بِهَذِهِ الآية على معنىً بيِّنه، فمن هو؟ وما هو المعنى الذي ذكره؟

٥. «تصْحِيح أعمال القُلوب هو الأصل، وتصْحِيح أعمال الجوارح تابعٌ لِذَلِكَ الأصل»، اشرح هَذِهِ العبارة.

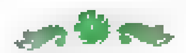
٦. هلَّا ذكَرْتَ قصَّةً مِن قصص خوف بعض الصَّالحين في هَذَا العَصْر.

٧. لماذَا كانت مُجالسَة الصَّالِحين تُكْسِب الخَشْيَة مِن الله؟

٨. كيف يعالِج صاحب الخَوْف القاصِر نفْسه؟

٩. «الخشية: خَوفٌ يَشُوبُه تَعْظِيم»، اشرح هَذِهِ العبارة.

١٠. ما حُكم الخَوْف مِن الأسد، والذِّئب، ونحو ذلك؟





الرجاء

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرَفِ الأنبِيَاءِ والمُرسَلِين، نبيِّنَا محمَّد، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمَعِين.

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ الرَّجاء ضَرُورِيٌّ للسَّائر إلى الله، والعَابد لربِّه لو فارقَهُ لحظةً؛ تلف، أو كاد يتلف؛ لأنَّ المسلم يَدُور حاله بين ذنبٍ يرجو غفرانه، وعيْبٍ يرجو إصلاحَهُ، وعمَلٍ صالحٍ يرجو قَبُوله، واستقامةٍ وهدايةٍ يرجو حصُولها وثَباتها، وقُرْبٍ مِن الله يَرجُو الوصُولَ إليه.

ولذلك، كان الرَّجاء مِن أقوى الأسْبَاب الَّتِي تُعِين المَرء على السَّير إلى ربِّه، والثَّبات على الدِّين، ولَاسِيَّمَا فِي مثل هَذَا الزَّمن؛ زمَنِ الفِتَنِ، والشَّهوات، والمِحَنِ، والشُّبهات.

ولَابُدَّ مِن فَهْم الرَّجاء فهماً صحيحاً؛ حتَّى نَكُونَ مِن أهله، فإنْ لم نفْهَمْه الفَهْمَ الصَّحِيح؛ كنَّا مِن أصحاب الأمَانِيِّ.

نَسْأَلُ اللهَ التَّوفِيقَ والسَّداد، إنَّه سمِيعٌ مُجِيب.

* * *

تعريف الرّجاء

الرَّجاء لغة:

«رَجَى»: الـرَّاءُ، والجِيمُ، والحرفُ المُعْتَـلُّ: أصْلَان مُتبايِنَان، يـدلُّ أحدُهما علَى الأمَل، والآخَر على ناحِيَةِ الشَّيء.

فالأوَّل: الرَّجاء، وهو الأمل. يقال: رجَوتُ الأمْرَ أرجُوه رجاءً. ثم يُتَّسع في ذلك، فربما عُبِّر عن الخوف بالرَّجاء.

قـال الله تعـالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافـون لـه عَظَمَةً. وناسٌ يقولون: ما أرجو، أي: ما أبالي. وفسَّروا الآية على هَذَا.

وأمَّا الآخَر: فالرَّجا، مقصور: النَّاحية مِن البئر؛ وكل ناحية رَجاً. قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وأمَّا المَهْمُوز: فإنَّه يَدُلُّ علَى التَّأخير. يقال: أرجأْتُ الشَّيءَ: أخرته.

قال الله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]؛ ومنه سمِّيت المُرْجئة[1].

والرَّجاء اصطلاحاً:

هو: «تعليق القلب بمحبوبٍ يحصل حالاً»[2].

وقِيل هو: «ارتِيَاح القَلب لانْتِظَار محبوب متوقع، ولا بُدَّ أنْ يَكُونَ له سَبَب»[3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (٢/ ٤١١)، باختصار.

(٢) فيض القدير، للمناوي، (٥/ ٦٨).

(٣) المرجع السابق (٥/ ٤٠٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرَّجاء: هو امْتِدَادُ القلب، ومَيْلُه إلى المَحْبُوب، منقطعاً عمّا يقطعه عنه»[1].

وقال أيضاً: «الرَّجاء: حادٍ يَحْدُو القلوب إلى بلاد المَحْبُوب -وهو: الله، والدَّارُ الآخِرَة-، ويُطَيِّبُ لها السَّير».

وقيل: «هو الاسْتِبْشَار بِجُودِ وفَضْلِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى والارْتِيَاح لمُطَالَعةِ كَرَمِه -سبحانه-».

وقيل: «هو الثِّقة بجُودِ الرَّبِّ تعالى»[2].

فالرَّجاء: هو تعَلُّق القَلْب بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستِبْشَار بجُودِهِ وفضْلِه، والارْتِيَاح لمُطالعَةِ كَرَمِهِ ومِنَّتِه.

وضد الرَّجاء: اليَأس، الَّذِي هو تذَكُّر فَوات رحمة الله، وقطع القَلْب عن الْتِمَاسِهَا، وهو معصية.

قال يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبنائه: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

* * *

---

(١) الروح، لابن القيم، (ص ٢٤٦)، بتصرف.

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/٣٦-٣٧).

الفرق بين الرَّجاء والتَّمني

لا بُدَّ مِن التَّفريقِ بَيْنَ الرَّجاء والتَّمني؛ لأنَّ كثيراً مِن النَّاس يَظُنُّ أنَّه راجٍ رحْمَةَ ربِّه، وهو في الحقيقة لا يَمْلِكُ إلَّا مُجرَّد أمانيّ؛ ليْسَتْ برجاءٍ شرعاً.

والفرق بينهما: أنَّ التَّمني يكون مع الكسَل، فلا يسلك صاحِبُه طريق الجدِّ والاجتهاد

وأمَّا الرَّاجي: فهو الَّذي يرجو الخير مع بَذْل الأسْباب.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّمني مَذْموم، وأمَّا الرَّجاء فمحمود؛ لأنَّ التَّمني يُفْضِي بصاحبه إلى الكسَل، بخلاف الرَّجاء، فإنَّه تعليق القلب بمحبوبٍ يحصل حالاً».

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرَّجاء يكُون على أصل، والتَّمني لا يكون على أصل»، فالعبد إذا اجتهد في الطَّاعات يقول: «أرجو أن يقبل الله مني هَذَا اليسير، ويتم هَذَا التَّقْصير ويعفو»، وأحسَنَ الظَّن: فهَذَا رجاء، وأمَّا إذا غفل، وترَكَ الطَّاعة، وارْتكَبَ المعَاصِي، ولم يبالِ بوَعْد الله ولا وعيده، ثُم أخذ يقول: «أرجو منه الجنَّة، والنَّجاة مِن النَّار»: فهَذِه أُمْنِيَّةٌ لا طائِلَ تحتها، سمَّاها: رجاءً وحُسْنَ ظنٍّ؛ وذلك خطأ وضلَال»[1].

وقد بيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ رجاء المؤمنِينَ مَصْحُوبٌ بعمَل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فآمنُوا أولاً، ثُم هاجَرُوا، ثُم جاهَدُوا في سبيل الله، وبعد هَذِه الأعمال الصَّالحة الكبيرة العَظِيمَة؛ بيَّنَ أنهم يرْجُونَ رحمة الله الغفُور الرَّحِيم.

وقال تعالى في ذَمِّ التَّمني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءٗا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

---

(١) فيض القدير، للمناوي، (٥/ ٦٨).

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الإيمان ليس بالتَّحلِّي، ولا بالتَّمنِّي، إنَّما الإيمانُ: ما وقَرَ في القَلْبِ، وصدَّقَهُ العمَلُ»[1].

وقال الحسن -أيضاً-: «إنَّ قَوْمَاً أَلْهَتْهُمْ أَمَانِيُّ الْمَغْفِرَةِ، حَتَّى خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ لَهُمْ حَسَنَةٌ، يَقُولُ أحدُهم: «إِنِّي لَحَسَنُ الظَّنِّ بِرَبِّي»، وَكَذَبَ، لَوْ أَحْسَنَ الظَّنَّ بِرَبِّهِ لَأَحْسَنَ الْعَمَلَ»[2].

وقد عَلِمَ أربابُ القلوب: أنَّ الدُّنيا مَزْرعَةُ الآخِرَة، وأنَّ القَلْبَ كالأرض.

فالأرض: لا بُدَّ لها مِن بذر، وكذلك: لا بُدَّ للقلب مِن طاعات، والأرض: لا بُدَّ لها مِن تعَهُد، وسقي بالماء، وحفر أنهار، وسَوْق المَاء إليها، وكذلك القلب: لا بُدَّ له مِن تعَهُد، وأنْ يُسْقَى بماء الطَّاعة والعِبَادة، والأرض: تحتَاج -حتَّى تُنبِت الزَّرع- إلى صِيَانته عن الأشياء الضَّارَّة؛ فترى المُزَارع يتقي الدَّغَل، فينتزعه مِن بَيْنَ زَرْعِه، ويُنَقِّيها مِن الحشائش الضَّارَّة؛ حتَّى لا تستهلك غذاء التُّربة، وتُؤذِي زَرْعه، وكذلك المُؤمن يُنَقِّي قلبه مِن أيِّ شُبهة، وشَهْوة؛ حتَّى لا تُفْسِدَ عليه زُروع الطَّاعة الَّتِي زرعَها، وسقَاها بماء العُبودِيَّة.

وقلَّ أنْ ينفع إيمانٌ مع خُبْث القَلْب، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

وينبغي أنْ يُقَاس رَجاء العبدِ برجاء صاحِب الزَّرع، فكُلُّ مَن طلب أرضاً طيِّبة، وألْقَى فيها بذراً جيِّداً، ثُم سق إليها الماء في أوقات الحاجَة، وتعاهَدَها بالرِّعاية، ونقَّى الأرض مِن الشَّوك والحَشِيش وما يُفْسِد الزَّرع، ثم جلس ينتظر فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يدفع الصَّواعق والآفات إلَى أنْ يتِمَّ الزَّرع ويبلغ؛ فانتظار هَذَا يُسَمَّى رجاءً.

فإنْ بَذَر في أرض سبخة صلبة؛ فهَذَا أحمق.

وإنْ بَذَرَ في أرضٍ طيِّبة، ولكن لا يَصِلُها الماء، وقال: أَنْتَظِر المطَر!؛ فانتِظَارُ هَذَا تمنٍّ، وليس رجاءً.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنف (٣٠٣٥١)، واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥)، وصححه ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود، (٢/ ٣٤٦).

(٢) الوجل والتوثق بالعمل، لابن أبي الدنيا (ص ٢٨).

فاسمُ الرَّجاء: يصدُق على انتِظارِ محبُوبٍ تمهَّدَتْ أسبَابُه الدَّاخلة تحت اختِيار العبد وإرَادَتِه، ولم يبق إلا ما ليس في اختِيَارِ وإرَادَةِ العَبْد.

وهكَذَا الإنسَانُ المؤمِن: يبذل مِن الطَّاعات والعِبَادات، وينتَظِر فَضْلَ اللهِ أنْ يُثَبِّته، وأنْ لا يزيغه حتَّى المَمات، وأنْ لا يضلَّهُ حتَّى يلقاهُ وهو راضٍ عنه.

وقد ذمَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أصحاب الأماني مِن الأُمَم السَّابقة، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]

وقال تعالى على لسان الكافر صاحب الجنَّة: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦]، وأنَّى له الخير عند ربِّه، وليس له شيءٌ مِن العمَل الصَّالح؛ فهو صاحب أمَانٍ كاذِبَة.

فعلَيْنا الحذَر مِن الأمَاني الكاذِبَة، ولنَعْمَلْ بجدٍّ واجتهاد، مع موافقة السُّنة، ثُم نرجو الله بعد ذلك أنْ يرزقنا مِن خَيْره وفضله في الدُّنيا والآخِرَة.

* * *

عوامل تحقيق الرَّجاء

إنَّ تحقيق الرَّجاء في قلب المُؤمن لا بُدَّ له مِن عوامِل تُساعِدُه علىَ ذلك.

وقد ذكَر العُلَماء أربعَة عوامِل للوصُول إلى تحقِيق الرَّجاء، وهي:

- **ذكر سوابق فضل الله على العبد:**

فيتذكَّر العبد ويَسْتحْضِر: أنَّ اللهَ مَنَّ عليه بفضائل سابقة، عندما خلقَهُ، ووهبَهُ السَّمعَ والبصَر، وهيَّأ له الأرض للسُّكنَى، وأنزل له الكُتب، وأرسلَ له الرُّسُل، وهيَّأه لِدُخُول هَذَا الدِّين العَظِيم.

- **ذكر ما وَعَد الله من جزيل ثوابه، وعظيم كرمه وجوده:**

وذلِكَ بدُونِ أنْ يَكُونَ العبد مُسْتَحِقاً هَذَا الثَّواب الجزيل، فإنَّ الله يُكافِئ العبد بأكثر مِمَّا يستحقه، ويَهَبه ويَمْنَحه رُغْمَ قلَّة عبادة العبد وطاعته؛ فمتَى ما تذكَّر العبد هَذَا؛ طَمع في ثَواب الله وكرَمِه، ورَجا أنْ يكُونَ مِمَّن يُمنح هَذَا الكرَم والثَّواب.

- **تذكُّر نعم الله في الحال:**

وأنَّه ما زالَ يُنْعم علينا بأنواع النِّعَم والألْطَاف، في الدِّين والدُّنيا، وفي أبْدَانِنا، وأسْمَاعِنا، وأبْصَارنا، ويرزُقنا الأمْوَال، والأوْلَاد، والزَّوجات، فإنَّ هَذِه النعم الحالية الَّتي يرزقها الله للإنْسَان تَحُثّه على رجائه، والرَّغبة فيه.

- **ذكر سعة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:**

وأنَّ رحمته سبقَتْ غضَبه، وأنَّه هو: الرَّحمن، الرَّحيم، الغَنِي، الكريم، الرؤوفُ بعباده المُؤمنِين؛ ولذلك فإنَّ تحقيق الرَّجاء يقوم على معرفة أسماء الله وصفاته.

وصحَّة رجاء العبد لها علامة؛ فقد سُئِل أحمد بن عاصم الأنطاكي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما علامة الرَّجاء في العبد؟

قال: «أنْ يكون إذا أحاط به الإحسانُ؛ أُلْهِم الشُّكر، راجِياً لِتَمام النِّعمة مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه في الدُّنيا، وتَمام عَفْوه عنه في الآخِرَة»[1].

***

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، (٧١/ ٢٢٤).

ثمرات الرَّجاء

للرَّجاء ثَمَراتٌ كثيرة، وفوائدُ عظيمة، ومن تلك الثَّمَرات:

- **الدخول في العبادات، والمواظبة عليها:**

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف أنواع المُنِيبِين إلى الله: «ومنهم المُنِيب إليه بالدُّخول في أنواع العِبَادات والقُربات، فهو ساعٍ فيها بجهده، وقد حُبِّب إليه فِعْل الطَّاعات وأنواع القربات، وهَذه الإنابة مَصْدَرها الرَّجاء، ومُطالَعَة الوَعْد والثَّواب، ومحبَّة الكَرَامة من الله»[1].

- **التلذذ بالعبادة:**

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّجاء حادٍ يَحْدُو به -أي: بالراجي- في سيره إلى الله، ويطيِّب له المَسِير، ويحثُّه عليه، ويبعثه على مُلازَمته، فلولا الرَّجاء لمَا سار أحَد؛ فإنَّ الخوف وحْدَهُ لا يُحَرِّك العبد، وإنَّما يُحَرِّكُه الحبُّ، ويُزْعِجُه الخوف، ويَحْدُوه الرَّجاء»[2].

- **إظهار العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:**

فبالرَّجاء تظهر العبودية مِن قِبَل العبد، والفاقة والحاجة للرَّب، وأنَّه لا يستغني عن فَضْله وإحْسَانِه طَرْفَة عَيْن.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «طمَعُ العبدِ في ربِّه ورجاؤه له؛ يُوجِب عبوديَّته له، وإعراض قلبه عن الطَّلب مِن الله والرَّجاء له؛ يُوجِبُ انصِراف قلبه عن العُبُودِيَّة لله»[3].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (ص٢٧٢).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم، (٢/ ٥٠).

(٣) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، (٥/ ١٨١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا استِسلَام العبد لربِّه، واستِسلَامه بانطِرَاحه بين يدَيْه، ورِضَاه بمَواقع حُكْمِه فيه: فما ذاك إلَّا رجاءً مِنه أنْ يرحمه، ويُقِيله عثرته، ويَعْفُو عنه، ويَقْبل حسَنته مع عيُوب أعمَاله وآفاتها، ويتَجَاوَز عن سيِّئاته، فقُوَّة رجائه أوْجبَتْ له هَذَا الاستِسلَام، والانْقِياد، والانْطِرَاح بالباب، ولا يتصوَّر هَذَا بدون الرَّجاء ألْبتَّة، فالرَّجاء: حياة الطَّلب، والإرادة: روحها»[1].

- **تحقيق عبادة الدُّعاء:**

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدُّعاء مَبْنِيٌّ عليه -أي: على الرَّجاء-؛ فإنَّ الدَّاعِيَ ما لم يَطْمَع في سُؤْلِه ومَطْلوبه؛ لم تتحرَّك نفسه لطلَبِه؛ إذْ طلبُ ما لا طمعَ فيه ممتنعٌ»[2].

- **النجاة من غضب الله:**

وهَذِه الثَّمرة مَبْنِيَّة علَى الثَّمرة السَّابقة؛ فإنَّ الله يُحِبُّ مِن عباده أنْ يَسْألُوه، ويرجوه، ويُلِحُّوا عليه؛ لأنَّه جوادٌ كَرِيم، أجْوَدُ مَن سُئِل، وأوْسَعُ مَن أعْطَى، وأحبُّ شيءٍ إلَى الجَواد الكريم: أنْ يَسْألَهُ النَّاس؛ لِيُعْطِيَهُم، ومَن لَمْ يَسْأل الله؛ يَغْضَبْ عَلَيْه، كما ورد عن أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ؛ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[3]؛ فهَذِه فائدةٌ مِن فوائد الرَّجاء، وهي: النَّجاةُ مِن غضَبِ الله تعَالَى.

- **التعرف على أسماء الله وصفاته:**

لأنَّ الرَّاجي متعلِّق بأسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو متعلِّق باسم الكريم؛ يرجو منه الكرَم، ومتعلِّق باسم الرَّحِيم؛ يرجو منه الرَّحمة، ومتعلِّق باسم التَّوَّاب؛ يرجو منه التَّوبة، ومتعلِّق باسم الغفور؛ يرجو منه المَغْفِرة.

وهَذَا يُوجِبُ له مَزِيد العِلْم بأسماء الله وصفاته، مِمَّا قد يدْفَعُه إلى التَّعمُّق في دراستِهَا وفَهْمِها.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥)

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٣)

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي

- **حصول المقصود:**

فإنَّ العبدَ إذا تعلَّق قلبه بربِّه؛ أعطاهُ ما رجَاه، وحصَلَ له المطْلُوب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكُلَّما كان العبْدُ حسَن الظَّنِّ بالله، حسَن الرَّجاء له، صادِق التَّوَكُّل عليه: فإنَّ الله لا يُخيِّب أمَلَهُ فيه ألْبتَّة، فإنَّه -سبحانه- لا يُخيِّب أمَلَ آمِلٍ، ولا يُضيعُ عمَلَ عامِلٍ»[1].

وإذا حصَل المقصود للعبد؛ زاد قبله على الله، وتعَلُّقه به، وتوكُّله عليه، ودعاؤه وسُؤاله؛ ليزداد خيراً وإحْسَاناً.

وخير ما يرجوه العبد، ويقصده مِن ربِّه: نَيْل رضَاه، ودخُول الجنَّة، ورؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها.

فاحْرِصْ على أنْ ترجو ربَّكَ في هَذِه الأمور؛ لتنَالَ مقْصُودَك.

- **محبة الرب -سبحانه-:**

وهي نَتِيجة لسَابِقَتِهَا؛ فإنَّ العبد متَى ما حصَل له مقصوده مِن ربِّه؛ تعلَّق به وأحبَّه، وزاد رضاً عنه.

- **بعثه على الشكر:**

فإنَّ العبد متَى ما حصل له مقصوده مِن رجائه؛ كان باعِثاً له على الشُّكر؛ الَّذِي هو مِن أعلى مقَامات العبُودِيَّة.

- **دوام ذكر الله رَحِمَهُ اللَّهُ.**

لأنَّ في الرَّجاء: انتظاراً، وترقُّباً، وتوقُّعاً لفضل الله عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا يوجب مَزيد التَّعلُّق بالخَالِق، ودوَام الالْتِفَات إليه.

والإنسان له مَطالب متعدِّدة، ومقَاصِد مُتنوِّعة، فهو يَطْمَح إلَى أنْ يرزقه الله النَّجاح في دراسته، ومِن ثَمَّ يطمح إلى العمَل، ثُم يتَرقَّب الزَّوجة، ويرجو بعد ذلك الولَد، ثُم يرجو مِن الله صلاحه وهدايته... إلخ؛ فيَمْكُث طُولَ عمُرِه يَرْجُو الله، ويتعلَّق به.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧١).

المؤمن بين الخوف والرَّجاء

قال بدر الدين العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المُكلَّف لو تحقَّق ما عند الله مِن الرَّحمة: لَمَا قطع رجاءه أصلاً، ولو تحقَّق ما عنده مِن العَذَاب: لَمَا ترك الخوف أصلاً؛ فينبغي أنْ يكُون بيْنَ الخوف والرَّجاء، فلا يكُون مفرطاً في الرَّجاء؛ بحيث يَصير مِن المُرجئة القائلين: «بأنه لا يضر مع الإيمان شيء»، ولَا في الخَوْف؛ بحيث يكون مِن الخَوَارج، والمعتزلة القائلين بتخليد صاحب الكبيرة إذا مات مِن غير توبة في النَّار، بل يكون وسَطاً بينهما، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]»[1].

وهَذِه قاعدةٌ مهمَّةٌ يَجِبُ تحقيقها في قلب كل عبد مؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أنْ يدور بين الرَّجاء والخوف، ويجمع في قلبه الرَّجاء لرحمة الله، والخوف مِن عذَابه في وقتٍ واحِد، وبذلك يُصْبِحُ مؤمناً صَحِيح الإيمان.

قال أبو علي الروذباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف والرَّجاء هما كجَنَاحَي الطير، إذا استَوَيَا؛ استوى الطَّير، وتَمَّ طيَرانُه، وإذا نقص واحدٌ منهما؛ وقع منه النَّقْص، وإذا ذهبَ جميعاً؛ صار الطائر في حدِّ الموت». لذلك قيل: «لو وُزِنَ خوف المؤمن ورجَاؤه؛ لاعْتَدَلَا»[2].

والجمع بين الخوف والرَّجاء: هو طريقة القُرآن.

قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مُعْظَم آيات القُرآن العَزيز يَجْتَمِع فيها الخوف والرَّجاء»[3].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]؛ ففي آية واحِدَة يرجِّي الله عباده ببياض الوجُوه، ويُخوِّفُهم بسَوادِهَا يوم القيامة.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، (٢٣/ ٦٦-٦٧).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي، (٩٩٦).

(٣) شرح صحيح مسلم، للنووي، (١٧/ ٧٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؛ فجمَعَ بين التَّخويف بسرعة عِقابه، والتَّرغيب بمَغْفِرَته ورَحْمَته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩].

والآيات في هَذَا المعنى كثيرة، فيجتمع الخوف والرَّجاء في آيَةٍ، أو آيَتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ، أو آيات مُتتالِيَة.

والخوف مستلزم للرَّجاء، كما أنَّ الرَّجاء مُسْتَلْزِم للخَوْف عند المُؤْمِن؛ لأنَّ كلَّ خائفٍ راجٍ، وكلَّ راجٍ خائفٌ، وهَذَا حسن وقوع الرَّجاء في مواضِعَ يَحْسُن فيها وقوع الخوف، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. قال كثيرٌ مِن المفسرين: «مالكم لا تخافون لله عظمة؟»[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخَشْيَة -أبداً- مُتَضَمِّنة للرَّجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أنَّ الرَّجاء يستلزم الخوف، ولَوْلَا ذلك لكَانَ أَمْنًا، فأهل الخَوْف لله والرَّجاء له: هم أهل العِلْم الَّذِين مدَحَهُم الله»[2].

وقد ضَلَّ في هَذَا المَقَام -كما بيَّن العيني رَحِمَهُ اللَّهُ- فِرْقَتان: فرقة غلَّبَت جانب الرَّجاء، وفرقة غلَّبَت جانب الخوف، والَّذِي عليه أهل الحق، أهل السُّنة والجماعة: الجَمْع بيْنَ المَقَامَيْن

وقد يَطَّلِعُ بعض مَن يَقْرأ كتب أهل العِلْم على أقوالٍ لبعض العُلَماء يُرجِّحون فيها جانب الخوف على جانِب الرَّجاء، وبعضهم يُرجِّح جانب الرَّجاء على جانب الخَوْف، وهو تَرْجِيحٌ طَفِيفٌ نِسْبِيٌّ، وليس كما فعله المبتدعة، وهَذَان القَوْلَان لَهُما حظٌّ مِن النَّظَر، وهناك مِن العُلَماء مَن يقول بهما، وقد عَمِل بهما بَعْضُ السَّلَف.

(١) تفسير الطبري، (٢٣/ ٦٣٤)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١٨/ ٣٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، (٧/ ٢١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انقسم الصالحون عند السياق، فمنهم: من أخذه القلق، فكان يقول: «ويلٌ لي إن لم يغفرها، أنا أمضي إلى النار أو يغفر». ومنهم: من غلب عليه الرجاء، كبلال الحبشي؛ كانت زوجته تقول: «واحزناه!»، وهو يقول: «واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وحزبه»»[1].

والقول الثالث: أنه لا يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، أو العكس؛ إلا في بعض الأحوال التي سنذكرها، والطرق الثلاثة صحيحة سليمة، متقاربة في المعنى.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما أرادنا أن نجمع بين الخوف منه والرجاء؛ جعل من الأسباب ما يعيننا على ذلك، ومن تلك الأسباب: إخفاؤه عن الناس: بم تختم أعمالهم؛ ليعيشوا بين الرجاء والخوف.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة، وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجياً أعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فحجب عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء»[2].

وقد ذكر بعض العلماء لطيفة: وهي أن الكسوف فيه إشارة إلى أن على العبد أن يكون ملازماً للخوف والرجاء.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن حكمة وقوع الكسوف: ... التنبيه على سلوك طريق الخوف مع الرجاء؛ لوقوع الكسوف بالكوكب، ثم كشف ذلك عنه؛ ليكون المؤمن من ربه على خوف ورجاء»[3].

فإذا وقع الكسوف بالكوكب: كان المؤمن على خوف من ربه؛ لأن في الكسوف بيان عظمة الله وقدرته، وأنه قادر على طمس تلك الآيات، وإهلاك الأرض بمن فيها، وإطباق السماوات عليها؛ فيخافه المؤمن لأجل ذلك، ولكنه يبقى في رجاء من الله: أن يزيل ذلك الكسوف، ويعيد لنا نور الكوكب؛ فيجتمع في المؤمن في تلك اللحظة الخوف والرجاء معاً.

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/ ٧٣٥).

(٢) فتح الباري، للحافظ ابن حجر، (١١/ ٣٣٠).

(٣) المرجع السابق، (٢/ ٥٣٢)، باختصار.

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طريق السَّلامة بَيْنَ طَرِيقَيْن مخوفين مهلكين: طريق الأَمْن، وطريق اليَأس، وطريق الرَّجاء والخوف: هو العدل بينهما، فمتى فقدت الرَّجاء؛ وقعت في طَرِيق الخَوْف، ومتَى فقدت الخوف؛ وقَعْتَ في طريق الأمن، فطريق الاستقامة مُمْتَدٌّ بينهما، فإنْ مِلْتَ عنه يمنةً أو يَسْرةً؛ هلكت، فيجب أنْ تنظر إليهما جميعًا، وتركب منها طريقًا دقيقًا، وتسلكه»[1].

وقد ذكر العلماء أحوالاً يُغلَّب فيها جانب الرَّجاء علَى الخوف، وأحوالاً يغلَّب فيها جانب الخَوْف علَى الرَّجاء، ويَكُون ذلك بمثابة الدَّواء الَّذِي يعالَج به الدَّاء.

قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومتى كان الطبيب جاهلاً، أو خائنًا؛ يضع الدواء في غير موضعه، فالرجاء والخوف دواءان؛ لكن لشخصين متضادَّي العلة»[2].

وليس المقصود تغْلِيب أحد الجَانِبَيْن مُطْلقًا، كما فعل المبتدعة، وضلُّوا بسبب ذلك؛ بل تَغْلِيب يقْتَضِيه مَقام الحال الَّذِي فيه العبد.

فمِن الأحْوَال التي يُغلَّب فيها العبد جانبَ الرَّجاء على جانب الخوف:

- **حال الموت:**

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ الله تعالى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[3].

وعن واثلة بن الأسقع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ**»[4].

ففي الحَدِيثَيْن تغليبٌ لمقام الرَّجاء على مقام الخوف.

قال الكرماني: «فيه إشارة إلى ترجيح جانب الرَّجاء علَى الخوف»[5].

---

(١) فيض القدير، للمناوي، (٢/ ٧٨).

(٢) المرجع السابق، (٦/ ٣٦٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) رواه أحمد (١٦٠١٦)، وصححه محققو المسند، والألباني في صحيح الجامع (٤٣١٦).

(٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، (٢٥/ ١٠١).

وقد قيَّد العلماء هَذَا التَّغليب بحالة الموت، واستدَلُّوا بحديث جابر رَضِوَاللَّهُعَنهُ قال: سمعت النَّبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل وفاته بثلاث يقول: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله»[1].

قال النووي رَحِمَهُاللَّهُ: «فيه استحباب تنبيه المُحتضر على إحسان ظنِّه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وذكر آيات الرجاء وأحاديث العفو عنده، وتبشيره بما أعده الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للمسلمين، وذِكْر حُسْن أعمَاله عنده؛ ليحسن ظنه بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ويموت عليه، وهَذَا الأدب مُستحَبٌّ بالاتِّفاق»[2].

فإحسان الظَّن بالله: مطلوبٌ دائماً، ولكن ترجيح الرَّجاء على الخوف إنَّما هو لمن حضرَتْهُ الوفاة، وأقبَلَ على ربِّه، فهَذَا ينبغي له أنْ يغلِّب جانب الرَّجاء على جانب الخوف.

ولهَذَا كان بعض السَّلَف يأمُر بَنِيه عند الموت أنْ يقْرَؤوا عليه آيات الرَّحمة؛ حتى تخرج رُوحُه، وهو يُحْسِن الظَّن بالله، ويرجو أن يغفرَ له، ويرحمه، ويتقبله، ويستقبله بالإنْعَام.

قيل للشَّافعي قبل موته: كَيْفَ أصبحتَ يا أبا عبد الله؟ قال: «أصبحتُ مِن الدُّنيا راحِلاً، ولِكأسِ المَنِيَّةِ شارباً، ولِسُوءِ فِعَالِي مُلاقِياً، وعلىَ الله وارِداً، فلا أدري روحي إلى جنَّةٍ تَصِير؛ فأُهَنِّيها، أو إلى نار تصير؛ فأُعَزِّيها؟»، ثُم بكَى، وأنشأ يقول:

لَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا[3]

وقد يتساءل البعض: لماذَا غُلِّب جانب الرَّجاء على جانب الخوف في تلك الحالة؟

قال النَّووي رَحِمَهُاللَّهُ مجيباً عن هَذَا التساؤل: «إذا دَنَت أمَارَات الموت غَلَّب الرَّجاء أو مَحَّضه؛ لأنَّ مقصود الخوف: الانكِفَاف عن المَعَاصِي والقَبَائح، والحِرْص علىَ الإكثار مِن الطَّاعات والأعمال، وقد تعَذَّر ذلك -أو معظمه- في هَذَا الحال؛ فاستُحِبَّ إحسان الظَّن، المتضمن للافْتِقَار إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والإذعان له»[4].

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، (٢/ ١٣٨)

(٣) نظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (٥٠/ ٣٣١)

(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي، (١٧/ ٢١٠)

• **عند قنوط البعض من رحمة الله بسبب الذنوب:**

قد يقع بعض النَّاس في القُنوط مِن رحمة الله؛ بسبَبِ ذُنوبِه ومعَاصِيه، فهَذَا: ممَّن يُغلَّب في حقِّه جانب الرَّجاء، فيُذكَّر بعَفْو الله ومغفرته، وأنَّ التَّوبة تجُبُّ ما قبلها، وغير ذلك.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّجاء والخوف في قَرَن؛ أي: إنْ لم يغلب القنوط، وإلَّا فالرَّجاءُ أَوْلَى»(١).

ومِن الأحوال التي يُغَلَّب فيها جنب الخوف على جانب الرَّجاء.

• **عند راحة النَّاس ودَعَتِهم وتنعمهم:**

قال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: يستحب للواعظ أنْ يجْمَعَ في موعظته بيْنَ الخوف والرَّجاء؛ لِئَلَّا يقنط أحد، ولا يتَّكِل. قالوا: وليَكُن التَّخْوِيف أكثر؛ لأنَّ النُّفوس إليه أحْوَج؛ لمِيْلِهَا إلى الرَّجاء، والرَّاحة، والاتِّكال، وإهمال بعض الأعمال»(٢).

• **عند عمل المعصية:**

فإذَا عَمِلَ الإنسان معصيةً؛ فعليه أنْ يتذكَّر غضب الله، ونِقْمَتَه، وعقابه، وأنْ يتذكَّر النَّار، وزبانيتها، وعذابها؛ ليُسَارع إلى التَّوبة إلى الله، ويَبْتَعِد عن سُوءِ صَنِيعِه وعمَلِه.

ومِن العجَب: أنَّ أقواماً في زمانا يعْمَلُون بالمعصية، ويُرجِّحُون جانب الرَّجاء؛ حُمْقاً منهم، وجهلاً بالله وعظمته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد تعلَّق -ضَرْبٌ مِن النَّاس- بنصوص من الرَّجاء، واتَّكَل عليها، وتعلَّق بها بكِلْتَا يديه، وإذ عوتب على الخطَايا والانْهِمَاك فيه؛ سرَدَ لك ما يحفظه مِن سَعَةِ رحمة الله، ومغفرته، ونصوص الرَّجاء.

وللجُهَّال مِن هَذَا الضَّرب مِن النَّاس في هَذَا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

وَكَثِّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الخَطَايَا ... إِذَا كَانَ القُدُومُ عَلَى كَرِيمِ

---

(١) فيض القدير، للمناوي، (٢/ ٤٤٦)

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي، (١٧/ ٧٣)

وقول الآخر: التَّنَزُّه مِن الذُّنوب جهل بِسَعةِ عفو الله.

وقال الآخر: ترك الذُّنوب جراءةٌ علَى مغفرة الله، واستصغار.

وقال محمد بن حزم: رأيتُ بعض هؤلاء مَن يقول في دعائه: «اللهم إنِّي أعوذُ بك مِن العِصْمَة».

ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بعض أحوال المغرورين، ثم قال: «وهل هذا إلَّا مَن خِدَع النُّفوس، وغرور الأماني؟ ... ، فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعَبْد!!.

... بل حُسْن الظَّن ينفع مَن تابَ ونَدِم، وأقلع، وأبدل السَّيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمُرِه بالخير والطَّاعة، ثُم أحْسَنَ الظَّن، فهَذَا حسن ظن، والأوَّل غرور، والله المستعان»[1].

- **عند الأمن من مكر الله وعذابه:**

إنَّ المسلم المواظب علَى طاعة الله، والمُدَاوِم عن ما يُحِبُّه؛ قد يقع في شيءٍ مِن الأمن مِن مَكْر الله وعذابه؛ بسبب أعماله الصَّالحة، ولِمَ يرى مِن نفسه مِن الدَّوام على الخير والطَّاعة، فإذا بدأ القلب يأمن مِن مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فعلى الإنسان أنْ يُغَلِّب جانب الخوف، وأنْ يتذكَّر عقوبة الله، واستدراجه للعبد، وكيف أنَّ بعض النَّاس قد يفعل الأعمال الصَّالحة، ثُم يختم له بالسُّوء -والعياذ بالله-، فَيُحَاول أنْ يَجْلُوَ عن قلبه هَذَا الصَّدَأ بتَغْلِيب جانب الخوف علَى جانب الرَّجاء؛ حتَّى يذهب ما به.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّجاء والخوف في قَرَن؛ أي: إنْ لم يغلب القنوط، وإلَّا فالرَّجاء أوْلَى، ولا أمِن من المكر، وإلَّا فالخوف أوْلَى»[2].

***

(١) الجواب الكافي، لابن القيم، (ص١٢-١٥)، بتصرف واختصار.

(٢) فيض القدير، (٢/ ٤٤٦).

أنواع الرّجاء

علَى ضوء ما سبق نَسْتَطِيع أنْ نَقُول: إنَّ الرَّجاء ثلاثة أنواع، نوعان مَحْمُودَان، ونَوْعٌ مَذْمُوم.

أما النوعان المحمودان:

الأول: رجاء رجل عمَل بطاعة الله، على نور من الله؛ فهَذَا يرجو ثوَاب الله.

والثاني: رجاء رجل أذْنَب ذنوبًا، ثُم تاب منها، فيرجو مغفرة الله، ومَحْو الذُّنوب، والتَّجاوُز عنها وسترها.

وأما النوع المذموم:

فرجاء رجل مُتَمَادٍ في التَّفريط، والمعاصي، والسَّيئات، والخطَايا، ويرجو رحمة ربِّه، والمغفرة بلا عمَل!! فهَذَا غرورٌ، وتمَنٍّ، ورجاءٌ كاذبٌ.

قال أبو عثمان الجيري رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِن علامة السَّعادة: أنْ تُطِيع وتخاف أنْ لا تقبل، ومِن علامة الشَّقاء: أنْ تَعْصِيَ وترجو أن تنجو»[1].

وهنا يطرح سؤال نفسه: يا تُرى! أيُّ الرَّجاءَيْن لَمَحْمُودَيْن أعظَم وأفضل؟!

وللإجابة نقول: اختلَفَ علماء القُلوب في أيهما أفضل وأعظم؛ هل رجاء الثَّواب والأجر مِن المُحْسِن؟ أمْ رَجاء المَغْفِرَة مِن الذَّنب المُسِيء؟

(١) فتح الباري، لابن حجر، (١١/ ٣٠١)

فرَجَّحَت طائفةٌ رجاء المُحْسِن؛ لِقُوَّة أسباب الرَّجاء معه مِن الطَّاعات، فأسبابه قويَّة، ورجاؤه حقٌّ.

والطَّائفة الأخرى رجَّحَت رجاء المذْنِب؛ لأنَّ رجاءه فيه انكِسَار، ومَسْكَنة مقرونة بذلَّة رؤية الذَّنب، واستِحْضَار المَعْصِيَة، فرجَاؤه خالِصٌ مِن العجب والاغْتِرَار بالعمَل.

وكِلَا القَوْلَيْن هما حظٌّ مِن النَّظَر.

والمُسْلِمُ الحق يجْمَع بين الرَّجاءين، فمتَى ما أنعَم الله عليه بأنْ يعمل الأعمال الصَّالحة؛ رجى ثوَابه وجنَّته، ومتَى ما حصلت منه معصية -وكل بني آدم خطَّاء-؛ فإنَّه يرجو عفو ربِّه، ومغفرته لِذُنوبه.

***

درجات الرَّجاء

لرَّجاء على درجَات، درجةٌ أرفع مِن درجَة، ومرَاتِب بعضها فوق بعض:

• الدرجة الأولى:

رجاءٌ يَبْعَث العامِل على الاجتهاد في العِبَادة، ويُوَلِّد عنده اللَّذَّة بِه، ولو كانت شاقَّة أو صعبة، ومَن عرف الأجر الَّذِي سينَالُه؛ هانَ عليه ما يَبْذُلُ فيه، ومَن رجَا الأرباح لعظِيمَة في سفَرِه؛ هانَتْ عليه مشقَّة السَّفر، ألَا ترَى: أنَّ التُّجار يُكَابِدون، ويَسْهَرون، ويُسَافِرُون، ويَغْتَرِبُون؛ رجاء الرِّبح الَّذِي يتوَقَّعونه، فكذلك المُحِب الصَّادق، الَّذِي يسْعَى في مَرْضَاة الرَّب: تَهُون عليه مشقَّة صلاة الفجر، ومشقَّة الوضوء في البَرْد، ومشقَّة الجِهاد، ومشقَّة الحج، والعمرة، ومشَقَّة طلب العِلْم، ومشَقَّة انتِصَاب الجسم في لليل، ومشَقَّة جوع الصِّيام، بل تَنْقَلِب عنده إلى لذَّة!!

فالدَّرجَات العمَلِيَّة في التَّعَبُّد لله: مشقة، ومِن ثَم: لذَّة.

يقول أحد العلماء: «كابَدْتُ قِيام الليل عشرين سنة، وتَنَعَّمت به عشرين سَنَةٍ أُخْرَى»[1].

فالمرء لا يَصِل إلى لذَّة العبادة إلَّا بعد أنْ يَذُوق مشَقَّتها.

فإذا قوي تعَلُّق الرَّجاء بالعِوَض؛ سمَحَت الطِّباع بتَرْك العادات، وترك الرَّاحة، وإذا عرَفت النَّفس ثواب الصَّدقة؛ سمحَتْ بالتَّخَلِّي عن المال، وإذا عرَفت ثواب الصِّيام؛ سمحت بالتَّخلِّي عن الأكل، والشُّرب، والجِمَاع، وإذا عرفت ثواب الرِّضا بالقضاءِ والقدَر؛ صبَرَت على الألَم، حتَّى تصبح المرارة عندها حلاوة، ويصبح العَلْقَم عسَلاً،

(١) «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف»، لابن رجب، (ص٤٣).

وهكذا....

والإنسان مَفْطُورٌ علَى أنْ لا يترك محبوباً إلَّا لمحبوبٍ أعْظَم منه، والمَحْبُوب الأعظم هنا هو: رضا الرَّب، والجنَّة، والحسَنَات، والأجْر.

- **الدرجة الثانية:**

المجاهدون لأنفسهم بتَرْك مَألُوفَاتِهِ، واستِبْدَالها بمألوفاتٍ هي خير منها، فرَجَاؤهم أنْ يبلغوا مَقْصُودَهُم بالهمَّة، وهَذَا يلزم له العِلْم، وهو الوقُوف علَى الأحكام الدِّينيَّة؛ لأنَّ رجاءهم مُتعلِّقٌ بحصول ذلك لهم.

- **الدرجة الثالثة:**

رجاء أرْبَاب القلوب لقَاء الخالق، والاشْتِيَاق إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهَذَا الَّذِي يزهِّد الإنسان في الدُّنيا تماماً، وهو أعلى الأنواع: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

هَذَا الرَّجاء -رجاء اللُّقْيَا- هو مَحْض الإيمان وزبْدَته، وإليه تشخص أبصار العابدين المجتهدين، وهو الَّذِي يُسَلِّيهم؛ ولذلك ضربَ الله لهم أجلاً تسكن إليه نفوسهم.

وأصحاب هَذِهِ الدَّرجة نفوسهم مُضْطَرِبة حتَّى يلقوا ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لأنَّهم في اشْتِيَاقٍ إليه، ويُرِيدُونَ لِقَاءَه، أعدُّوا العُدَّةَ واجتهدوا، ولِسَان حالهم يقول: «متى تنتهي الدُّنيا حتى نلقى الله»؟! ولقاء الرَّب تَبَارَكَ وَتَعَالَى عندهم أعْظَم مِن كلِّ نعيم الجنَّة.

فهذه قصَّة عمير بن الحُمَام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّذِي اشتاق لِلِقَاء الله، ورَأى أنَّ وقت أكل التَّمر: وقتٌ طويلٌ لِلِقَائه، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة بدر، قال: دنَا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرضهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ»**، قال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: **«نَعَمْ»**، قال: بَخٍ بَخٍ. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟»**،

قال: لا والله يا رسول الله إلَّا رجاءَةَ أنْ أكون مِن أهلها. قال: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فأخرج تمرات مِن قرنه، فجعل يأكل منهن، ثُم قال: لئن أنا حَيِيت حتى آكل تمراتي هَذِه؛ إنها لحياةٌ طويلة. فرَمَى بما كان معه مِن التَّمر، ثُم قاتَل حتَّى قُتِل[1].

فلمَّا عَلِمَ الله شَوْق هَذِه الطَّائفة مِن عباده -وهُم النُّدرة والقِلَّة-، وأنَّ نفوسهم تضطَرِب حتَّى تَلْقَاه؛ ضرب لهم موعِداً تسكن إليه نفوسهم، وتعمل حتَّى تقدم إلى الله -سبحانه-، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

وشتَّان، بَيْن كثيرٍ مِن النَّاس الآن، وبَيْنَ السَّلَف في هَذِه الأمور، فنَجد أنَّ النَّاس لا يَلْتَفِتُون إلى هَذِه المعاني في خِضَمِّ الحياةِ والعمَل، ولا يَحُوم طائرُ فِكْرِهِم حولها، مع أنَّها كانت قائمة في نفُوس الصَّحابة، ومذكورة في الكِتَاب والسُّنة، فنسأل الله أنْ يَجْعلَنا مِمَّن ترْقَى به هِمَّتُه؛ حتى نترقَّى في درجات الرَّجاء والعِبَادة.

***

(١) رواه مسلم، (١٩٠١)

الرَّجاء والذنوب

إنَّ الذَّنب مهما عَظُم، أو كَبُر؛ فإنَّ باب الرَّجاء مفتوحٌ لصَاحبه إذَا تَاب، ليس له أنْ يَقْنُط، أو يَظُنّ نفسه هالِكاً لَا محَالة؛ بل عليه أنْ يَشْرَعَ في التَّوبة مِن جُرْمِه، وأنْ يرجو رحمة ربِّه.

وقد فتح اللهُ عَزَّوَجَلَّ باب الرَّجاء لعِبَاده في مغفرة أيِّ ذنب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والخِطَاب هنا ليس لِمَنْ أذنب ذنباً صغيراً، إنَّما لمن أسْرف على نفْسِه بالمعَاصي والذُّنوب، فبَابُ الرَّحمة والمَغْفِرَة مَفتُوح لِمَن تاب وأناب.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتأويل الكَلام -أي: تفسير الآية-: وإذَا جاءك يا محمد القَوْم الَّذِين يصدِّقون بتَنْزِيلنَا، وأدِلَّتنا، وحُجَجِنا؛ فيُقِرُّون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذُنوبهم الَّتي سلفت منهم بيْني وبينهم: هل لهم مِنها توبة؟ فلا تُؤيِسْهم منها، وقل لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، أَمَنَةُ الله لكُم مِن ذنوبكم أنْ يُعاقِبكُم عليها -أي: عليكم الأمان لن يعاقبكم- بعد توْبَتِكم منها، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، يقول: قضَى ربُّكُم الرَّحمة بخلقه»[1].

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢-١٠٣].

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، (١١/ ٣٩٢).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعمل الصَّالح الَّذِي خلطُوه بالعمل السَّيئ: اعْتِرافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السَّيئ: هو تخلُّفهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين خرج غازياً، وتركُهم الجهاد مع المسلمين ... ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾، و﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ مِن الله: واجب، وإنَّما معناه: سيتوب الله عليهم»[1].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[2]، فالله عَزَّ وَجَلَّ يفتح باب الرَّجاء العَظيم لعِبَاده أجمعين.

وقال عبد الله بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: «أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟»، فَيَقُولُ: «نَعَمْ، أَيْ رَبِّ»، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ، وَالْمُنَافِقُونَ؛ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»[3].

كل هَذِه المَغْفِرَة والرَّحمة - أخي القارئ - إذا تُبْتَ مِن ذنوبك توبة حقيقيَّة، وانكسَرْتَ أمام الله، وتضَرَّعتَ إليه، وتذلَّلت له، وبذَلْتَ الأسباب، وامْتنعت عن الذُّنوب، واستقبلت حياة جديدة ندمت فيها على ما فات، وعزَمْت على أنْ لا تعُود إلى ذلك مُسْتَقْبلاً.

فاعْمَل واجْتَهِد، ولا تُضَيِّع الفرصةَ مِن بين يديك، واعلم أنَّ الموت إذا خطف رُوحَك؛ ستندم على فوات هَذِه الفُرصَة، وتتمنَّى العودة لاسْتِغْلَالها، ولكن هيْهَاتَ هيْهَات، فقد فاتَ أوانُ العمل، وحان وقتُ الحِسَاب، والله المستعان.

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٤٦-٤٤٧)، باختصار.

(٢) رواه الترمذي، (٣٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) متفق عليه: البخاري، (٢٣٠٩)، واللفظ له، ومسلم، (٢٧٦٨).

التداوي بالرّجاء

الرَّجاء دواء يحتاج له رجلان:

الأول: رَجُل غلَبَ عليه اليَأس حتَّى ترك العبادة، وجزَم أنَّه ليس وراءها فائدة.

والثاني: رَجُل غلب عليه الخَوْف حتَّى أضرَّ بنَفْسِه وأهْلِه، فتعدَّى خوفُه الحدَّ الشَّرعي المَطْلُوب، فلا بدَّ أن يُذَكَّر برجاء الله حتى يتوازن.

أمَّا العاصي المَغْرور، المُتمَنِّي علَى الله، مع الإعراض عن العبادة؛ فلَا ينفع معه -أبداً- دواء الرَّجاء، ولو استعملت معه الرَّجاء؛ لَزِدْته ضلَالاً، فلا ينفع له إلَّا دواء الخوف، فيُوعَظ بسِيَاط الخوف، ويقرَّع بالمنَايا، وهَذَا أمرٌ مهمٌّ ينبغي أنْ يتنبَّه له الوُعَّاظ.

وقد حصَل مِن بعض دعاة السُّوء أن دخَلَ على أقوام مِن أصحاب كبائر الذُّنوب، وحدَّثهم عن الرَّجاء، وبشَّرَهُم بالخَيْر؛ وهَذَا مِن الجَهْل العَظِيم.

وكَمَا أنَّ الواعظ لا ينبغي له أنْ يُرَجِّي النَّاس كثيراً، فكذلك لا ينبغي له أنْ يُخَوِّفَهُم كثيراً حتى يصيبهم القُنُوط، بل ينظر إلى الوَضْع والمَصْلحَة.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا يجب أنْ يكُون واعظ النَّاس مُتلَطِّفاً، ناظراً إلى مواضع العِلَل، مُعَالِجاً كل علَّة بما يليق بها»[1].

وروي عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنَّ الفَقِيه؛ حق الفَقِيه: مَن لم يُقَنِّط النَّاس مِن رحمة الله، ولم يُرَخِّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمِّنهم عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره»[2].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، (ص٢٩٧).

(٢) سنن الدارمي، (٢٩٧).

وقال سفيان بن عُيَيْنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن ذهَبَ يُقَنِّط النَّاس مِن رحمة الله، أو يُقَنِّط نفسه؛ فقد أخطأ»[1].

وعن زيد بن أسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنَّ رجُلاً كان في الأُمَم الماضية يجتهد في العبادة، وشَدَّد على نفسه، ويُقَنِّط النَّاس مِن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثُمَّ مات، فقال: «أيْ ربِّ، ما لي عندك؟»، قال: «النَّار». قال: «يا ربِّ!، وأين عبادتي واجتهادي؟!»، فقيل له: «إنك كنتَ تُقَنِّط النَّاسَ مِن رَحْمَتِي في الدُّنيا، وأنا أُقَنِّطك اليوم مِن رَحْمَتِي»[2].

فلا بُدَّ أنْ يكُون هناك توَازُن بحسب حال النَّاس، فإذَا كانوا ميَّالِينَ إلى التَّفريط، والمعاصي، والتَّساهُل؛ غلَّب التَّخويف، وإذا كان عندهم خَوْفٌ زَائدٌ، ويَأْسٌ مِن رحمة الله؛ غلَّب الرَّجاء، وهكذا....

* * *

(١) تفسير ابن أبي حاتم، (٩/ ٦٥).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، (٣/ ٢٢٢)، واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان، (١٠٢١).

مسائل في الرَّجاء

الرَّجاء متعلق بالأعمال الحاضرة والماضية:

إنَّ المؤمن إذا عمِلَ العمَلَ؛ رجَا مِن الله أنْ يَقْبله، ويُثيبَه عليه، وبعض النَّاس إنَّمَا يُقْصِر رجاءه على ما يعمله في الوقت الحاضر؛ فإذا عمل العمَل نَسِيَه، وليس هَذَا مِن شأن عباد الله المؤمنين؛ فإنَّ عليهم أن يرجُوا الخير لأعمالِهم السَّابقة، كما أنَّ عليهم أنْ يخشوا مِن ذنوبهم الماضِية.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتعلُّق الرَّجاء والخوف: بالحاضر والماضي؛ لأنَّ عاقِبَته المطلوبة والمكروهة: مستقبلة، فهو يرجو أنْ يَكُون الله تقبَّل عمله؛ فيُثِيبه عليه، فيرجوه في المُسْتَقْبَل، ويخاف أنْ لا يَكُون تقبله؛ فيحرم ثوابه»[1].

الرَّجاء في الأمور الدنيوية:

الرَّجاء ليس مقصوراً على أمور الآخِرَة فحسب، بل هو حاصِلٌ في الأمور الدُّنْيويَّة؛ فالإنسان قد يرجو مِن الله مالاً، أو ولداً، أو زواجاً، أو وظيفةً، أو زوال مَرَض، أو العُثور على مَفْقُود، كما جرَى مِن نَبِيِّ الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]؛ فأمرهم بالرَّجاء، وعدم اليأس مِن وجود يوسف وأخيه؛ وهو أمرٌ دُنْيوي.

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حِينَ طمع يعقوب في يوسف، قال لِبَنِيه: يا بَنِيَّ؛ اذهبوا للموضع

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٧/ ٤٥٢-٤٥٣).

الَّذِي جِئْتُم منه، وخلفتم أخويكم به ... ولا تقنطوا مِن أنْ يروِّح الله عنَّا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفرج مِن عنده؛ فيُرِينيهما، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته، ويقطع رجاءه منه، ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[1].

ورجاء الله في الأمور الدُّنيويَّة أمرٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأنَّ المؤمن متَى ما نقص رجاؤه بالله في أمر الدُّنيا؛ وقع في الشِّرك الخفِي.

«فالإنْسانُ متَى ما كَمُلَ رجاؤه؛ تعلَّق قلبه بالله وحْدَه، ولم يتعلَّق بغيره مِن المخلوقين، ومتَى ما نقص رجاؤه؛ تعلَّق بالمَخْلُوقِين، ورجَى منهم أموره الدُّنيوية، فهَذا هو الشِّرك الخفِي الَّذِي لا يَكَاد أحدٌ أنْ يَسْلَم منه إلَّا مَن عصمَهُ الله»[2].

الرَّجاء مستمر بعد الموت:

إذا وصَلَ العَبْد إلى ربِّه، ولَقِيَه؛ ازْدَادَ رجاؤه إذا كان مُحْسِنًا؛ لأنَّ الأجير إذا جاء وقت تسلم الأُجْرَة؛ ازداد رجاؤه في الَّذِي سيحصل عليه، وإذا قدم العِبَاد المُحْسِنُون على الله؛ ازداد رجاؤهم فِيمَا سيحصلون عليه.

وقد بيَّنَتْ لنا السُّنة الشَّريفة أنَّ العبد ينادي ربَّه: «رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ»[3]، كي يرجع إلى أهله وماله؛ لأنَّه فتح له باب إلى الجنَّة في قبره، فهو يأتيه مِن النَّعِيم والطِّيب، ثم يُقَال له: «نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ»[4].

وأمَّا الكُفَّار: فإنَّهم يخافون في قبورهم، ويَرْجُون أنْ لا تقُوم السَّاعة؛ لما يرَوْنَه مِن العَذاب في القَبْر، ولِمَا يَعْلَمُونه مِن شِدَّة العَذاب الَّذِي ينتظرهم.

وانظر إلى آل فرعون وجنوده الَّذِين قال الله عنهم: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فخوفهم يتضاعف وهم

(١) تفسير الطبري، (١٦/ ٢٣٢)، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١/ ٩٤)، بتصرف.

(٣) رواه أحمد، (١٨٥٣٤)، وصححه محققو المسند، والألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٤) رواه الترمذي، (١٠٧١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

في قبورهم!!؛ لأنَّهم يُعْرَضُون على النَّار كل يوم، ويَعْرِفُون إلى أيِّ مَصِير سيَصِيرُون، فكيف يَكُون خوفهم وذُعْرهم الآن؟!، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامةَ والعَافِيَة.

متى يصبح رجاء المخلوقين شركاً أكبر؟

إنَّ أعْلَى أنْوَاع الرَّجاء: هو رجَاء الله وَحْدَه، وقطع رجَاء المَخْلُوقِين، وقد يدخل في قلب الإنْسَان شيءٌ مِن رجاء النَّاس، فيرجو شخصاً لوَجَاهَتِه، أو لمَاله، أو لِسُلْطَانه، وهَذَا مِن الدَّخَن الَّذِي لا يَكَاد يسلم شخصٌ منه.

ولكِن السُّؤال المُهِم هو: متى يصبح رجاء المخلوقين شركاً أكْبَر؟

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمَن سوَّى بين الخالق والمخلوق في الحُبِّ له، أو الخوف منه، والرَّجاء له؛ فهو مُشْرِك»[1].

فهَذِه هي القَاعِدَة: متَى ما سوَّيت رجاءك لله برجائك للمَخْلُوق؛ دخلت في الشِّرك الأكبر؛ فاحذر مِن هَذَا، واسْلُك الجادَّة؛ لعَلَّ الله يُنجيك مِن عذابه الأليم.

* * *

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (٢٧/ ٣٣٩).

الخاتمة

علَى المُؤمِن أَنْ يَكُون جامِعاً بين الخوف والرَّجاء في عبُودِيَّته؛ حتَّى يتحقَّق له مَطْلُوبه ومُرَاده.

يقول المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخوف والرَّجاء: اللَّذَيْن هما سَهْمَا العبودية؛ إذ هي: اضطرار وافْتِقَار؛ فالخوف: اضْطِرَار، والرَّجاء: افتِقَار، والعِبَادة لله إنَّما تصْفُو بخَوْف التَّقصِير، وشُكْر التَّوفِيق، فرؤية التَّقصِير: تُوجِب الخَوْف، ورُؤية التَّوفيق: توجب الرَّجاء»[1].

وعلى المسلم -أيضاً- أنْ يَبْتعِد عن القنُوط مِن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنْ يحسن الظَّن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ عن القنوط: «وهو: تَضْيِيق لِمَجَارِي الرَّحمة، والإفْضَال، ومِن ثَمَّ: كان مِن الكَبَائِر القَلْبِيَّة؛ فحسن الظَّن، وعظم الرَّجاء أَحْسَن ما تزوَّدهُ المُؤمِن؛ لقدومه علَى ربِّه»[2].

ولا ينبغِي لِمَن نصَح نفْسَه أنْ يتعَامَى عن مسَاوئها، ويُرسل نفْسَه في المَعَاصِي، ويتعَلَّق بحُسْن الرَّجاء، وحُسْن الظَّن بالله.

قال أبو الوفاء ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «احْذَره، ولا تغْتَر به؛ فإنَّه قطع اليَد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة مِن الخَمْر، وقد دخلت المَرأة النَّار في هِرَّة، واشتعلت الشَّملة ناراً علَى من غلها وقد قُتِل شهيداً»[3].

---

(١) فيض القدير، للمناوي، (٣/ ٣١٦)

(٢) فيض القدير، للمناوي، (٦/ ٤٥٥)

(٣) جواب الكافي، لابن القيم، (ص٢١)

ولَا تكُنْ قليل الرَّجاء؛ فإنَّك حِينَها تكُون كالإنسان الميِّت.

يقول ابن الرعلاء رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيشُ ذَلِيلاً ... كَاسِفاً بالُهُ قَلِيلَ الرَّجاء[1]

وعليكَ -أخي في الله- أنْ تَعْلم أنَّ أعمال القلوب ترتبط بعضها ببعض، وكُلَّما قوي أحدها قَوَّى غيره، وكُلَّما ضعف أضعف غيره.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَم أنَّ مُحرِّكَات القلوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: المحبَّة، والخَوْف، والرَّجاء.

وأقواها المَحبَّة ...

والخوف المقصود منه: الزَّجر، والمَنْع مِن الخروج عن الطَّريق، فالمحبَّة تُلْقِي العَبْد في السَّير إلى محْبوبه، وعلى قَدْر ضَعْفِها وقُوَّتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أنْ يخرج عن طريق المحبوب، والرَّجاء يقوده.

فهَذَا أصلٌ عظيم يجبُ علَى كلِّ عبدٍ أنْ يتنبَّه له؛ فإنه لا تحصل له العُبُودِيَّة بدونه، وكل أحدٍ يجب أنْ يكُونَ عبداً لله لا لغيره»[2].

واعلَم أنَّ الاهْتِمام بعمَلٍ قلبيٍّ وحِيد، وعدم الاهتمام ببَقيَّة: قد يُوقِع في الخطأ والضَّلال

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال بعضهم: مَن عبَدَ الله بالحُبِّ وَحْده؛ فهو زِنْدِيق، ومَن عبَدَ اللهَ بالخوف وحْدَه؛ فهو حَرُورِي، ومَن عبَدَهُ بالرَّجاء وحْدَه؛ فهو مُرْجِئ، ومَن عبَدَهُ بالحُبِّ والخَوْف والرَّجاء فهو مُؤمِن مُوحِّد»[3].

اللهم احْرُسْنا بعَيْنك التي لا تنَام، واكتفْنا بكنَفِك الَّذي لا يُرام، وارْحَمْنا بقُدْرَتِك علينا

---

(١) معجم الشعراء، للمرزباني، (١/ ٢٧)

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١/ ٩٥)، باختصار.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (١٠/ ٨١).

أَلَّا نهلك، إنَّك سميع الدُّعَاء، وأهل الرَّجاء، انقطع الرَّجاء إلَّا منك، أنت حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

يَا رَبِّ مَا أَقْـرَبَ مِنْكَ الفَرَجَا   أَنْتَ الرَّجاء وَإِلَيْكَ المُلْتَجى

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّد، وعلى آلِهِ وصَحْبه وسَلَّم تسليماً كثيراً.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما الفرق بيْنَ الرَّجاء والتَّمنِّي؟

٢. اذكر أربعاً مِن ثمَرات الرَّجاء.

٣. اذكُر العَوامِل الَّتي توصل إلى تحقيق الرَّجاء.

٤. آية مِن القُرآن تجمع بين الخوف والرَّجاء؛ اذكُرْهَا.

٥. ما الأحْوَال الَّتي يغلِّب فيها المُؤمِن الخَوْف علَى الرَّجاء؟

٦. ما الأحْوَال التي يغلِّب فيها المُؤمِن الرَّجاء على الخوف؟

٧. اذكُر أنْوَاع الرَّجاء، وبيِّن المحمود منها، والمذموم.

٨. ما درجات الرَّجاء؟

٩. ما علامة صِحَّة رجاء العبد؟

١٠. ما هي مُحرِّكات القُلوب؟ واذْكُر أقوَاهَا.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. وضِّح العبارة التَّالية: «كل خائف رَاجٍ، وكل راج خائف».

٢. اذكُر بعض العوَامِل الَّتي توصل إلى تحقيق الرَّجاء، غير ما ذكر في هَذَا الفصل.

٣. هل الرَّجاء دوَاء؟ وضِّح كيف يكون ذلك؟

٤. اذكُر القاعدة التي يجب تحقيقها في قلب المؤمن مِن نَاحِيَة الخوف والرَّجاء.

٥. لمَاذا كان دوام ذِكْر الله ثَمَرة مِن ثمَرَات الرَّجاء؟

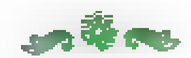
٦. ما مَعْنَى القُنوط؟ وكيف يَبْتعِد المسلم عنه؟

٧. متَى يُصْبِح رجَاء المخلوقين شِرْكاً أكْبَر؟

٨. هل الرَّجاء مَقْصُورٌ علَى الأمور الأُخْروِيَّة فقط؟ مع التَّوضِيح.

٩. كيف يَكُون الحذَر مِن الأمَاني الكاذِبَة؟

١٠. اذكُر عدداً مِن الكتب الَّتي اهتمَّت بموضوع الرَّجاء.





الرضا

مُقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الرضا يفرغ القلب لله، ومن ملأ قلبه من الرضا، ملأ الله صدره غنى، وأمناً وقناعة، وفرّغ قلبه لمحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه.

والرضا ثمرة من ثمرات المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وهو باب الله الأعظم، ومستراح المتقين، وجنة الدنيا.

ورضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها؛ لأن الرضا صفة الله، والجنة خَلْقُه، وقد قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] بعد ذكر وعده للمؤمنين بدخول الجنة

فما معنى الرضا؟ وما مراتبه؟ وكيف السبيل إلى الوصول إليه؟ وما ثمراته؟ وما الفرق بينه وبين الصبر؟

تجدُ بيان ذلك وغيره في هذا الفصل.

نسأل الله تعالى الرضا والقبول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

أهمية الموضوع

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب عَزَّ وَجَلَّ»[1].

قال داود الطائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أفضل الأعمال: الرضا عن الله»[2].

وقال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة»[3].

والسنة التي تركها لنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأسها الرضا، والتسليم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع تسعون رجلاً من التابعين، وأئمة المسلمين، وأئمة السلف، وفقهاء الأمصار: على أن السنة التي توفي عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولها الرضا بقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ، والتسليم لأمره، والصبر على حكمه ...»[4].

والراضون عن الله: هم حزب الله.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٢١٩)، وقال الألباني في الصحيحة (٨/ ٢٥٨): «إسناده جيد».

(٢) أحكام القرآن للجصاص (١/ ١١٧).

(٣) حلية الأولياء (٦/ ١٦٣)، وشعب الإيمان (٤٧٥).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ١٣٠).

قال بشر بن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «من وُهِبَ له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات»[1].

ومن لم يبلغها؛ فعليه أن يسأل الله سبحانه أن يبلغه إياها.

قال الربيع بن أبي راشد رَحِمَهُ اللَّهُ: «من سأل الله الرضا؛ فقد سأله عظيمًا»[2].

* * *

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٥٠).

(٢) حلية الأولياء (٥/ ١١٢).

تعريف الرضا

الرضا في اللغة:

(رضي) الراء، والضاد، والحرف المعتلّ، أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف السُّخْط. تقول رضِي يرضَى رِضىً. وهو راضٍ، ومفعوله: مرضِيٌّ عنه[١].

وفي الحديث عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مرفوعاً: «اللَّهُمَّ أعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»[٢].

وقال تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: مرضية ذات رضا.

فالرضا: هو سكون النفس إلى الشيء، والارتياح إليه.

والرضوان: هو الرضا الكثير، ولمّا كان أعظم رضا هو رضا الله سبحانه وتعالى؛ خُصَّ لفظ الرضوان بما كان من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ ﴾ [التوبة: ٢١].

وأرضاه: أي أعطاه ما يرضى به، وترضّاه: أي طلب رضاه، كما قال رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ:

إِذَا العَجُوزُ غَضِبَتْ فَطَلِّقِ ... وَلاَ تَرَضَّاهَا وَلاَ تَمَلَّقِ[٣]

والرضا في الاصطلاح:

قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُٱللَّهُ: «الرضا: سكون القلب تحت جريان الحكم»[٤].

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣٣٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) معجم الأدباء (٣/ ٣٤١).

(٤) التعرف، لأبي بكر الكلاباذي (ص١٠٢).

وقال بعض الحكماء: «الرضا: سكون القلب بما قسم الله عَزَّوَجَلَّ له»[١].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا: سكون النفس إلى القضاء»[٢].

وقال بعضهم: «الرضا: ترك الخلاف على الله فيما يجريه على العبد»[٣].

وسُئِلَ أَبُو عُثْمَانَ الْبِيكَنْدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الرضا، فقال: «من لم يندم على ما فات من الدنيا، ولم يتأسف عليها»[٤].

وقال عبد الله بن عبد العزيز العمري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزهد: الرضا»[٥].

فرضا العبد هو: أن يسلّم بما أمره الله به ونهاه عنه، ويرضى بما رضيه الله له، ولا يجزع مما يجري به قضاؤه من الأوامر، والمصائب، ويسلّم لله في ذلك، ويزهد في هذه الدنيا.

***

---

(١) التوكل على الله، لابن أبي الدنيا (٤٦).

(٢) فتح الباري (١١/ ١٨٧).

(٣) شعب الإيمان (٢٢٦).

(٤) شعب الإيمان (٢٣٥).

(٥) ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا (٣٦٤).

درجات الرضا وأحكامها

تتفاوت درجات الرضا القلبي فيما بينها، بحسب قوة إيمان العبد، وبحسب الأمر الذي دخله الرضا من العبد.

وهذه الدرجات تنقسم من جهة حكمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الرضا الواجب.

والقسم الثاني: الرضا المستحب.

والقسم الثالث: الرضا المحرم.

أما الرضا الواجب: فهو أصل الرضا، وهو في أربعة أمور، هي:

١. الرضا بالله رباً.

٢. الرضا بالإسلام ديناً.

٣. الرضا بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله يقول: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبّاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»[1].

٤. الرضا بما وقع من المصائب وعدم الجزع فيها.

وأما الرضا المستحب فهو: المنزل العليا من الرضا بالأمور الأربعة السابقة.

وأما الرضا المحرم فهو: الرضا بالمعاصي، والذنوب.

وستحدث عن هذه الأقسام بالتفصيل إن شاء الله.

(١) رواه مسلم (٣٤).

القسم الأول: الرضا الواجب

الرضا الواجب: هو أن يكون معه أصل الرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقضاء والقدر، ولا تجب مراتب الرضا العالية فيه.

فهذا هو الرضا الذي لا يتم إيمانُ عبدٍ إلا به، ومن لم يرض بأصل هذه الأنواع الأربعة أو بأحدها؛ فقد يخرج من دائرة هذا الدين، ويصبح كافراً بالله العظيم.

والرضا بهذه الأنواع سهلٌ عند الدعوى، ولكن عند التحقيق تحتاج إلى مجاهدة، وصبر وتوطين للنفس عليه.

الرضا بالله:

إن من أعظم مظاهر الرضا بالله: إفراده سبحانه بأنواع العبودية والألوهية، وتوحيده في أسمائه وصفاته.

فترضى به رباً واحداً لا شريك معه، وترضى بعبادته، وحبه، والتذلل إليه، والخضوع له، والرغبة إليه، والرهبة والخوف منه، ورجائه، ولا تشرك معه أحداً في شيء من ذلك كله.

وترضى بتدبيره، فتُنزل به حوائجك، وتطلب منه إصلاح دينك ودنياك.

ومن الرضا بالله رباً: أن تسخط عبادة ما دون الله، وهذا قطب رحى الإسلام، فلا ترضى بعبادة النصارى للصليب والمسيح عليه السلام، ولا ترضى بعبادة اليهود لعزير عليه السلام، ولا ترضى بعبادة الوثنيين لبوذا، ولا ترضى بعبادة الأصنام والأوثان أياً ما كانت.

وهذا الرضا محرومٌ منه غلاة الصوفية عبّادُ القبور؛ لأنهم في الحقيقة ما رضوا بالله رباً، فينْزلون حوائجهم بالأولياء والأقطاب، ويسألونهم، ويستغيثون بهم، ويتوكّلون عليهم، ويرجون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يقضيه إلا الله.

وهؤلاء الذين يرجون الأموات لو رضوا بالله رباً؛ لطلبوا المدد منه سبحانه، وما توكلوا إلا عليه، ولا استغاثوا إلا به.

ومن العجب! دعوى هؤلاء أصحاب القبور أنهم هم أرباب القلوب، وأنهم هم المتخصصون في طب القلوب، وعلاجها.

وكيف يعالج القلب من قتله بالشرك وعدم التوحيد؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؟ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «سيداً وإلهاً» يعني، فكيف أطلب رباً غيره، وهو ربُّ كل شيء؟!(١)

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: أغير الله أتخذ معبوداً، وناصراً، ومُعيناً، وملجأ؟!

ومن الرضا بالله رباً: الحب في الله، والبغض في الله.

فمحبة العلماء من الرضا بالله رباً.

ومحبة الصالحين، والزهاد؛ من الرضا بالله رباً.

ومحبة القائمين على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ من الرضا بالله رباً.

وبغض الفساق والفجار؛ من الرضا بالله رباً.

وبغض الممثلين والمغنين؛ من الرضا بالله رباً.

وبغض القنوات الفضائية المفسدة، والملحدة؛ من الرضا بالله رباً.

الرضا بالإسلام:

الرضا بهذا الدين هو: أن ترضى بما شرعه الله فيه من أحكام، فما حرّمه الله ترضى بتحريمه، وما أحلّه ترضى بتحليله، وما أوجبه ترضى بإيجابه.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: هل أرضى بأي حَكمٍ آخر يحكم بيني وبينكم، غير دين الإسلام المتمثل في كتاب الله، وسنّة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فترضى بإيجاب بر الوالدين، وبإيجاب الزكاة، وغيرها من الواجبات، وترضى بتحريم الزنا، وبتحريم الربا، وغيرها من المحرمات.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨١).

وعدم الرضا بهذا الدين؛ كفرٌ وخروج عن الإسلام، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

فقد أحبط الله عمل هؤلاء الذين لم يتّبعوا ما رضيه الله، بل اتبعوا ما يسخطه، وكرهوا ما يرضاه من الأعمال الصالحة، والواجبات، والمأمورات.

وما أشد كذب هؤلاء الذين يقولون: رضينا بالإسلام ديناً، ثم هم بعد ذلك يتبعون القوانين الوضعية المختلفة، فتراهم يحكمون بالقانون الفرنسي، أو الإنجليزي، أو الإيطالي

فأين الرضا بهذا الدين؟!

أين التمسك بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؟! [الأنعام: ٥٧].

فالتحكيم الشرعي إنما هو لله سبحانه وتعالى، وحده لا شريك له في ذلك.

ومن الرضا بالإسلام: موالاة المسلمين، ومعاداة الكافرين.

وهذا من أعظم مظاهر الرضا بهذا الدين، فترضى بالإسلام وتوالي من رضي به، وتكره الشرك والكفر، وتعادي من رضي بهما.

ومن أبعد البُعْدِ عن الرضا بالإسلام: أن يرضى الرجل بأحوال أهل الكفر، ومعتقداتهم، وعاداتهم، ويحب نقلها إلى بلاد الإسلام، من التعري، والاختلاط، وأنواع الموسيقى، وأشكال الفساد.

ومن أشكال عدم الرضا بالإسلام: الدعوة إلى العلمانية، وفصل الدين عن الدولة.

الرضا بمحمد ﷺ:

تتمثل مظاهر الرضا بهذا النبي الكريم بأمور، منها:

محبته ﷺ: وليس الاكتفاء بمحبته فقط، بل أن يكون أحب إليك من نفسك، وزوجك، وأبيك، وأمك، وأبنائك، وأصدقائك، وأقاربك.

ومن الرضا به نبياً: **افتداؤه بالروح والجسد**، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، فكان أحدهم يسد الجحر برجله خوفاً على النبي ﷺ، وآخر قاتل جيشاً كاملاً بمفرده؛ دفاعاً عنه، وثالث يُفَضِّلُ أن يُقَطَّع جسده قطعة قطعة على أن يؤذى رسول الله ﷺ بشوكة.

ومن الرضا به نبياً: عدم تمني نبوة غيره، لا كما فعله الكفار، والطواغيت في عهده ﷺ؛ حيث قالوا -كما أخبر الله عنهم-: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. فلم يرضوا بنبوته، وأرادوا أن تكون النبوة فيمن يختارونه، ويرضونه.

ومن الرضا به نبياً: الرضا بما شرعه الله على لسانه، من تحريم حرام، أو إيجاب واجب، أو إباحة مباح، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فتحكيم الشرع وحده لا يكفي للرضا به نبياً، بل يجب أيضاً عدم وجود الحرج في النفس، ثم التسليم بذلك.

ومن الرضا به نبياً: الرضا بقسمة الأموال، ككيفية توزيع أموال الصدقات، وأموال الفيء، وأموال الغنائم، ونحوها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»[١].

ومن الرضا به نبياً: عدم الابتداع في دينه، والوقوف عند سنته، وعدم الاجتراء عليه بابتداع أمور ما أنزل الله بها من سلطان.

فابتداع الموالد، وأنواع الأذكار، وطرقها، وأنواع العبادات، ليس من الرضا به نبياً.

فالزم -رحمك الله- سنة نبيك الرؤوف الرحيم، ولا تحد عنه بقول أحد وعمله، ولا تبتغ الهدى من غيره، ولا تغتر بزخارف المبطلين وانتحالهم، ولا بآراء المتكلمين وتأويلهم، إن الرشد والهدى والفوز والرضا فيما جاء من عند الله ورسوله، لا فيما أحدثه المحدثون، وأتى به المتنطعون؛ من آرائهم المضمحلة، وعقولهم الفاسدة، وارض بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بدلاً من قول كل قائل، وزخرف كل مبطل.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٠).

الرضا بالقضاء والقدر:

الرضا الواجب بالقضاء والقدر: هو ما يوازي الصبر.

وهو عدم الجزع عند المصائب والنوازل، وطمأنة القلب، وحمد الله على كل حالٍ، ومعرفة أن ما قضاه الله وقدَّره؛ إنما هو لحكمةٍ، يعلمها سبحانه وتعالى.

فترضى بما قدَّره الله من المرض، والفقر، وضيق الحال، وسوء المعيشة، ونحو ذلك.

وترضى بما قسمه الله لك من زوجةٍ، وإن كانت ليست بذات جمال، وما قسمه لك من أولادٍ، وإن كانوا قلة، أو كانوا من البنات.

وترضى بقبيلتك، وقومك الذين خلقك الله فيهم، وإن كانوا أقل شرفاً ورفعة من غيرهم.

ومما ينافي الرضا بالقضاء والقدر: شق الجيوب عند المصائب، ولطم الخدود، والنياحة على الميت.

ومما ينافي الرضا بالقضاء والقدر: مصيبة الانتحار التي فشت وتفشت بين بعض المسلمين، فكم سمعنا عن شابٍ قتل نفسه لمصيبةٍ حلت به!، وكم سمعنا عن فتاةٍ أهلكت نفسها لفاجعةٍ نزلت بها!.

ومما ينافي الرضا بالقضاء والقدر: التشكي، والتسخط عند الناس.

ومما ينافي الرضا بالقضاء والقدر: اعتقاد ظلم الله له، وأنه هو المستحق للنعمة التي أنعمها الله على فلانٍ أو على فلان.

والرضا بالقضاء والقدر: هو الذي يسميه بعض العلماء (الرضا عن الله).

والفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله:

أن الرضا بالله: هو الرضا بربوبيته، وألوهيته ووحدانيته، والرضا بإفراده بالعبادة، وأن الحكم له فقط لا لغيره، وأن نرضى بما شرع.

وهذا لا يكون إلا للمؤمنين، فالكفار ليسوا براضين بالله.

وأما الرضا عن الله: فهو أن ترضى بما قضاه وقدّره، وما أحدث من المقادير، والأرزاق.

وهذا من الممكن أن يدخل فيه المؤمن والكافر، فقد تجد مشركاً عنده رضيّ بالقضاء والقدر، وقد تجد كافراً يتماسك عند المصيبة، بل يقول لك: أنا مقتنع أن هذا قضاءٌ وقدرٌ، وهناك بعض تاركي الصلاة بالكلية، عندهم إيمان بالقضاء والقدر، أقوى من بعض المصلين!!

ولابد من اجتماع الأمرين معاً في المؤمن: الرضا بالله، والرضا عن الله، مع العلم بأن الرضا بالله أعلى شأناً وأرفع قدراً؛ لأنه مختصّ بالمؤمنين

فالرضا بالله رباً من آكد الفروض باتفاق الأمّة، فمن لم يرضَ بالله رباً؛ فلا يصح له إسلامٌ، ولا عملٌ.

القسم الثاني: الرضا المستحب

الرضا المستحب هو: الرضا الزائد عن القدر الواجب.

فالرضا بالله رباً:

هو أن يرضى بالله بدلاً من كل ما سواه، وكل ما سوى الله لا عبرة به عنده، وهي درجة المقربين.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «درجة الرضا عن الله عَزَّ وَجَلَّ درجة المقربين، ليس بينهم وبين الله تعالى إلا روح وريحان»[1].

والرضا بالإسلام ديناً:

هو أن ترضى الأعمال الصالحة من الغير.

والرضا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبياً

هو أن تحب معرفة سيرته، ويكون همك التأدب بآدابه، والتحلي بأخلاقه، والتأسي به زاد عن الواجب من سنته، وتتمنى أن تكون معه في الجنة يوم القيامة.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٩٧).

والرضا بالقضاء والقدر:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا بالقضاء ثلاثة أنواع:

أحدها: الرضا بالطاعات، فهذا طاعةٌ مأمور بها.

والثاني: الرضا بالمصائب، فهذا مأمورٌ به، إما مستحبٌّ، وإما واجب»[1].

فمن كلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يتبين أن الرضا بالمصائب، وما يقدره الله، وما يقضيه ينقسم إلى قسمين: واجب، ومستحب.

أما الواجب: فقد سبق الحديث عنه.

وأما المستحب: فهو الدرجة العليا من الرضا عند المصيبة، والتي فيها سكينة النفس التامة، وحمد الرب سبحانه على ما أصابه من الضراء، كما يحمده عند السراء، وهذه درجة عزيزةٌ لا يصل إليها إلا قلّةٌ من المخلوقين.

قال ابن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «ارض بقضاء الله على ما كان من عسر ويسر؛ فإن ذلك أقلّ لِهَمِّك، وأبلغ فيما تطلب من آخرتك، واعلم أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا؛ حتى يكون رضاه عند الفقر والبؤس، كرضاه عند الغنى والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً هواك؟ ولعل ما هويت من ذلك لو وفق لك لكان فيه هلكتك، وترضى قضاءه إذا وافق هواك؛ وذلك لقلة علمك بالغيب! وكيف تستقضيه إن كنت كذلك؟ ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضا»[2].

والله -من رحمته- لم يوجب هذه الدرجة على عباده؛ لأن أكثرهم لا يستطيعونها.

فإن قال قائل: لماذا يحمد العبدُ ربَّه على الضراء؟

فالجواب من وجهين:

الأول: لأنه يعلم أن الله أحسنَ كل شيءٍ خلَقه وأتقنَه، وأنه ما فعل شيئاً إلا لحكمة، فيرضى عن أفعال الله، ويحمده عليها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٢).

(٢) الرضا عن الله بقضائه (٦٩).

الثاني: لأنه يعلم أن الله أعلم بما يصلحه، وما يصلح له من نفسه، واختياره له خيرٌ من اختياره لنفسه.

عن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ»[1]

فتحمد الله على هذا الخير الذي قدره الله لك، وإن كان قد جاءك على شكل مصيبةٍ أو فجيعة.

إذا دعا الإنسان أن يزيل الله عنه مصيبةً؛ فهل فعله هذا منافٍ للرضا؟

زعم بعض الصوفية أن الدعاء؛ لرفع البلاء، يقدح في الرضا، والتسليم.

والصحيح: أن المذموم هو التشكي إلى الناس، لا التشكي إلى الله، فإذا اشتكى الإنسان ما به من ضرٍّ إلى ربه، ودعاه ليكشفه؛ فليس ذلك منافٍ للرضا والتسليم

فأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أصابه الضر؛ دعا ربه أن يكشف العذاب عنه، وقد وصفه الله سبحانه بالصبر، فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقد شكا الألمَ والوجعَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابُه، وجماعةٌ ممن يقتدى بهم... ولا أحد من بني آدم إلا وهو يألم من الوجع، ويشتكي من المرض، إلا أن المذموم من ذلك ذكره للناس تضجراً، وتسخطاً، وأما من أخبر إخوانه؛ ليدعوا له بالشفاء، والعافية، أو كان أنينه، وتأوهه استراحة؛ فليس ذلك بشكوى»[2].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فوصف عباده الصالحين بأنهم يدعون ربهم؛ يريدون نعماً، ودفعَ نقمٍ، فالدعاء لجلبِ منفعةٍ، أو دفعِ مضرّةٍ، لا يتعارض مع الرضا.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩)

(٢) عمدة القاري (٢١/ ٢٢٢)

هل التعب والتألم والحزن ينافي الرضا المستحب؟

الجواب: إن التعب من العبادة، والتألم من المصيبة، والحزن على ما أصابنا الله به من الفجائع؛ لا ينافي الرضا المستحب.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة، لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً؛ إذا كان قلبه مطمئناً»[1].

ولنضرب لذلك مثالاً: فالمريض قد يرضى بشرب الدواء، وقلبه مطمئنٌ لأخذه؛ لأنه قد يعلم من تجربة الناس لهذا الدواء وإخبار الأطباء أن هذا الدواء ناجحٌ، وأنه قد شُفي كثيرٌ من المرضى قَبله بسببه.

ولكن، مع هذا الاطمئنان، والرضا بشرب الدواء، إلا أنه قد يشعر بمرارته، ويقشعرّ بدنه من طعمه.

وهكذا المسلم الصادق، يطمئن قلبُه لربه، ويرضى بما أمره به من الواجبات، وما كتبه عليه من المصائب والفواجع، ومع ذلك فقد يحس بالتعب والألم والحزن.

فالصائم رضي بالصوم وسُرَّ به، ولكنه قد يشعر بألم الجوع.

والمجاهد المخلص في سبيل الله راضٍ بهذه الشعيرة، والفريضة الإسلامية العظيمة، ومُقْدِمٌ عليها، ومع ذلك فهو يحس بالألم، والتعب.

إذن فلا يشترط أن يزول الألم والتعب من الشيء إذا حصل الرضا، وإن كان بعض أصحاب المقامات العالية قد يستلذّون بالألم.

قال إبراهيم بن فاتك رَحِمَهُ اللَّهُ: قال رويم: «الرضا: استلذاذ البلوى»[2].

وقال بعضهم:

عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبٌ[3]

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥١٤).

(٢) حلية الأولياء (١٠/ ٣٠١)، وشعب الإيمان (١٠٠٧٨).

(٣) جامع العلوم والحكم (ص ١٩٥).

وكذلك، فإن الإخبار عن هذا الألم والتعب لا ينافي الرضا بما قدره الله وقسمه؛ كما فعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما أخبر غلامه أنه قد لقي من سفره النصب، والتعب.

يقول القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء؛ لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط»[1].

هل الرضا يتنافى مع البكاء على الميّت؟!

عندما مات إبراهيم ابن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلت عيناه تذرفان، وقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلاَّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[2].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «البكاء على الميت على وجه الرحمة حسنٌ مستحبٌّ، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا يُعْرَف معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بكى على الميت: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[3].

والناس أربعة أقسام:

١. منهم من يكون فيه صبرٌ بقسوةٍ – أي: ليس في قلبه رحمة – .

٢. ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بجزعٍ.

٣. ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع.

٤. والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس»[4].

القسم الثالث: الرضا المحرم

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في أنواع الرضا بالقضاء: «والثالث: الرضا بالكفر، والفسوق،

---

(١) تفسير القرطبي (١١/ ١٤).

(٢) رواه البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٢٤) ومسلم (٩٢٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧) بتصرف.

والعصيان؛ فهذا لا يؤمر بالرضا به، بل الإنسان مأمورٌ ببغضه وسخطه؛ فإن الله لا يحبه ولا يرضاه»[1].

ويدل لما ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث العُرس بن عميرة الكندي، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا -وقال مرةً أَنْكَرَهَا- كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا»[2].

وعن الربيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «مكتوب في الكتاب الأول: من رضي أن يُعصى الله فلن يقبل الله عملَه ما دام كذلك»[3].

وللأسف، فكثيرٌ من الناس اليوم يرضون بالمحرمات ويوافقون عليها، وإن لم يكونوا يشركون فيها.

فيرى الرجل الخبث، والفساد في أهله، وهو راضٍ بذلك؛ فيرضى لابنته أن تحدث الشباب وتخالطهم باسم الحرية، ويرضى لزوجته الخروج متبرجة بدون حجاب باسم التفتح، بل وبعضهم يرضى لابنه الشاب أن يفجر مع الخادمة تحت سمعه وبصره.

وبعض هؤلاء -الذين يسمون أنفسهم بالمثقفين- يرضون بأنواع الكفر تحت شعار قبول الطرف الآخر، وبعضهم يرضى بالبدعة تحت شعار التسامح، والتقريب، ونحو ذلك.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الرضا بحال الكفار والفساق، وبيَّن أنه لا يرضى بتلك الحال، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]. قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم: نهي المؤمنين عن ذلك؛ لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن»[4].

والقاعدة الشرعية: أن الرضا بالمعصية معصيةٌ، والرضا بالكفر كفرٌ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٣) الدر المنثور (٢/ ٥٧٦).

(٤) فتح القدير (٢/ ٥٧٤).

عن عبد الله بن شميط، عن أبيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان يقال: من رضي بالفسق فهو من أهله، ومن رضي أن يُعصى الله عَزَّوَجَلَّ لم يُرفع له عمل»[1].

وقد حَسَّنَ رَجُلٌ عند الشعبي قتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شركت في دمه».

فجعل الرضا بالقتل قتلاً.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه مسألة عظمى؛ حيث يكون الرضا بالمعصية معصية»[2].

* * *

(١) حلية الأولياء (٣/ ١٣٠).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٤-٢٩٥).

طريق الرضا

بعد أن علمنا أنواع الرضا، وأن منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب، فعليك أن تعرف كيفية الوصول إلى هذا الطريق؟، وكيف يمكن للعبد أن يكون من أصحاب تلك العبادة القلبية العظيمة؟

وقبل أن نبين كيفية الوصول إلى طريق الرضا، نذكر خلافاً للعلماء مهماً في هذه المسألة، ألا وهو: هل الرضا شيءٌ وهبيٌّ يهبه الله للإنسان؟ أم أنه كسبيٌّ يمكن للعبد أن يحصِّله بالمجاهدة ورياضة النفس؟

إن الرضا يدخله الوهب، والكسب.

فهو كسبيٌّ باعتبار سببه، ووهبيٌّ باعتبار حقيقته.

ومعنى ذلك: أن العبد قد يكتسب الرضا؛ بإنشاء أسبابه، التي سنذكرها فيما بعد، ولكن حقيقة الرضا لا يمكن أن يحصل عليها بهذه الطريقة، بل هي هبة من الله، وفضلٌ منه، يهبها من يشاء من عباده، ويحرمها من يشاء من عباده.

أسباب تحصيل الرضا:

إن العبد المؤمن متى ما عَلِم بوجوب أصل الرضا، واستحباب مراتبه العالية؛ عليه أن يسرع ليعرف كيف يحصل هذا الرضا؟، وما الأسباب التي توصله إلى ذلك الطريق المستقيم؟

ومن تلك الأسباب:

١. الصبر على الأذى وعلى الطاعة: قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]

٢. **دعاء الله أن يرزقه الرضا:** عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمه دعاء، وأمره أن يتعاهده، ويتعاهد به أهله كل يوم، وفيه: «**أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ**»[1].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الصِّحَّةَ والعفة، وَالأَمَانَةَ، وَحُسْنَ الخُلُقِ، وَالرِّضا بِالقَدَرِ**»[2].

٣. **معرفة الله سبحانه:** فإن علم العبد أن الله سبحانه حكيم برٌّ رحيم؛ حصل له الرضا بما يكتبه، قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء، والسكون في البلاء»[3].

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحق الناس بالرضا عن الله: أهل المعرفة بالله»[4].

وقال الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرضا على قدر قوة العلم، والرسوخ في المعرفة»[5].

وسُئِل بعضهم: كيف السبيل إلى مقام الرضا؟ فقال: «علم القلب بأن المولى عدل في قضائه غير متهم»[6].

٤. **التوكل على الله سبحانه:** لأن الرضا هو آخر التوكل؛ فبعدما ترسخ قدم العبد في طريق التوكل ينال الرضا، وبعد التسليم، والتفويض يحصُل الرضا.

٥. **القبول بما قسمه الله له:** سُئِلَ يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: متى يبلغ العبد مقام الرضا؟

فقال: «إذا أقام نفسه على أربعةِ أصولٍ فيما يُعامِل به ربه. فيقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبتُ»[7].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١٦٦٦)، والحاكم (١٩٠٠)، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٤٢٦): صحيح بشواهده.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٧)، والبيهقي في الشعب (٨١٨١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٩١).

(٣) روح المعاني (١١/ ١٨٠).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ١٠٤).

(٥) روح المعاني (٣٠/ ٢٠٦).

(٦) حلية الأولياء (١٠/ ٨٩).

(٧) مدارج السالكين (٢/ ١٧٤).

قال بعضهم:

تَقَنَّعْ بِمَا يَكْفِيكَ وَاسْتَعْمِلِ الرِّضَا ... فَإِنَّكَ لاَ تَـدْرِي أَتُصْبِحُ أَمْ تُمْسِي
فَلَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ المَـالِ إِنَّمَا ... يَكونُ الغِنَى وَالفَقْرُ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ[1]

٦. **مجالسة الفقراء:** قال بعضهم: «من جلس مع الفقراء؛ زاده الله الرضا بما قسمه له تعالى»[2].

٧. **تذكر الموت:** كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الأوزاعي: «من أكثر ذكر الموت؛ رضي من الدنيا باليسير»[3].

٨. **علو الهمة وتزكية النفس:** فإن الإنسان متى ما علا بهمته وسما بها، وأراد لنفسه أن تزكو وتتطهر من أدرانها، وصل إلى طريق الرضا.

٩. **توطين النفس على كل ما يَرِدُ عليها من الله تعالى:** ويسهُل ذلك على العبد إذا عرف ضعفه وقوة ربه، وجهله وعِلْم ربه، وعجزه وقدرة ربه، وأن الله رحيمٌ شفيقٌ بعبده.

فقد يكتب الله الموت على ولدك، ولا تعلم الحكمة في ذلك، بل تسلّم وترضى، وتعلم أنه حكيم عليم، ولعل ابنك هذا إن عاش صار فاجراً، أو عاقاً، أو مفسداً.

وقد يكتب الله عليك ترك الوظيفة، ولا تعلم الحكمة من وراء ذلك، فتسلم وترضى، ولعلَّ الله أراد أن يكتب لك وظيفة تكون أكثر رزقاً، وبركة عليك.

وهذا معلوم من التجربة، ومطالعة أحوال الناس.

فإذا اعترف العبد بجهله، وآمن بعلم ربه، وأن اختياره له أولى، وأفضل، وأحسن من اختياره لنفسه؛ وصل إلى الرضا.

١٠. **التفكر القلبي:** إن التفكر القلبي وسيلةٌ من وسائل الوصول إلى رضا الله سبحانه،

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣١٩).
(٢) البرهان المؤيد (ص ١٠٩).
(٣) الصمت (٦١).

فإذا تأمل العبد كيف جعله الله ضعيفاً ومنحه الإيمان!، وكيف جعل أقواماً أقوياء جبارين وحرمهم من تلك النعمة ثم أهلكهم!؛ تبين له مدى النعمة التي أنعمها الله عليه.

وإذا تأمل فقره، وأن هذا الفقر جعله لا يتطلع إلى أنواع الفسوق، والعصيان، وكيف أن الله قد رزق أناساً الأموال الطائلة فَسَدوا وأفسدوا؛ عرف مقدار نعمة الله عليه، ورضي بها. وهكذا.

* * *

الفرق بين الرضا والصبر

مقام الرضا أعلى من مقام الصبر؛ لأن الراضي لا يتمنى غير حاله التي هو عليها، فهو قد رضي بما قسمه الله له.

أما الصابر: فلا يجزع لما أصابه، ولا يصدر عنه ما يخالف الشرع، ولكنه يتمنى أن ينتقل إلى حالٍ أفضل من الحال التي هو عليها.

«مات ابن رجل، فحضره عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فكان الرجل حسن العزاء، فقال رجل من القوم: هذا والله الرضا، فقال عمر بن عبد العزيز: أو الصبر!»[1].

وأيضاً: فإن الرضا يلازم العبد في جميع أحواله التي هو عليها، سواء أحلت به نعمة، أو مصيبة.

أما الصبر: فإنما يفعله العبد عند المصائب، والمشاق.

فإن استطاع المسلم أن يعمل لله تعالى بالرضا في النفس فليفعل، فإن لم يستطع؛ فعليه بالصبر، فإن فيه خيراً كثيراً.

ولذلك كان العلماء العباد الزهاد يحرصون على مقام الرضا أكثر من حرصهم على مقام الصبر؛ لأنه أرفع مقاماً.

قال أبو عبد الله النباجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن لله عَزَّوَجَلَّ عباداً يستحيون من الصبر؛ يسلكون مسلك الرضا»[2].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٢٧٧)

(٢) تاريخ دمشق (٢١/ ١٧)

ثمرات الرضا

إن للرضا ثمراتٍ كثيرة، منها:

- **دخول الجنة:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا؛ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من رضي بما أنزل الله من السماء إلى الأرض؛ دخل الجنة إن شاء الله»[2].

- **غفران الذنوب:**

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلاَمِ دِيناً؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[3].

- **إرضاء الله سبحانه للراضي يوم القيامة:**

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَقُولُ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي ثَلاَثَ

---

(١) رواه مسلم (١٨٨٤).

(٢) حلية الأولياء (٩/ ٢٤٩).

(٣) رواه مسلم (٣٨٦).

مرَّاتٍ: رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا؛ إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُرْضِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

- **حصول البركة في الرزق:**

عن أبي العلاء بن الشخير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: حدثني أحد بني سليم -ولا أحسبه إلا قد رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ»[2].

- **حصول الرَّوْح والفرج وطيب العيش:**

قال أكثم بن صيفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من رضي بالقسم طابت معيشته، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه»[3].

الرضا بالله هو باب الله الأعظم لجنة الدنيا، ومُسْتَرَاح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين.

فالرضا يخلّص من الهمّ، والغمّ، والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والرضا يوجب طمأنينة القلب وبَرْده، وسكونه، وقراره، بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

والرضا يُنْزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزَّل عليه بغيره، ولا أنفع له منها؛ لأنه متى ما نزلت على قلب العبد السكينةُ استقام، وصلُحت أحواله، وصلُح باله، وكان في أمنٍ ودَعَةٍ، وطيبِ عيشٍ.

قال بعضهم: «العيش الحسن: هو الرضا بالميسور، والصبر على المقدور»[4].

(١) رواه أحمد (١٨٩٦٧)، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) رواه أحمد (٢٠٢٧٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٥٨).

(٣) القناعة والعفاف (١٣١).

(٤) تفسير البغوي (٤/ ١٦٠).

قال بعضهم:

وَمَنْ يَجْعَلِ الرَّحْمَنُ فِي قَلْبِهِ الرِّضَا يَعِشْ فِي غِنًى مِنْ طَيِّبِ العَيْشِ وَاسِعِ[(١)]

• **الحصول على رضا الله سبحانه وتعالى:**

رضا الله عَزَّوَجَلَّ عن العبد إنما هو ثمرة رضا العبد عن الرب سبحانه، فإذا رضيت بالله؛ رضي الله عنك.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[(٢)].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أن يُرضى به»[(٣)].

ورضا الله عن العبد خيرٌ من الجنة وما فيها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

• **حصول تمام العبودية:**

فإن الرضا بالله من تمام العبودية له، فإن العبودية لا تتم إلا بالرضا، والمحبة، والخضوع، والتذلل، وغير ذلك؛ وهو مُؤَدٍّ إلى الفرح والسرور بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبما قضاه وقدره.

• **تخليص العبد من معارضة الله في أحكامه وقضائه:**

كان من وصية بعض السلف لابنه: «يا بني، اقبل وصيتي واحفظ مقالتي؛ فإنك إن حفظتها تعش سعيداً، وتمت حميداً، يا بني، من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله في قضائه»[(٤)].

(١) تاريخ ابن معين (٤/ ٤٠٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٩٦)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) الرضا لابن أبي الدنيا (٧٥).

(٤) حلية الأولياء (٣/ ١٩٥).

فهذا إبليس لما أُمِر بالسجود عصى؛ لأنه لم يرضَ بما أمره الله به، فقال: كيف أسجد لبشرٍ خلقتَه من ترابٍ؟ فعدم رضاه أدى به إلى معارضة أحكام الله.

وهؤلاء -منافقو عصرنا- الآن لا يرضون بحكم الله في الربا، والحجاب، وتعدّد الزوجات، وهم في كل مقالاتهم المكتوبة والملفوظة في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه!!، كأنهم يقولون: لماذا فرضتَ علينا كذا؟ ولماذا أوجبت علينا كذا؟ وهم وإن لم يبوحوا بهذا صراحة، إلا أن كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه!

فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة.

- **الإشعار بعدل الرب:**

لذلك أمرنا ﷺ أن يقول أحدنا إذا أصابه هم أو حزن: «**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ**»[1]، والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ.

وعدل الله موجود في كل شيء، حتى في العقوبات، فقطع يد السارق عدلٌ؛ لأنه عقوبةٌ على ما اقترفته يداه.

فالله عدلٌ في قضائه، وعدل في عقوباته، فلا يُعتَرض عليه؛ لا في قضائه، ولا في عقوباته.

- **شكره سبحانه:**

من أهم ثمرات الرضا: الشكر.

فصاحب السخط لا يشكر؛ لأنه يشعر أنه مغبونٌ، وحقّه منقوصٌ، وحظّه مبخوسٌ! وقد يرى أنه لا نعمة لله عليه أصلاً!.

فالسخط نتيجته كفران المنعم والنعم، والرضا نتيجته شكران المنعم والنعم.

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٩).

- **تهوين المصائب:**

قال بعضهم:

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالصَّبْرِ وَالرِّضَا   بِمَقْدُورِ رَبِّي تُكْفَ مَا أَنْتَ رَاهِبُ
وَإِنَّكَ إِنْ عَوَّدْتَ نَفْسَكَ بِالرِّضَا   بِمَقْدُورِهِ هَانَتْ عَلَيْكَ المَصَائِبُ[1]

- **الوقاية من الحسد والحقد:**

لرضا يفتح باب السلامة من الغش، والحقد، والحسد؛ لأن المرء إذا لم يرضَ بقسمة الله، سيبقى ينظر إلى نعمة فلانٍ، وهناء فلانٍ؛ فيبقى حاسداً لغيره على الدوام، ومتمنٍّ زوال لنعمة عن الآخرين، والسخط هو الذي يُدْخِلُ صاحبه هذا الباب.

- **التيقن من حكمة الله سبحانه:**

قد يوسوس الشيطان للإنسان الساخط على أقدار الله، فيقول له: ما الحكمة من هذا؟ وما الحكمة في هذا؟

أما الرضا: فيجعل الإنسان واثقاً من حكمة الله وعلمه، مستسلماً لأمره وقَدَرِه؛ لذلك فإن (الرضا واليقين) أخوان مصطحبان، و(السخط والشكّ) توأمان متلاصقان!!

- **سبق العاملين:**

إن الرضا عملٌ قلبي من أرفع أعمال القلوب وأعظمها شأناً، وقد يبلغ العبد بهذا العمل منْزِلة تسبق منزل من أتعب بدنه وجوارحه في العمل؛ مع أن عمله أقل من عملهم.

ولذلك يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ: «فطريق الرضى والمحبة تُسَيِّرُ العبدَ، وهو مستلقٍ على فراشه؛ فيصبح أمام الركب بمراحل»[2].

وهذا مما يميز أعمال القلوب بوجه عام عن غيرها من أعمال الجوارح؛ فإن التفكر

---

(١) نشر طي التعريف (ص ١٥٧).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٧٦).

والتأمل قد ينال العبدُ عليهما أجراً عظيماً؛ وإن كان جالساً على فراشه مرتاحاً، بعكس عمل الجوارح التي لابد فيها من العمل والمجاهدة.

ولا يعني هذا أن يقعد الرجل عن العمل أبداً، فلا يصلي، ولا يزكي، ولا يصوم، ولا يحج، ويدّعي مع هذا أن العبادة عملٌ قلبي، وأنه بمحبة الله والرضا عنه قد استغنى عن عمل الجوارح.

فهذا ضلال عظيم، وباب فتنة كبير، دخل منه إبليس على قلوب بعض الناس، فزادهم ضلالاً إلى ضلالهم، وكفراً إلى كفرهم، ولو صدق ما ادعوه؛ لظهرت آثار الأعمال القلبية على جوارحهم.

• مضاعفة الثواب:

أعمال القلوب الصالحة لها شأن عظيم في مضاعفة الثواب؛ لأن أجرها لا ينقطع، وليس له حدٌّ، بخلاف ثواب أعمال الجوارح التي لها حدٌّ معين.

فإذا صلى الإنسان لربه؛ فإن ثواب تلك الصلاة ينقطع بانتهائه منها، بعكس الرضا الذي لا يتوقف ثوابه، فإذا كان الإنسان يفكر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه، ثم عرضت له مسألةٌ حسابيةٌ -مثلاً- فإن أجر الرضا لا ينقطع، وإن شُغِل الذهن بشيءٍ ثانٍ؛ لأن أصله موجودٌ.

وكذلك الخوف من الله لا ينقطع أجره بالانشغال بشيء آخر، فلو كان الإنسان يبكي من خشية الله، ثم عرض له عارضٌ شغله عن البكاء، فإن أجر البكاء، والخشية، والخوف من الله لا يزال مستمراً؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركوزٌ في الداخل، وهذا من عجائب أعمال القلوب.

• الحصول على العزة وغنى النفس:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، قال بعضهم في تفسير الآية: «تُعِزُّ بالقناعة والرضا، وتُذِلُّ بالحرص والطمع»(١).

(١) روح المعاني (٣/ ١١٤).

وقال الرامهرمزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أخذ من الدنيا شيئاً على طريق الاقتصاد، والرضا بالقسم؛ حيا بعز القناعة وغنى النفس حياة طيبة، ومن طمح بصره إلى كل ما يرى من المتاع بها؛ فهو في منزلة البهيمة التي تأكل فتمتلئ، فتديره في فمها، ثم تعاود الأكل، لا تعرف غير هذه الحال»[1].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى، والتسليم لأمره»[2].

- **والخلاصة: أن الرضا سبب للخير كله:**

كتب عمر بن الخطاب لأبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر»[3].

* * *

---

(١) أمثال الحديث (ص ٤٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٧٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٦٨٨).

الفرق بين الرضا وبين الخوف والرجاء

إن الرضا لا يفارق أصحابه الملترمين به، لا في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا يوم القيامة، ولا في الجنة.

لأنهم يرضون عن الله سبحانه في دنياهم.

ويرضون عنه في قبورهم.

ويرضون عنه عند دخول الجنة، نسأل الله من فضله!.

أما الخوف والرجاء: فإن أصحابهما قد يخافون عذاب الله، ويرجون رحمته في دنياهم.

وفي البرزخ يرجون الله أن يقيمَ الساعة؛ ليدخلوا الجنة إن كانوا من أهلها.

كما أنهم يخافون الله عند الوقوف بين يديه، ويرجون أن يرحمهم، ويخلصهم من هذا الموقف.

فإذا دخلوا الجنة لم يعد هناك خوفٌ أبداً؛ لأن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

كما أنهم لا يرجون مثل رجاء الدنيا.

فهذا هو الفرق بين هذه المقامات القلبية الثلاثة.

والآيات الدالة على رضا أهل الجنة كثيرة، فالله يُرضي أهل الإيمان والذين الذين ضحُّوا في سبيله، يرضيهم يوم القيامة، ويعطيهم حتى ينالوا كل ما كانوا يرجونه وزيادة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [الحج ٥٨-٥٩].

ويوم القيامة ستكون العيشة الراضية عاقبة أهل اليمين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩-٢١].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-٧].

والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

الخاتمة

فيما سبق ذكره يؤكد لنا أن الرضا من أهم الأعمال القلبية التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن لكل شيء كَرَماً، وكَرَم القلوب الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

والرضا درجة عزيزة لا يصل إليها إلا أقل الناس.

قال شعيب بن حرب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس في الخلق شيءٌ أقل من الخوف والرضا»[2].

والرضا هو طريق الهدى، وسبيل أهل التقوى، ومذهب من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه؛ فهو يؤمن بالقدر كله، خيره وشره، وأنه واقع، وبمقدور الله جَرى، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

قال إسحاق بن هانئ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حضرت رجلا عند أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وهو يسأله، فجعل الرجل يقول: يا أبا عبد الله، رأس الأمر وجماع المسلم على الإيمان بالقدر، خيره وشره، حلوه ومره، والتسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله؟ قال أبو عبد الله: نعم»[3].

فلنتقم نفسك على الرضا، لعلك تنال بذلك فلاح الدنيا والآخرة.

يقول المرندي:

وَنُعَوِّدُ الصَّبْرَ الجَمِيلَ نُفُوسَنَا　　　إِنَّ الرِّضَا بِقَضَائِهِ أَوْلَى لَهَا[4]

نسأل الله أن يرزقنا عملا صالحا يرضيه عنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

---

(١) تاريخ دمشق (٥/ ٣٠٨)

(٢) الرضا عن الله بقضائه (ص ١٠٧).

(٣) الإبانة (٢/ ٢٦٢)

(٤) تبيين كذب المفتري - لابن عساكر (ص ٢٩١)

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع، أسئلة إجاباتها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. اذكر درجات الرضا من جهة حكمها.

٢. ما معنى الرضا بالله ربا؟

٣. ما معنى الرضا بالإسلام دينا؟

٤. تتمثل مظاهر الرضا بمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً في أمور، اذكر ثلاثة منها.

٥. هل الرضا يتنافى مع البكاء على الميت؟

٦. اذكر أربعاً من أسباب تحصيل الرضا.

٧. ما الفرق بين الرضا والصبر؟

٨. اذكر أربعاً من ثمرات الرضا.

٩. اذكر صوراً من الأمور التي تنافي الرضا بالقضاء والقدر.

١٠. ما الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لزيد بن ثابت رضي الله عنه في باب الرضا؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله؟

٢. اذكر بعضاً من الأسباب التي تعين على تحصيل الرضا، غير ما ذكر في الفصل.

٣. كيف تكون مجالسة الفقراء سبباً من أسباب تحصيل الرضا؟

٤. هل الرضا شيء وهبي يهبه الله للإنسان، أم هو كسبي يمكن للعبد أن يُحصِّلَه بالمجاهدة ورياضة النفس؟

٥. اشرح مقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر».

٦. ما الفرق بين الرضا، وبين الخوف والرجاء؟





الشكر

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:

فمنزلة الشكر من أعلى المنازل، وهو نصف الإيمان، وقد أمر الله به، ونهى عن ضدِّه، وأثنى على أهله، ووصف به خواصَّ خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهلَه بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر أنَّ أهلَه هم المنتفعون بآياتِه.

نسألُ اللهَ أن نكونَ مِنْ أهلِه.

* * *

تعريف الشكر

الشكر في اللغة:

الشكر: هو الاعتراف بالإحسان، ونشره.

يقال: شكر، يشكر، شُكراً، وشكوراً، وشكراناً.

ويتعدى بنفسه، وباللام؛ فتقول: شكرته، وشكرت له، وقيل: تعديته باللام أفصح.

وتشكَّر له: شكره.

ورجل شكورٌ: كثير الشكر.

والشكران: خلاف الكفران.

والشكر أيضاً هو ظهور أثر الغذاء في جسم الحيوان، والشَّكور من الدواب: الذي يسمن على العلف القليل.

واشتكرتْ السماءُ: أي اشتد وقع مطرها، وأشكر الضرع واشتكر: امتلأ لبناً[1].

فمعاني الشكر تدور حول الزيادة والنماء.

الشكر في الاصطلاح:

الشكر في الاصطلاح هو: الاجتهاد في بذل الطاعة، مع اجتناب المعصية، في السر والعلانية.

---

(١) لسان العرب (٤/ ٤٢٤)، تهذيب اللغة (١٠/ ١٠).

وقال بعضهم: «الشكر: هو الاعتراف بالتقصير في شكر المنعم»[1].

وقال الفراء: «الشكر: معرفة الإحسان، والتحدث به»[2].

فالشكر - إذن - : ظهور أثر النعم الإلهية على العبد: في قلبه إيماناً، وفي لسانه حمداً وثناءً، وفي جوارحه عبادة وطاعة.

* * *

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٣٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٦٦).

الفرق بين الحمد، والشكر

الحمد: هو الثناء بالقول على المحمود، بصفاته اللازمة، والمتعدية.

أما الشكر: فإنه يكون باللسان، والجنان، والأركان، ولكنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية.

فالحمد لا يكون إلا بالقول، أما الشكر: فيكون بالقول، والفعل، والقلب.

والحمد يكون بالصفات اللازمة، كالجمال، والمتعدية، كالإحسان، وأما الشكر: فلا يكون إلا على الصفات المتعدية، كالإحسان.

وقد يقع كلٌّ منهما موقع الآخر[1].

وقيل: يوضع الحمد موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد[2].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٣).

(٢) أدب الكاتب (ص٣١).

متعلقات الشكر

لما عرفنا أن الشكر: عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه؛ عرفنا أن الشكر يتعلق بثلاثة أمور: القلب، واللسان، والجوارح.

الشكر بالقلب:

الشكر بالقلب: هو علمه بأن الله هو المنعم بكل النعم التي يتقلب فيها.

وبعض الناس ينسب النعم لمن أعطاه إياها، من غنيّ، أو وجيه، وينسى الله الذي أعطى الغني لكي يعطيه، والغنيّ مجرد وسيلة، والمعطي -حقيقة- هو الله، والناس -وللأسف- يشكرون المَعْبَر، ولا يشكرون المصدر!.

ولذلك، من المهم في تربية الأطفال أن يُعرَّفوا من أين جاءت النعم، وأن الله تعالى هو مصدر الرزق؛ فينشأ الطفل شاكراً ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

وبعد هذه المعرفة: فعلى الشاكر أن يحب المنعم والمتفضل عليه، بالنعم الظاهرة، والباطنة.

الشكر باللسان:

لسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله، لهج اللسان بحمده، والثناء عليه، وتأمل ما في أذكار النبي ﷺ من الحمد، والشكر، لرب العالمين:

١. فكان النبي ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[1]، وأمرنا بأن نقول هذا الدعاء: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٠١)، وحسنه الألباني.

٢. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لاَ كَافِيَ لَهُ، وَلاَ مُؤْوِيَ»[1].

٣. وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ للهِ، كَثِيراً، طَيِّباً، مُبَارَكاً فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا»[2].

٤. وفي دعاء سيد الاستغفار: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»[3].

٥. ومن أدعية التهجد: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»[4]، «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرَكَ»[5].

٦. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: فقدت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[6].

٧. وفي أدبار الصلوات: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بيده وقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، ... لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[7].

الشكر بالجوارح:

والشكر بالجوارح يكون بالعمل الصالح، ومن وصايا القرآن لمن بلغ الأربعين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ

---

(١) رواه مسلم (٢٧١٥).

(٢) رواه البخاري (٥٤٥٨)

(٣) رواه البخاري (٦٣٠٦)

(٤) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩)

(٥) رواه أبو داود (٧٧٥)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود

(٦) رواه مسلم (٤٨٦)

(٧) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]، فسأل الله العمل الصالح، عقب سؤاله التوفيق إلى شكر نعمته.

ومن وسائل الشكر بالجوارح: التصدق عن كل مفصل، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، -وعدد المفاصل ثلاثمئة وستون مفصلا، فكيف يؤدى شكر هذه المفاصل؟-، قال: «فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ»[1].

وعنه أيضا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ». قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ، وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: «لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ: التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَالْعَظْمَ، وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ، وَالْأَبْكَمَ، حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»[2].

والصدقات كثيرة جداً، جمعها الحافظ ابن رجب في شرحه على الأربعين النووية، المسمى «جامع العلوم والحكم»، ومنها: الصدقات البدنية، كما فعل ذو القرنين، عندما علّم شعباً جاهلاً صناعة السدود؛ حتى تقيهم شر أعدائهم.

وكذلك من شكر الجوارح: سجود الشكر.

فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أنه كان إذا جاءه أمر سرور، أو بُشِّرَ به؛ خر ساجداً؛ شاكراً لله»[3].

---

(١) رواه مسلم (٧٢٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٤٨٤)، وصححه محققو المسند.

(٣) رواه أبو داود (٢٧٧٤)، وصححه الألباني.

وأبـو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما جاءه خبر قتل مسـيلمة المرتد، الذي ألَّـب عليه العرب، وكان من أشد الناس على المسلمين: خرّ لله ساجداً[1].

وعـن أبي موسـى الهمـذاني قال: كنت مـع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم النهـروان، فقال: «التمسـوا ذا الثُّدَية». فالتمسـوه، فجعلوا لا يجدونه، فجعل يعرق جبين عليٍّ، ويقول: «والله ما كَذَبت، ولا كُذِبت». فالتمسوه قال: فوجدناه في ساقية، أو جدول تحت قتلى، فأُتي به علي، فخر ساجداً[2].

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد أخبر علياً بأن ذا الثدية يكون مع الخوارج.

وكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تاب الله عليه: خر ساجداً؛ شكراً لله[3].

وعـن علـي بن زيد بن جُدعـان قال: «كنا عند الحسـن البصري وهو متـوارٍ في منزل أبي خليفة العبدي، فجاء رجل فقال: يا أبا سعيد، توفي الحجاج. فخرّ ساجداً»[4].

وسـجود الشـكر لا يشرع لكل نعمة؛ وإنما يشرع للنعم المتجـددة، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُجُودُ الشُّكْرِ سُنَّةٌ عِنْدَ مُفَاجَأَةِ نِعْمَةٍ، أَوِ انْدِفَاعِ نِقْمَةٍ، وَلَا يُسَنُّ عِنْدَ اسْتِمْرَارِ النِّعَمِ»[5].

فمن النعم المتجددة مثلاً: ولادة مولود، أو الانتصار في معركة؛ ونحو ذلك.

الصلاة جامعة لأنواع الشكر الثلاثة:

فهي شكر بالقلب؛ لما تتضمنه من الإخلاص، والخشوع.

وشكر باللسان؛ لما تتضمنه من قراءة للقرآن، وذكر للرحمن.

وشكر بالجوارح؛ لما تتضمنه من سجود، وركوع، وتسليم.

فالمحافظة على الصلاة سبيلٌ لأداء الشكر لله سبحانه وتعالى.

---

(١) معرفة السنن (٤/ ٧٣)، زاد المعاد (٣/ ٥١١).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٥٩٦٢).

(٣) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

(٤) فضيلة الشكر، للخرائطي (٦٦).

(٥) روضة الطالبين (١/ ٣٢٤).

معاني الشكر الثلاثة

ينطوي معنى الشكر على معرفة ثلاثة أمور، هي معاني الشكر الثلاثة:

١. معرفة النعمة: أي استحضارها في الذهن، وتمييزها، والمسلم يتوصل بمعرفة النعمة إلى معرفة المنعم بها، فإذا عرف المنعمَ أحبّه، فإذا أحبه جَدَّ في طلبه وشكره، ومن هنا تحصل العبادة؛ لأنها طريق شكر المنعم، وهو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٢. قبول النعمة وتلقيها: بأن يرضى العبد بما قسم له ربه من النِّعَم، ولا يحتقر النعمة التي أنعم الله بها عليه.

٣. الثناء على المنعم: وهو نوعان:

عام: وهو أن تصفه بالجود، والكرم، والبر، والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك

وخاص: وهو أن تتحدث بنعمه عليك، وتخبر بوصولها إليك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى ١١].

والتحديث المأمور به هنا فيه قولان:

القول الأول: أن تستعملها في طاعته.

والقول الثاني: أن تذكر النعم التي أنعم الله بها عليك، وتعدّدها، فتقول: «أنعم الله علي بكذا، وكذ ...»، ولذلك قال بعض المفسرين في تفسير الآية: «أي اشكر ما ذكره من النعم عليك في هذه السورة، من جبرك يتيماً، وهدايتك بعد الضلال، وإغنائك بعد العيلة».

قال أبو رجاء العطاردي: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خزّ، لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[1].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال النبي ﷺ على المنبر: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»[2].

وقال ﷺ: «كُلُوا، وَاشْرَبُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَالْبَسُوا، فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ، وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ»[3].

وقال الحسن: «أكثروا ذكر هذه النعمة؛ فإن ذكرها شكر»[4].

ويقول الحبيشي:

نُحَدِّثُ بِالنَّعْمَاءِ شُكْراً لِرَبِّنَا ... عَلَى مَا حَبَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَمَا وَهَبْ
نَقُولُ بِهَذَا لَا لِفَخْرٍ وَنَخْوَةٍ ... وَلَكِنْ لِشُكْرِ اللهِ فَالشُّكْرُ قَدْ وَجَبْ[5]

ضابط التحديث بنعمة الله:

ينقسم الخلق في تحديثهم بالنعمة إلى ثلاثة أصناف:

١. شاكر للنعمة، مثنٍ بها.

٢. وجاحدٌ، كاتم لها.

٣. ومظهرٌ أنه من أهلها، وهو ليس من أهلها.

---

(١) رواه أحمد (١٩٩٤٨)، وصححه محققو المسند.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١٨٤٧٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٦٦٧).

(٣) رواه أحمد (٦٧٠٨)، وحسنه محققو المسند.

(٤) شعب الإيمان (٤٤٢١).

(٥) بشر طي التعريف (ص١٥٤).

فيظن بعض الجهال من الناس أن من التحديث بنعمة الله أن يشتري فاخر الثياب، ويركب أفخم السيارات، ويأكل أفضل الطعام وأثمنه، وذلك كله من الخطأ بمكان؛ فإن التحديث بنعمة الله إنما يكون بما يرزقك الله به، فإن آتاك خيراً كثيراً، لبست واشتريت ما يدل على سعة رزق الله عليك، وإن رزقك الله ما يكفي مؤونتك، وعيالك، ولم يوسع عليك كثيراً، تشتري ما يناسب الحال، وتنفق، ولا تتوسع، وتحمّل نفسك ما لا تطيق.

عن أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[1].

وعن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا قَشِفُ الهيئة فقال: «**هَلْ لَكَ مَالٌ؟**» قُلْتُ: نعم. قال: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**» قُلْتُ: من كل المال؛ من الإبل، والرقيق، والخيل، والغنم. فقال: «**إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً فَلْيُرَ عَلَيْكَ**»[2].

فبيّن أن التحديث بنعمة الله وإظهارها، إنما يكون إذا آتاك الله مالاً.

متى يترك التحدث بالنعمة؟

ترك التحدث بالنعمة عند أهل الحسد ليس من كُفرها، فهو لم يكتم ذكر النعمة شحاً بذلك، وتقصيراً في حق الله، ولكن لدرء مفسدة، وهي حسد صاحب العين، وكيده، وضرره، ودفع الضرر من المقاصد الشرعية.

* * *

(١) رواه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٢١٢٩).

(٢) رواه أحمد (١٥٩٢٩)، وصححه محققو المسند.

كيفية الشكر

إن شكر العبد لنعم الله لا يتم إلا بتحقيق خمسة أمور:

١. الخضوع لله، يقول البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العمدة في شكر النعمة: استعمالها فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانحها»[١].

٢. حبه سبحانه.

٣. الاعتراف بنعمته، والإقرار به.

٤. الثناء عليه بها.

٥. أن لا يستعملها فيما يكره، بل يستعملها فيما يرضيه. قال محمد بن كعب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشكر: تقوى الله، والعمل بطاعته»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «أصل الشكر. هو الاعتراف بإنعام المنعم، على وجه الخضوع له، والذل، والمحبة.

فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلاً بها: لم يشكرها.

ومن عرفها، ولم يُعَرِّف بها: لم يشكرها أيضاً.

ومن عرف النعمة، والمنعم، لكن جحدها، كما يجحد المنكر نعمة المنعم عليه بها: فقد كفرها.

ومن عرف النعمة، والمنعم به، وأقر بها، ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ولم يحبه، ويرض به، وعنه: لم يشكره أيضاً.

(١) تفسير البيضاوي (٤/ ٩٣).

(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٣٥٤).

ومن عرفها، وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه، ورضي به، وعنه، واستعملها في محابه، وطاعته: فهذا هو الشاكر لها»[١].

درجات الشكر لله:

هناك مسألة مهمة: وهي أن النعم إذا كانت تتفاضل فيما بينها، فهل يتفاضل الشكر؟

الجواب: نعم، إن الشكر لابد أن يكون متفاضلاً أيضاً من قِبَل العبد، فكلما عظمت النعمة، وجب أن يزداد شكرها لله سبحانه وتعالى.

مقابلة النعمة:

الشكر لله ليس من باب مقابلة النعمة؛ فإن مقابلة النعمة غير ممكنة، والله سبحانه وتعالى لا يناله شيء من عباده، كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج ٣٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ: أَنَّ داود، عليه السلام، قال: يارب، كَيْفَ أَشْكُرُكَ وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «الْآنَ شَكَرْتَنِي يَا دَاوُدُ». أَيْ: حِينَ اعْتَرَفْتَ بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ النِّعَمِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يُؤَدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ، إِلَّا بِنِعْمَةٍ تُوجِب عَلَى مُؤدى مَاضِي نعمه بِأَدَائِهَا، نِعْمَةً حادثة تُوجِبُ عَلَيْهِ شُكْرَهُ بِهَا»[٢].

والحمد لله الذي لم يُكلِّفنا بأداء مقابل النعمة، بل عفا عنا في ذلك، ورحم ضعفنا، فأنعم علينا النِّعَمَ السابغة، الكثيرة، وقَبِلَ من الشكر القليل، قال سليمان التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله أنعم على العباد على قَدْرِه، وكلفهم الشكر على قدرهم»[٣].

***

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٧١١).

(٣) الشكر، لابن أبي الدنيا (٨).

حكم الشكر

الشكر من أوجب الواجبات على المسلم، عليه أن يعرفه، ويتأمله، ويحقق معانيه في نفسه.

وقد دلت الأدلة الشرعية على وجوب الشكر، ومن تلك الأدلة:

- **الأمر المباشر بالشكر:**

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ففي الآية أمر صريح مباشر بالشكر، والأمر يقتضي الوجوب.

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وسئل الرسول ﷺ: أي المال نتخذ؟ فقال: «**لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْباً شَاكِراً، وَلِسَاناً ذَاكِراً، وَزَوْجَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ الآخِرَةِ**»[1].

- **ذم ترك الشكر:**

قال تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥].

يقول البيضاوي في تفسير هذه الآية: «أمر بالشكر من حيث إنه إنكار لتركه»[2].

- **أمر الأنبياء بالشكر:**

ليس الشكرُ من العبادات التي أمرت بها هذه الأمة فقط، بل أُمِرَ به مَن قبلَنا من الأمم،

---

(١) رواه ابن ماجة (١٨٥٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) تفسير البيضاوي (٤/ ٢٦٨)

وذكر الله سبحانه وتعالى أنه أمر الأنبياء بذلك، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

- **تعليق العبادة بالشكر:**

فالعبادة مترتبة على الشكر، فمن كان شاكراً فهو عابد لله، ومن لم يكن كذلك فليس بعابد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

- **بيان أن الغاية من الخلق والأمر هو الشكر:**

أخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من الخلق والأمر.

أما كونه الغاية من الخلق: ففي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

فبيّن أنه أخرجهم من بطون أمهاتهم، وجعل لهم السمع، والأبصار، والأفئدة؛ لعلهم يشكرون.

وأما كونه الغاية من الأمر: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فبين أنه أمرهم بالتقوى؛ ليشكروه.

فالشكر غاية الخلق، وغاية الأمر، خَلَقَ لِيُشْكَرَ، وأَمَرَ لِيُشْكَرَ.

- **ورود الكفر في معرض الذم:**

لقد ذم الله تعالى الكفر في مواطن متعددة من القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وهذا الذم يُستنتج منه أنه لابدَّ من القيام بضده، والذي هو الشكر، فتبين بهذا وجوب الشكر.

- **تقسيم الناس إلى شاكر، وكافر:**

لقد قسم الله سبحانه وتعالى الناس إلى قسمين: قسمٌ شاكر، وقسمٌ كافر، ولا ثالث لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وفي موت نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام أخبر الله أن الناس ينقسمون فيه إلى قسمين: كافر، منقلب على عقبيه، ومؤمن، شاكر، راضٍ بما كتبه الله، وذم الكافرين، ومدح الشاكرين، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فتبين من هذا التقسيم وجوب الشكر؛ لأن الكفر محرمٌ منهي عنه، وهو من أبغض الأشياء إلى الله، ولا يرضاه للناس، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

* * *

الأمور التي تؤدي إلى الشكر

لقد دلنا القرآن الكريم، والسنة النبوية، إلى بعض الطرق التي إذا سرنا فيها وصلت إلى شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه، ومن تلك الأمور.

• النظر إلى من هو دونك:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[1].

وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لما عُرِض على آدم ذريته، رأى فضل بعضهم على بعض، فقال: رب! لو سويت بينهم. قال: يا آدم، إني أحب أن أشكر، يرى ذو الفضل فضله؛ فيحمدني، ويشكرني»[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الله سبحانه يحب أن يشكر، ويجب أن يُشكر، عقلاً، وشرعاً، وفطرةً، فوجوب شكره أظهر من وجوب كل واجب، وكيف لا يجب على العباد حمده، وتوحيده، ومحبته، وذكر آلائه، وإحسانه، وتعظيمه، وتكبيره، والخضوع له، والتحدث بنعمته، والإقرار بها، بجميع طرق الوجوب؟

فالشكر أحب شيء إليه، وأعظم ثواباً، وله خَلق الخلق، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وذلك يستلزم خلْق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل، ومن جملتها: أنْ فاوت بين عباده في صفاتهم الظاهرة، والباطنة: في خلْقِهم، وأخلاقهم، وأديانهم، وأرزاقهم، ومعايشهم، وآجالهم، فإذا رأى المعافى المبتلى، والغنيُّ الفقيرَ، والمؤمنُ الكافرَ؛ عظُم

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣)

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٢٢٧)

شكره لله، وعرف قدر نعمته عليه، وما خصّه به، وفضّله به على غيره، فازداد شكراً، وخضوعاً، واعترافاً بالنعمة»[1].

ومما يحفظ العبد من ترك الشكر، عندما ينظر إلى من هو فوقه: أن يعلم ويؤمن أن هذه قسمة الله، لأن بعض الناس إذا رأى من هو أحسن منه لم يشكر ربه، فليعلم أن الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

- **تذكر نعم الله تعالى:**

إن نعم الله على العبد لا تُعَدُّ، ولا تُحْصَى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

والعبد إذا تذكر تلك النعم: بعثته وحثته على شكر الله سبحانه وتعالى، يقول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر النعمة سبب باعث على شكرها»[2].

كما أن الجهل بها سببٌ لعدم الشكر، قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما انْسَدَّ طريق الشكر على الخلق؛ لجهلهم بضروب النعم الظاهرة، والباطنة، والخاصة، والعامة»[3].

فأول نعمة أنعمها الله على خلقه: نعمة الخلق والإيجاد، فلم يجعلنا عدماً.

ثم أنعم علينا بنعمة الآدمية والإنسانية، فلم يجعلنا جماداً، أو حيوانات.

ثم أنعم علينا بنعمة الإسلام والإيمان، فلم يجعلنا يهوداً، أو نصارى، أو بوذيين.

ثم أنعم علينا بنعمة الهداية، فلم يجعلنا من فساق وضلال المسلمين.

ثم أنعم علينا بنعمة السنة والجماعة، فلم يجعلنا من الفرق المبتدعة.

فإذا علمت -أخي المسلم- أن هذا كله من نعم الله عليك، كان حرياً بك أن تكون له شاكراً، ذاكراً، مخبتاً، منيباً، مطيعاً له بأنواع الطاعات.

(١) شفاء العليل (ص ٢٢١).

(٢) فتح القدير (٢/ ٣١٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ١٢٦).

وإن تذكير عموم الناس بنِعَمِ الله عليهم من الأمور المهمة في الدعوة، فانظر إلى هذه الشمس، وكيف خلقها في هذا المكان، وجعلها تطلع في أزمنة معينة، بحيث لو بعُدت لتجمد الخلق، ولو اقتربت لاحترق الخلق.

وانظر إلى القمر، كيف لو أنه قد قرب لزاد المدّ، وغرقت الدنيا، ولو بعُدَ ليبست.

وتأمل لو لم يكن هناك غلاف جوي في الهواء، كيف كنا سنجد الأشعة الضارة عنّا.

ومن نعم الله عليك أيها الآدمي: أن الله عَزَّوَجَلَّ خص أباك آدم بخلقه بيده، من بين سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وتأمل في الآيات الكونية التي أنعم الله بها عليك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وقال تعالى في سورة النحل، التي تسمى سورة النِّعَم؛ لكثرة ما فيها من ذكر النِّعَم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤-١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

ومن نِعَم الله علينا إكمال الدين، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

ومن ضلال البعض: نسبة نعم الله لنفسه، وذكائه، وقدرته، كفعل قارون الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

أو نسبة نعم الله إلى الآلات، كما يفعله بعض الجهال المعاصرين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

ويستشكل البعض ما يُؤثَر عن بعض السلف، من أنهم وَدُّوا لو لم يخلقوا؛ فيظن أن هذا من باب عدم استشعار نِعْمَةِ الإيجاد والإحياء.

والحق أن هؤلاء السلف من أهل الشكر، ولكنهم قد تعتريهم بعض حالات الخوف، فيغلب عليهم؛ فيودون لو أنهم لم يأتوا إلى هذه الحياة؛ لئلا يحاسبوا، لا أن ذلك عادتهم ودأبهم.

• عِلم العبد أنه مسؤول عن النعم:

أن يعلم العبد أنه مسؤول عن النعم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فإذا عرف أنه مسؤول عن النعم يوم القيامة، ومحاسب عليها، حتى الماء البارد: قام بالشكر؛ مخافة أن يحاسب!.

ويشتط بعض الناس في فهم هذه المسألة، فيحرمون على أنفسهم النعم؛ لئلا يسألوا عنها يوم القيامة، والله سبحانه قد رضي لنا أن نستمتع بها، وأمرنا بشكرها: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]

بل إن شكر هذه النعم لا يكون إلا بعد الاستمتاع بها.

وقد يُحرِّم بعضهم على نفسه الاستمتاع بشيء من النعم، ويستمتع بما قد يكون أكثر نعمة.

جاء رجل إلى الحسن البصري فقال: إن لي جاراً لا يأكل الفالوذج. فقال: «ولِمَ؟» قال. يقول: لا يؤدي شكره. فقال الحسن: «أيشرب الماء البارد؟» فقال: نعم. فقال: «إن جارك جاهل؛ فإن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر»[1].

ثم إننا نقول لهؤلاء القوم: هناك نِعَمٌ لا تستطيعون عدم الانتفاع بها، كنعمة التنفس، ودقات القلب، وجريان الدم، فهل تستطيعون شكرها؟

فإن قالوا: لا نستطيع شكرها.

نقول لهم: نعم، إنه لا يمكن للعبد أن يشكر نعمةً من نعم الله عليه، ولكن يتمتع بالنعمة، ويعترف بها، ثم يعترف بالتقصير في شكرها، والتقصير في أمر الله، كما كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي**»[2].

والخلاصة: أن من حرّم الطيبات على نفسه، وامتنع من أكلها بدون سبب شرعي. فهو مذموم مبتدع، ومن أكلها، بدون الشكر الواجب فيها فهو مذموم، وأهل الحق يتمتعون بالطيبات، بدون إسراف، ويشكرون الله على نعمه[3].

• **دعاء الله أن يعيننا على الشكر:**

ومن الوسائل: أن ندعو الله أن يعيننا على الشكر: فعن أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ الصُّنَابِحِيِّ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**». وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ[4].

• **معرفة أن الله يحب الشكر:**

قال قتادة: «إن ربكم منعم، يحب الشكر»[5].

---

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٢٤٣).

(٢) رواه البخاري (٥٩٤٧).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢١٢).

(٤) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

(٥) تفسير الطبري (٦/ ٢١٨).

ثمرات الشكر

للشكر ثمرات، وفوائد متعددة، وهذه الثمرات لا يعود شيءٌ منها لله، بل هي للعبد خاصة، فإذا شكر العبد فإنما شكره لنفسه، وإذا كفر فإنما كفره على نفسه، قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كما أخبر عنه سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ومن ثمرات وفوائد الشكر:

النجاة من عذاب الله:

فقد بيّن الله في كتابه أنه لا حاجة له إلى عذاب الخلق، إذا شكروا وآمنوا به؛ فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله جل ثناؤه لا يعذب شاكراً، ولا مؤمناً»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الله ليُمَتِّعُ بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشْكر: قَلَبَها عليهم عذاباً»[٢].

رضى الله سبحانه:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٤/ ٣٣٨).

(٢) الشكر، لابن أبي الدنيا (١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

الاختصاص بمنة الهداية:

لقد أخبر سبحانه وتعالى أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنة الهداية من بين عباده، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٥٣].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكراً نعمتي، ممن هو لها كافر، فمَنِّي على مَن مَنَنْت عليهم بالهداية جزاءُ شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبةُ كفرانه إياي»[1].

المحافظة على النعمة:

الشكر هو حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها، ولذلك كان بعض العلماء يسمي الشكر بـ(قيد النعم)؛ لأنه يقيد النعمة، فلا تنفلت، ولا تهرب.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيدوا نعم الله بشكر الله»[2].

الزيادة:

وعد الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العزيز الشاكرين بالزيادة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فالنعم تزيد بالشكر، وتحفظ من الزوال به.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغني أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أنعم على قوم سألهم الشكر، فإذا شكروه كان قادراً أن يزيدهم، وإذا كفروه كان قادراً أن يقلب نعمتهم عذاباً»[3].

ويقول الربيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله ذاكرٌ مَنْ ذكره، وزائد من شكره، ومعذبٌ من كفره»[4].

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٠٤).

(٢) شعب الإيمان (٤٥٤٦)

(٣) شعب الإيمان (٤٥٣٦)

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٩)

ولهذا كانوا يُسمون الشكر باسمين: (الحافظ)؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة، و(الجالب)؛ لأنه يجلب النعم المفقودة[1].

وَلاَ تَنْسَ شُكر الله فِي كُلِّ نِعْمَةٍ يَمُنُّ بِهَا فَالشُّكر يَسْتَجْلِبُ النِّعَمَا

عدم تعليق ثوابها بالمشيئة:

فقد علق الله سبحانه الكثير من الجزاء على المشيئة، كقوله في إجابة الدعاء: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وقوله في المغفرة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

وقوله في الرزق: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقوله في التوبة: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥].

وأما الشكر: فإنه أطلقه، فقال: ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فلم يقل: «سيجري الشاكرين إن شاء»، أو: «سيجزي إن شاء الشاكرين».

إجابة الدعاء:

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال: «لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه، ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم، واشتغلتم بعيوب الناس»[2].

* * *

(١) عدة الصابرين (ص٩٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ٣٠٣).

شكر الناس

لقد أمرت شريعتنا الإسلامية بشكر الناس على إحسانهم وفضائلهم علينا، ومن أخص من أُمرنا بشكره: الوالدان، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

قال العلماء: «أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان، والتزام البر والطاعة له والإذعان: من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته، وشكره بشكره، وهما الوالدان»[١].

كما أمر النبي ﷺ بشكر كل من أسدى إليك معروفاً؛ ففي حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُثْنِ بِهِ، فَمَنْ أَثْنَى بِهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»[٢].

فإن لم تجد ما تجزي به: فأثنِ على صاحب المعروف؛ كقولك له: جزاك الله خيراً؛ لأن الدعاء وسيلة للشكر، وقد قيل: «من قصرت يداه عن المكافآت، فليطل لسانه بالشكر».

ومن شُكر الناس: عدمُ إظهار معايب العطاء، قال المناوي رحمه الله: «ومن تمام الشكر: أن يستر عيوب العطاء، ولا يحتقره»[٣].

وقد قُرِنَ شكر الله بشكر الناس؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ١٧١).

(٢) رواه أبو داود (٤٨١٣)، وحسنه الألباني.

(٣) فيض القدير (٦/ ٢٢).

(٤) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وقال: حسن صحيح.

ومعنى الحديث: لا يقبل الله شكر العبد له إذا كان لا يشكر الناس على معروفهم.

أو معناه: من كان من طبعه وعادته كفر الناس؛ فسيكون من طبعه كفر خالق الناس.

وهناك فرق بين شكر العبد وشكر الرب:

فشكر الرب فيه خضوع، وذل، وعبودية، أما شكر العبد: فهو مجازاته على إحسانه، والدعاء له، ولا يجوز صرف شيء من الخضوع، والذل، والعبودية، له.

قال بعضهم: «الشكر لمن فوقك - أي الله - بالطاعة، ولنظيرك بالمكافآت، ولمن دونك بالإحسان»[1].

وأيضاً: فإن الله سبحانه هو المستحق للشكر المطلق العام التام، فشكر العبد إنما يكون جزاءً على ما يسره الله على يديه من الخير، فيشكر الوالدين على تربيتهما، والمعلم على تعليمه، وهكذا[2].

فليس شكر المخلوق قادحاً في شكر الخالق، بل المشكلة فيمن يشكر المخلوق ولا يشكر الخالق، هذه هي المصيبة.

طلب الشكر من الناس:

إن المسلم إذا نفع أخاه لا ينبغي له أن ينتظر الشكر منه، بل عليه أن ينتظر الأجر والثواب من الله، وعدم شكر أخيه له لا يعني عدم حصول قصده، إلا إذا كان قصده هو شكر الناس له، فهو - إذاً - صاحب رياء وسمعة، نسأل الله السلامة والعافية.

بل إن العلماء ذكروا أن صاحب المعروف إن كان يُعرَف منه أنه يريد الثناء، فلا ينبغي لمن أخذ منه المعروف أن يثني عليه ويشكره؛ لأن طلب الشكر ظُلْمٌ، وقد نهينا عن الإعانة على الظلم[3].

* * *

(١) روح المعاني (١/ ٢٥٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣٩).

(٣) الأذكار للنووي (ص٦١٥).

كفر النعمة

لكفر ضد الشكر، وقد حذّرنا الله سبحانه من كفر نعمه التي أنعم بها علينا، والسلف رضوان الله عليهم كانوا يخشون كثيراً من كفر النعمة.

فعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا قلّب بصره في نعمة أنعمها الله عليه قال: «اللهم إني أعوذ بك أن أبدّل نعمتك كفراً، أو أكفرها بعد معرفتها، أو أنساها، فلا أثني بها»[1].

وقد يحصل من بعض الناس كفرٌ للنعم في بعض الأحوال، فمن ذلك:

- **الكفر عند المصائب:**

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]. قال ابن جرير: «كفور لمن أنعم عليه، قليل الشكر لربه المتفضل عليه بما كان وهب له من نعمته»[2].

وإذا علم الإنسان أنه ما من مصيبة أصابته إلا بسبب ذنبه، فإنه يحمد الله على هذا، ويلوم نفسه على التقصير. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد ذم الله الكنود، وهو الذي يكفر بالنعمة عند المصيبة، قال الحسن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، قال: «أي: يعدّ المصائب، وينسى النعم»[3].

(١) شعب الإيمان (٤٥٤٥)

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٩)

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٠٠)

وإذا نظرت إلى بعض التجار اليوم تجده يجحد النعمة، ولا يقرّ بها؛ لقلة الربح عن ذي قبل، أو حصول بعض الكساد في تجارته، ويقول: ليس هناك بيع ولا خير، وإنما نعيش في خسارة! والواجب عليه أن يحمد الله على كل حال.

وهذا الأمر في النساء أظهر، فلو أحسنتَ إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك تقصيراً؛ قالت: ما رأيت منك خيراً قط!، وهذا ظلم، والنساء أكثر أهل النار؛ لأنهن يكفرن العشير، فإذا كان ترك شكر نعمة الزوج يولج النار، فما حال من يكفر نعمة الله؟!.

* * *

الصبر والشكر

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر»[1].

وقد تنازع أهل العلم في الفقير الصابر، والغني الشاكر، أيهما أفضل؟

فالشكر مع المعافاة -عند بعض أهل العلم- أعظم من الصبر على الابتلاء.

قال مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن أعافى فأشكر، أحبُّ إليّ من أن أُبتلى فأصبر»[2].

يعني: لو رزقت الشكر على النعم، خيرٌ من أن أبتلى فأصبر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى بأن نسأل الله العفو والعافية[3]، ولم يوص بسؤال المصيبة والصبر.

وذهب بعض العلماء إلى أن الصبر مع الابتلاء، خير من الشكر مع المعافاة.

والظاهر أن كلاً من الشكر والصبر في حق صاحبه أفضل، فالشكر في حق الغني أفضل، والصبر في حق الفقير أفضل.

سئل أبو سهل الصعلوكي رَحِمَهُ اللَّهُ عن الشكر والصبر: أيهما أفضل؟ فقال: «هما في محل الاستواء، فالشكر وظيفة السراء، والصبر وظيفة الضراء»[4].

الشكر على المصيبة:

والأرفع من الصبر على المصيبة: شكرُ الله عليها.

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٠٤).

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٦٨)، شعب الإيمان (٤٤٣٥).

(٣) سنن الترمذي (٣٥٩٤)، وحسنه.

(٤) الدر المنثور (١/ ٣٧١).

أُرِيحَتْ لِنَفْسِي عِلَّتَاهَا فَأَعْرَضَتْ عَنِ البَثِّ وَالشَّكْوَى إِلَى الشُّكرِ وَالحَمْدِ[١]

والمصيبة لا تخلو من نعمة يجب الشكر عليها.

قال إمام الحرمين الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ: «شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها؛ لأنها نعم بالحقيقة، بدليل أنها تعرّض العبد لمنافع عظيمة، ومثوبات جزيلة، وأغراض كريمة، تتلاشى في جنبها شدائد»[٢].

وقال شُريح رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم: أن لا تكون في دينه، وأن لا تكون أعظم مما كانت، وأنها لابد كائنة، فقد كانت»[٣].

فالعبد إذا علم هذا شكر الله على أن المصيبة لم تكن في دينه، ولم تكن أعظم مما هي عليه، ويحمد الله ويشكره أنها قد وقعت وانقضت.

ومما يُعين على الشكر على المصيبة: معرفةُ المحاسن المترتبة عليها، كالثواب الحاصل لمن أصابته تلك المصيبة، قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة: لم يُتصور منه الشكر على المصيبة»[٤].

* * *

(١) قرى الضيف (٢/ ٣٥٠)

(٢) فيض القدير (٢/ ١٣٣)

(٣) تاريخ دمشق (٢٣/ ٤٢)

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٣١).

الخاتمة

مَنَّ الله علينا بأنواع النعم الظاهرة، والباطنة، فوجب علينا شكره، وعبادته.

وقد وصف الله سبحانه الشاكرين من عباده بأنهم قليل؛ فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: «ما هذا؟» قال: يا أمير المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]. قال عمر: «صدقت»[1].

وسبب هذا: أن إبليس قد أخذ على عاتقه أن يضلّ البشر، ويمنعهم من الشكر، قال تعالى مخبراً عنه: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

فعرف إبليس أهمية منزلة الشكر، فأراد صدّ العبد عنها، قال بعضهم: «لو علم الشيطان أن طريقاً توصل إلى الله أفضل من الشكر: لوقف فيها»[2].

لذلك، فالشكر يحتاج إلى مكابدة، ومجاهدة.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] يقول الحسن رحمه الله: «يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء»[3].

---

(١) الزهد للإمام أحمد (٥٩٣)، عدة الصابرين (ص١١٨).

(٢) فيض القدير (١/٥٢٦).

(٣) تفسير القرطبي (٢٠/٥٦).

«اللهم وفقنا لإصابة صواب القول، والاعتصام بكتابك، وسنة نبيك، وأوزعنا الشكر على ما أنعمت به علينا، وارزقنا القيام بشكرك على الوجه الذي يرضيك عنا، واحفظنا من وساوس الشياطين، إنك سميع الدعاء.

وصلى الله على محمد النبي الأمي، وعلى آله، وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع، أسئلة إجاباتها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما الفرق بين الحمد والشكر؟

٢. للشكر ثلاثة معان، اذكرها.

٣. ما هو ضبط التحدث بنعمة الله تعالى؟

٤. متى يجب كتم النعمة؟

٥. تنوعت الدلائل الدالة على وجوب الشكر، اذكر بعضها.

٦. لتحقيق الشكر وسائل وطرق، فما هي أبرزها؟

٧. الشكر عبدة، ولكل عبادة ثمرات، فما هي ثمرات الشكر؟

٨. ما الفرق بين شكر الرب، وشكر العبد؟

٩. أيهما أفضل: الفقير الصابر، أم الغني الشاكر؟

١٠. تحدث الإمام ابن القيم عن الشكر والصبر بإسهاب في أحد مؤلفاته، فما هو اسمه؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. قال ابن القيم: «الإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر»، وضح ذلك.

٢. تتجلى في الصلاة أنواع الشكر الثلاثة، بيِّن ذلك.

٣. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ما التحديث المأمور به في هذه الآية؟

٤. متى يستحق العبد وصف «شاكراً لأنعمه»؟

٥. هل شكر العبد لله من باب مقابلة النعمة؟

٦. «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» اشرح هذا الحديث.

٧. ذكر العلماء حالة واحدة يحرم فيها شكر الناس للناس، فما هي؟

٨. لكفران النعم صور متعددة،ما هي أعظمها؟

٩. كيف نشكر الله على المصائب؟

١٠. «أفلا أكون عبداً شكوراً» ما مناسبة هذا الحديث؟

١١. اذكر كتابين تحدثا عن الشكر؟





الصبر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله جعل الصبر جواداً لا يكبو، وصارماً لا ينبو، وجنداً لا يُهزم، وحصناً لا يُهدم، ومطيّة لا يضلّ راكبها، فهو والنصر متلازمان؛ فإن النصر مع الصبر، ومحلُّه من الظفر محلُّ الرأس من الجسد وهو سبيل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة.

والصبر زاد المجاهد إذا أبطأ عنه النصر، وزاد الداعية إذا أبطأ عنه الناس بالإجابة، وزاد العالِم في زمن غربة العلم، فهو زاد للكبير والصغير، والرجل والمرأة، فبالصبر يعتصمون، وإليه يلجئون، وبه ينطلقون.

فما الصبر؟ وما أنواعه؟ وما ثمراته؟ وكيف نصل إليه؟ وما العوائق والآفات التي تقف في سبيله؟

هذا ما سنتطرق إليه في هذا الفصل.

نسأل الله الإعانة والتوفيق، إنه سميع مجيب الدعاء.

* * *

تعريف الصبر

الصبر في اللغة:

الحبس، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] يعني: احبس نفسك معهم.

وقال بنو إسرائيل؛ كما أخبر الله عنهم: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ [البقرة: ٦١]. أي: لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد.

وقُتِلَ فلان صبراً، أي: حُبِس لأجل أن يُقتل، حتى قُتِل.

يقال: صبر يصبر صبراً.

والصَّبْر نقيض الجزع، والرجل صابرٌ، وصبَّار، وصبير، وصبور، والأنثى صبور أيضاً.

والتصبر: تكلف الصبر.

وقيل: مراتبُ الصَّبرِ خمسةٌ: صابرٌ، ومُصْطَبِرٌ، ومُتَصَبِّرٌ، وصَبُورٌ، وصَبَّارٌ.

فالصابر: أعمه. والمُصْطَبِرُ: المُكتسِب للصبر المُبتلى به. والمُتَصَبِّرُ مُتكلِّف الصبر، حامل نفسه عليه. والصَّبُور: العظيم الصبر، الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الشديد الصبر[1].

والصبر في الاصطلاح:

حبس النفس عن محابها، وكفُّها عن هواها.

---

(١) تاج العروس (١٢/ ٢٧٣)، لسان العرب (٤/ ٤٣٨).

أو حبس النفس على فعل شيء أراده الله، أو عن فعل شيء نهى الله عنه.

ولذلك قيل للصابر على المصيبة: صابر؛ لأنه كَفَّ نفسه عن الجزع.

وسُمِّي رمضان شهر الصبر؛ لأن المسلمين يحبسون أنفسهم عن تناول الطعام، والشراب، والشهوات فيه[1].

***

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٦٠).

مراتب الصبر

الصبر ليس مرتبة واحدة، بل هو على مراتب، وبعض تلك المراتب أفضل من البعض الآخر.

فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي؛ لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات.

والصبرُ عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار المؤلمة؛ لأن الصبر على الواجب والصبر على ترك الحرام عملية اختيارية، لكن المصيبة شيء يجري على العبد بغير اختياره؛ لذلك كان الصبر عليه أنزل درجة من الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه، وتفريقهم بينه وبين أبيه؛ فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر.

وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار، ورضى، ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية، وعزباً، ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريباً، والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه مَن بين أصحابه ومعارفه وأهله، وعلوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحرّ، والمرأة جميلة، وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصَّغَار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟!

والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل؛ فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»[1].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٥٦-١٥٧).

حكم الصبر

لقد أمر الله سبحانه بالصبر فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

كما أنه سبحانه نهى عن ضده، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال لمن واجه المشركين: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٣٩].

والصبر تدور عليه الأحكام التكليفية الخمسة: فمنه ما هو واجب، ومنه ما هو مستحب، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو محرم، ومنه ما هو مباح.

ومما يدل على أن الصبر قد لا يكون لازماً: قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فيجوز للمظلوم أن يقتص من ظالمه بمثل ما ظلمه، ولكن ترك الانتقام، والصبر عن ذلك، خيرٌ من الانتقام.

فَدَلَّ ذلك على أن من الصبر ما يكون مستحباً، ولو كان واجباً بكل أنواعه؛ لأوجب الله سبحانه الصبر في هذه الحالة.

قال ابن القيم رحمه الله: «الصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام، والصبر على المستحب مستحب، وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب، وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح»[1].

---

(١) عدة الصابرين (ص٢٣).

فالصبر واجب في الواجبات، وواجب عن المحرمات، وواجب في عدم الجزع، والتسخط على أقدار الله المؤلمة.

فالصبر على صلاة الفجر واجب.

والصبر عن الزنا ومسبباته واجب.

والصبر عند المصيبة بمنع النفس عن النياحة والتسخط واجب.

ومستحب على المندوبات، وعن المكروهات.

فالصبر على قيام الليل مستحب.

والصبر عن شرب الماء قائماً مستحب.

وقد يكون مكروهاً: إذا صبر عن المستحب، ولم يفعله، وصبر على فعل المكروه.

وقد يكون محرماً، وذلك بالصبر على المحرمات.

كصبر الرجل على من يقصد أهله بسوء، وهو قادر على دفعه.

وقد يكون مباحاً، وهو الصبر على المباحات، أو عنها.

***

أنواع الصبر بحسب محله

الصبر نوعان:

١. بدني.

٢. ونفسي.

وكل منهما قسمان: اختياري واضطراري، فصارت القسمة أربعة:

١. بدني اختياري: كتعاطي الأعمال الشاقة.

٢. بدني اضطراري: كالصبر على ألم الضرب؛ لأنه يُضرب، وماله حيلة إلا الصبر.

٣. نفسي اختياري: كصبر النفس عن استماع الموسيقى -مثلاً-.

٤. نفسي اضطراري: كصبر النفس عن فقد المحبوب، الذي حيل بينه وبينه.

والبهائم تشارك الإنسان في النوعين الاضطراريين، ولكن الصبر الاختياري، هو الذي يميز الإنسان عن البهيمة.

* * *

وقت الصبر

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي»، قالت: إليك عنِّي، فإنك لم تُصَبْ بمُصيبتي! ولم تعرفه -فلم يشأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجادل المرأة في هذه الحال، وهذا هو الموقف الصحيح للداعية في مثل هذا الحال- فقيل لها: إنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!! فأتت باب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[1].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه، إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها؛ فإنه يدل على قوة القلب، وتثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة، فكل أحد يصبر إذ ذاك؛ ولذلك قيل: يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لابد للأحمق منه بعد ثلاث»[2].

* * *

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٧٤).

حقيقة الصبر

الصبر على طاعة الله:

لصبر على طاعة الله أعظم أنواع الصبر، وأشده على النفوس، وقد أمر تعالى به في مواضع من كتابه فقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، ولفظ (اصطبر) أكمل وأبلغ من لفظ (اصبر)؛ لأن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] أي: اصبر على الصلاة، بإقامتها، بحدودها، وأركانها، وآدابها، وخشوعها.

وحقيقة الصبر على الطاعة إنما تكون في ثلاثة أحوال:

قبل الطاعة: وذلك بالصبر على تصحيح النية، وطرد شوائب الرياء.

وأثناء الطاعة: وذلك بالصبر على عدم الغفلة عن الله فيها، وعدم التكاسل في أدائها، ومراعاة واجباتها، وأركانها، ونحو ذلك.

وبعد الفراغ منها: وذلك بالصبر على عدم إفشائها، وعدم العُجب، والمَنّ بها، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

الصبر عن المعاصي:

وهو مثل سابقه؛ فيجب الصبر عن المعصية **قبل تركها**، باستحضار النية، **وأثناء الترك**، بالصبر عنها، وعدم مراودتها، **وبعد ذهاب داعي المعصية**، بعدم العجب بتركها.

الصبر على المصائب:

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبر الجميل: الذي لا جزع فيه»[1].

والذي ينافي الصبر، هو: مثل ما يحدث من النائحات، وغيرهن، من لطم الخدود، وشق الجيوب، وضرب الرؤوس، مع الصراخ، والعويل، والدعاء بدعوى الجاهلية.

وأما أن يخبر الإنسان الطبيب بعلته؛ ليداويه: فلا بأس بذلك، وكذا أنين المرض وتألمه الذي يقصد به الاستراحة، والتنفيس عن ألمه.

وأما قول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك»[2].

فالمقصود به: ألا تحدث بوجعك ومصيبتك على سبيل التسخط، وعدم الرضا، أمّا إذا حدثت بها، وأردت من وراء ذلك غرضاً صالحاً؛ كأن تسأل الناس عن سبيل علاج لمرضك، أو كيفية الخروج من مأزقك، ونحو ذلك؛ فإن هذا ليس من باب التسخط، ولا يُخرج الإنسان عن كونه صابراً.

وليس كل من يَدَّعي الصبر يكون صابراً؛ بل إن كثيراً من الناس يكون ظاهر حاله الصبر على المصيبة، ولكنه في قرارة نفسه قد أصابه الجزع.

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٢).

(٢) تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٧٧)، تفسير الطبري (١٢/ ١٦٦).

ثمرات الصبر

إن الصبر وسيلةٌ للحصول على ثمراتٍ كثيرة، ومنافع جمة، وفوائد عظيمة؛ كما أنه يعود على المؤمن بكل خير وفلاح.

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ الْمُنَى فَمَا انْقَادَتِ الآمَالُ إِلاَّ لِصَابِرِ[1]

وانظر إلى نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما صبر على حبسه؛ أوصله ذلك إلى الملك.

أَمَا فِي رَسُولِ الله يُوسُفَ أُسْوَةٌ لِمِثْلِكَ مَسْجُوناً عَلَى الظُّلْمِ وَالإِفْكِ
أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبْرِ فِي الْحَبْسِ بُرْهَةً فَآلَ بِهِ الصَّبْرُ الْجَمِيلُ إِلَى الْمُلْكِ[2]

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة لها»[3].

وإليك بعض هذه الثمرات التي ينتجها الصبر للصابرين:

- **الفلاح نتيجة للصبر:**

ربط القرآن بين الصبر والفلاح، وجعل الفلاح نتاجاً للصبر، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فعلّق الفلاح بمجموع هذه الأمور.

---

(١) روح المعاني (٤/ ١٧٦).

(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٤٧٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ٦١).

- **سبب لعدم الخسران:**

حكم الله بالخسران على بني الإنسان، إلا من آمن وعمل صالحاً، وكان من الصابرين، فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]

- **حصول المغفرة، والأجر الكبير:**

رُتِّبت المغفرة، والأجر الكبير، على الصبر، مع العمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

- **الصبر طريق الجنة:**

بشر النبي ﷺ الذي يصبر على فقد عينيه بالجنة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ**»[1] يريد عينيه.

ولا يُقبض لمؤمن صفي من أهل الأرض، فيصبر ويحتسب؛ إلا كان له الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلاَّ الْجَنَّةُ**»[2].

وهذه امرأة بشرها النبي ﷺ بالجنة إن صبرت على الصرع، فعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: قال لي ابن عباس: ألا أُريكَ امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ، وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ**». فقالت: أَصْبِرُ. فقالت: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ الله لي أن لا أتكشَّف، فدعا لها[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٢٩)

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٠).

(٣) البخاري (٥٣٢٨)، ومسلم (٢٥٧٦)

وخاطب تعالى المؤمنين، وبين لهم أن دخول الجنة يسبقه ابتلاء، ولابد من الصبر على ذلك الابتلاء، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وعن علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم أهل الصبر. فيقوم ناس من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة. فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: نحن أهل الصبر. قالوا: ما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبرناها عن معصية الله عَزَّ وَجَلَّ. قالوا: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين»(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٢).

فكيف تدخل الجنة بدون صبر على المكاره؟ وكيف تقي نفسك النار بدون صبر عن الشهوات؟

فالحديث يدل على أنه لا طريق للجنة إلا عبر المكاره؛ لأنه قال: (حُفَّت) أي: من جميع الجهات، فإذا لم تركب المكاره لم تدخل الجنة، فلا يمكن دخول الجنة إلا باختراق المكاره، ولا يمكن اختراقها، إلا بالصبر، وأما النار فإنها حفت بالشهوات، ولا يمكن إنقاذ النفس من دخول النار، إلا بالصبر عن المعاصي.

- سلام الملائكة على الصابرين في الجنة:

أخبر الله تعالى أن ملائكته تسلّم في الجنة على الصابرين، فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

- بيت الحمد:

إذا صبر العبد على فقد الولد؛ عوضه الله عن ذلك ببيت له في الجنة، اسمه: «بيت

(١) حلية الأولياء (٣/ ١٣٩-١٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٢٢)، ورواه البخاري (٦٤٨٧)، من حديث أبي هريرة بلفظ: (حجبت) بدلًا من: (حفت).

الحمد»، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ. فَيَقُولُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتاً فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»[1].

- **عدم ضياع الأجر:**

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

- **الحصول على ثواب الله:**

قال تعالى عن أهل العلم، الذين علّموا قومهم، المفتونين بقارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

- **مضاعفة أجر الصابرين:**

أخبر سبحانه وتعالى عن مضاعفة الأجر للصابرين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤].

وإذا كانت الأعمال لها أجر معلوم محدود؛ فإن الصبر أجره لا حد له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠].

قال سليمان بن القاسم رَحِمَهُٱللَّهُ: «كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، قال: كالماء المنهمر»[2].

وقال الأوزاعي رَحِمَهُٱللَّهُ: «ليس يوزن لهم، ولا يكال لهم، إنما يُغرف لهم غرفاً»[3].

(١) رواه الترمذي (١٠٢١)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) ذم الهوى (ص٦٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩).

• **نيل الإمامة في الدين:**

علّق الله الإمامة في الدين على الصبر وعلى اليقين؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصبر، واليقين؛ بهما تُنال الإمامة في الدين»[(١)].

• **معية الله سبحانه وتعالى:**

جعل الله معيته للصابرين، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

• **حصول الصابر على العون:**

جعل سبحانه وتعالى الصبر عوناً وعدة، وأمر بالاستعانة به، فقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فمن لا صبر له لا عون له.

• **حصول النصر:**

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْراً كَثِيراً، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**»[(٢)].

وقد أمدّ الله الصحابة بالملائكة حينما صبروا واتقوا، قال تعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

وكان من أسباب انتصار بني إسرائيل على فرعون: صبرهم على ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

يقول الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أصل الصبر الحزم، وثمرته الظفر**»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢٨٠٣)، وصححه محققو المسند.

(٣) تاريخ دمشق (٥١/ ٤٠٨).

- **النجاة من كيد الأعداء:**

جعل سبحانه الصبر والتقوى جُنَّةً عظيمة، من كيد العدو ومكره، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

- **الصلاة من الله، والرحمة، والهداية:**

جعل سبحانه للصابرين أموراً ثلاثة لم يجعلها لغيرهم، وهي: الصلاة منه، والرحمة، والهداية، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

- **نيل محبة الله سبحانه:**

علّق تعالى محبته بالصبر، وجعلها لأهل الصبر، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- **نيل ثناء الله سبحانه:**

كما أثنى الله على عبده أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأحسن الثناء؛ لأنه صبر، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

- **الصبر ضياء:**

عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ**»[1].

- **الانتفاع بالآيات:**

أخبر عَزَّ وَجَلَّ أنه لا ينتفع بآياته، ولا يستفيد منه، إلا صاحب الصبر، المكثر منه، فأتى به بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]، وفي سورة لقمان، قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١]، وبعد قصة سبأ، قال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩]. وفي ذكر نعمةٍ منَّ الله بها على العباد، وهي الفلك التي تنقلهم وتنقل بضائعهم، تلك النعمة التي لا ينتفع بالتدبُّر فيها إلا الصابرون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣]. فهذه أربعة مواضع في القرآن الكريم تدل على أنه لا ينتفع بالآيات، إلا أهل الصبر، والشكر.

- **نيل المطلوب والحصول على الحاجة:**

قال بعضهم:

لَا تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ ... إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا
أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا[1]

وقال الآخر:

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ ... وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفَرِ[2]

- **إخلاف الله عليه:**

عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْراً مِنْهَا؛ إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْراً مِنْهَا». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة؟ ... ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) ديوان الحماسة (٢/ ٣٣-٣٤).

(٢) المستطرف (٢/ ١٢٥).

(٣) رواه مسلم (٩١٨).

والصبر سبيل العز في الدنيا:

ن الصبر هو طريق؛ ليتال العبد به عز الدنيا؛ وذلك لأنه لا يحني رأسه للناس، ولا يتطلع إلى ما في أيدي الغير.

في غزوة اليرموك نادى أبو الأعور السلمي: «يا معشر قريش! خذوا نصيبكم من لأجر والصبر، فإن الصبر في الدنيا عز ومكرمة، وفي الآخرة رحمة وفضيلة، فاصبروا، وصابروا»[1].

وقال سليم بن المهاجر الجبلي:

كَسَوْتُ جَمِيلَ الصَّبْرِ وَجْهِي فَصَانَهُ ... بِهِ الله عَنْ غِشْيَانِ كُلِّ بَخِيلِ[2]

* * *

(١) تاريخ دمشق (٤٦/ ٥٦)

(٢) المستطرف (١/ ١٥٩).

مجالات الصبر

أصل الصبر يقع على ثلاثة أمور: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى قضائه وقدره. ومجالات ذلك كثيرة، ونذكر هنا أهم تلك المجالات:

١. الصبر على بلاء الدنيا: إن الدنيا بطبيعتها مليئة بالمتاعب، والمصاعب، ولا يمكن لشخص أن ينال فيها السعادة والهناء فقط، بل لابد أن يبقى في معاناة دائمة ما دام فيها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] أي في مشقة، وعناء، وبلاء، وفتنة، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٢. الصبر على مشتهيات النفس: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: «ابْتُلِينَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بِالضَّرَّاءِ فصبرنا، ثم ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بعده فلم نصبر»[1].

فبعض الناس إذا ابتلي بالسجن مثلاً يصبر، ولكنه إذا ابتلي بالسراء بعد ذلك، وفتحت عليه الدنيا، والأموال، والعيال، فإنه لا يصبر، فليس كل الناس سواء في الصبر، وقالوا: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صدّيق»[2].

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة (٢٧٠)، تسلية أهل المصائب (ص١٨٥).

والصبر على مشتهيات النفس، لابدّ أن يكون من وجوه أربعة:

- أن لا يركن إليها، ولا يغترّ بها.
- أن لا ينهمك في نيلها، ويبالغ في استقصائها، كما يفعل بعض أصحاب الأموال، ممن لا يجدون وقتاً، حتى للصلاة، أو ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فوقته مليء بالاجتماعات، والسفريات، وليس عنده وقتٌ لذكر الله تعالى.

وبعض أصحاب الوظائف من حرصه على وظيفته يضيع العبادات، والواجبات الشرعية، ويرتكب المحرمات من أجلها؛ فهو منهمك في عمله، وعمله عنده هو كل شيء، فهو يعبد العمل، كما قال أحد حكماء الإنجليز: «إن الناس في بريطانيا يعبدون البنك المركزي ستة أيام في الأسبوع، ثم يتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة!».

- أن يصبر على أداء حق الله فيها: كالزكاة، وحقوق ذوي الأرحام، والصدقات.
- أن لا يصرفها في حرام.

٣. ومن مجالات الصبر: الصبر عن التطلع إلى ما بأيدي الآخرين، وما يَنْعمون به من مال وبنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، أي: إنما أعطيناهم لنفتنهم.

والله تعالى قد بيّن أن بعض الناس قد يُرزق المال، والبنين؛ استدراجاً، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

٤. ومن مجالات الصبر العظيمة: الصبر على مشاق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه غير خافٍ على الدعاة حال الناس اليوم من البعد عن الدين، وهذا البعد يستلزم منهم جتهادا في الدعوة، وإنكاراً للمنكرات، وصدعاً بالحق، فعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ستشعر المسؤولية الكبيرة في تغيير الانحرافات المتراكمة، قال: «ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً، لا يرون الحق غيره»[1].

---

(١) الاعتصام، للشاطبي (١/ ٣٢).

وهـذا نوح عليه السلام صبر صبراً عظيماً في الدعوة، فصبر ألف سنة إلا خمسين عاماً، على جميع أنواع الابتلاءات: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦].

ثم إن مشاقّ الدعوة ليست بدنية فقط، وإنما قد تكون نفسية، بما يسمعه الداعية من كلام أعداء الدعوة، المؤذي له نفسياً: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

بل قالوا لأقوامهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وهكذا يصبر الداعية على طول الطريق، وعقباته، وبطء النصر، وتأخره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وعلى الداعية أن يعلم أن النصر قادم، لا محالة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فكلّ من قام بحقٍّ، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلابد أن يؤذى، وما له دواء إلا الصبر، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله عز وجل.

٥. وهناك صبر حين البأس عند لقاء العدو، والتحام الصفين، والصبر في هذه اللحظات شرط للنصر، والفرارُ كبيرةٌ من الكبائر؛ لذلك أوجب الله الثبات ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥]، وحذر من الفرار، وتولي الأدبار، وعندما تضطرب المعركة، وينفرط العقد، يكون الصبر أشد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد حدثنا الله عن الثُّلَّة المؤمنة، والبقية الباقية، والصفوة، بعد عمليات التمحيص المستمرة، في قصة طالوت: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فهم عصوه من قبل، عندما شربوا من النهر، وكان بعض الفئة الباقية من الاستسلاميين، ومع ذلك بقيت فئة صابرة، قاتلت، وانتصرت.

٦. ومن مجالات الصبر المهمة: الصبر في طلب العلم؛ فإن طلب العلم فيه مشقة عظيمة، وطالب العلم إذا لم يتصف بالصبر، فإنه لا يصل إلى مبتغاه.

ولذلك قال الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨]، فأجابه، وقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

ومن الصبر في طلب العلم: عدم التصدر والإفتاء، قبل بلوغ منزلة العلماء.

ويدخل ضمن هذا: صبر المعلم على تلميذه، فيصبر على تعليمه، ومشاق تفهيمه للمسائل، ومتابعته في حفظه ومذاكرته، وهكذا.

* * *

الأسباب المعينة على الصبر

هل الصبر وهبي، أم كسبي؟

كثيرٌ من الناس ممن يجزع عند المصائب، إذا نُصِح في ذلك، يقول: إن الله سبحانه لم يرزقني الصبر على المصائب. أو إذا أُمِر بنوعٍ من أنواع العبادة، زعم أنه لم يُمْنَح الصبر عليها، وهكذا.

فيعتقد أن الصبر إنما هو هبةٌ من الله، لا يستطيع الإنسان تحصيلها

ولو كان الصبر لا يحصل بالاكتساب؛ لوقفت عاجزين أمام هذه النصوص الآمرة به، ولكن ورد في السنة ما يفيد أن الصبر خُلُقٌ يمكن تحصيله، فعن أبي سعيد الخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ، يُصَبِّرْهُ الله»[1]

مع التسليم بأن الناس -في أصل خلقتهم، وجِبِلَّتِهم- بعضهم أكثر صبراً، وتحملاً، وجلداً، من البعض الآخر.

فالصبر عملٌ قلبيٌّ، قد يكتسبه الإنسان، بعد توفيق الله، بكثرة المران، والرياضة النفسية، والتدريب عليه، ومجاهدة النفس، مع الاستعانة بالأسباب التي تعينه عليه.

فما الأسباب التي تعين على الصبر؟

١. من الأسباب المعينة على الصبر: معرفة طبيعة الحياة الدنيا، وما جُبِلت عليه من المشقة والعناء، وأن الله خلق الإنسان في كَبَد، وأنه كادح إلى ربه كدحاً، فملاقيه، وأن الآلام،

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)، واللفظ للبخاري

والتنغيص، والابتلاءات، من طبيعة هذه الدنيا، فلا يمكن أن تكون الدنيا بدون ابتلاءات، ومنغصات.

قال أبو الحسن التهامي:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْواً مِنَ الأَقْذَاءِ وَالأَكْدَارِ
وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ[1]

ومن لا يعرف هذه الحقيقة، سيفاجأ بالأحداث، أما الذي يعرف طبيعة الحياة الدنيا، فإنه إذا حصل له أي ابتلاء أو منغص؛ وجد في قلبه ما يهوّن الأمر لديه.

٢. **الإيمان بأن الدنيا كلها ملك لله تعالى، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء،** ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ ولذلك فإذا حُرم الإنسان من شيء وابتلي، فعليه أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

والعبد، وأهله، وماله، ملك لله، وإنما هم عارية، جعلها الله عنده، وصاحب العارية متى ما شاء استرداد عاريته استردها، وأم سُليم رضي الله عنها لما فقهت هذا، كان لها مع أبي طلحة ذلك الموقف المشهور، حينما مات ولده، فقالت له: «يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك»[2].

٣. **معرفة الجزاء والثواب على هذا الصبر،** قال تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]. قال ابن القيم رحمه الله: «ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر»[3].

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يَوَدُّ أَهْلُ العَافِيَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ -حِينَ يُعْطَى أَهْلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ- لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ**»[4].

---

(١) تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٤٤).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

٤. نية الصبر، قال عبد الواحد بن زيد رَحِمَهُ اللهُ: «من نوى الصبر على طاعة الله: صَبَّره الله عليها، وقوّاه لها، ومن نوى الصبر عن معاصي الله: أعانه الله على ذلك، وعصمه منها»[١].

٥. الثقة بحصول الفرج، فالله جعل مع كل عسر يسرين؛ رحمة منه عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح ٥-٦]، والله ينزّل المعونة على قدر البلاء، وهو لا يخلف لميعاد، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم ٦٠]، وسينبلج الفجر، ولو بعد ليل طويل.

اشْتَدِّي أَزْمَةُ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَجِ[٢]

ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على فقد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واثنين من أولاده، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف ٨٣] لا تسخّط فيه، ولا جزع، وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف ٨٣]، وشكى بثه وحزنه إلى الله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] ولم يشكُ إلى المخلوقين؛ فحصل له الفرج بعد ذلك، واجتمع له أولاده جميعاً.

٦. ومما يعين على الصبر: الاستعانة بالله تعالى، واللجوء إلى حماه، وطلب معونته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل ١٢٧]، قال ابن كثير: «إخبار بأن ذلك -أي الصبر- لا ينال إلا بمشيئة الله، وإعانته، وحوله، وقوته»[٣].

٧. وكذلك: فإن الإيمان بالقضاء والقدر من أعظم ما يعين على الصبر، وأن يعلم العبد أن قضاء الله نافذ، وأن يستسلم لـ قضاه وقدره، مما لا حيلة له به: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

---

(١) حلية الأولياء (٦/ ١٦٣).
(٢) المنفرجتان، لابن النحوي، والغزالي (ص٤٣).
(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩٣).

ثم إن العبد يعلم أن الجزع، والهلع، والتبرم، والاعتراض، والتشكي، والتضجر، لا يجدي شيئاً، ولا يعيد مفقوداً، والعاقل هو الذي يتحلى بالصبر عند وقوع المصيبة، بعكس الجاهل، الذي يجزع، ويتضجر، ثم لا يجد له مآلاً بعد ذلك إلا في الصبر، ولو أنه صبر منذ اللحظة الأولى؛ لكان خيراً له.

٨. **وما يعين على الصبر: معرفة أن الابتلاء فيه إشعارٌ بصلاح العبد المبتلى، وذلك على حسب قوة البلاء**، عن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْباً اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[1].

٩. **التأمل في قصص الصابرين، من أعظم الأسباب المعينة على الصبر:**

كقصص الأنبياء -مثلاً-؛ فهي مدرسة، يتعلم منها الإنسان حقيقة الصبر، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بشرٌ مثلنا، قبل أن يكونوا أنبياء.

فهذا نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً، دام ألف سنة إلا خمسين عاماً، جهاداً ودعوةً، وصبر على الإيذاء، والسخرية، اتهموه بالجنون والضلال، وهو يقابل ذلك بالصبر؛ حتى قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، فصبر على كل ذلك.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تعرض لمحنة عظيمة، فصبر صبر الموحد الموقن بوعد الله، ولما أُلقي في النار كان آخر قوله: «حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[2]، ولما أُمِر بذبح ولده صبر، وهمّ بذبح الولد، وأخذ السكين، وأضجع الولدَ؛ استسلاماً لأمر الله.

وأُمِر بترك زوجه، وولده، في وادٍ غير ذي زرع، فصبر على ذلك، وابنه حديث عهد بولادة، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عقيماً، وما وُلِدَ له إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا بعد سنواتٍ طويلةٍ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٨).

وقد دخل في عهد الشيخوخة، التي يحتاج فيها أكثر ما يحتاج إلى الولد الذي يعينه، ومع كل هذا صبر، وترك ابنه، وأمه، حيث أُمِرَ بتركهما، وقالت له هاجر: «أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: «الله الذي أمرك بهذا؟» قال: نعم! قالت: «إذن، لا يضيعنا»[1]

فرجع إبراهيم عَلَيهِ السَّلَامُ إلى الشام، ورزقه الله من سارة إسحاق، ومن ورائه يعقوب، وأنعم على إسماعيل وأمه بزمزم، وغيره من النعم.

وموسى عَلَيهِ السَّلَامُ واجه التهديد والإيذاء من قومه، وقوم فرعون قبلهم، فصبر على دعوة لقومين! فصبر على دعوة فرعون، واضطهاده، وأذاه، وتهديداته؛ حتى أهلكه الله، وصبر على بني إسرائيل بعد ذلك، مع شدة أذاهم له.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إذا أوذي تذكر أخاه موسى، فقال: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا، فَصَبَرَ»[2].

وعيسى عَلَيهِ السَّلَامُ عانى من بني إسرائيل التُّهم الباطلة، وتآمرهم على قتله، وصبَرَ، حتى رفعه الله إليه.

وخاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كم تعرض للأذى والاضطهاد!! فقالوا عنه: مجنونٌ، ساحرٌ، كذاب، خائن، وأشد شيء على الصادق أن يتهم بالكذب، وأشد شيء على العاقل أن يقال عنه: مجنون، وأشد شيء على الأمين أن يتهم بالخيانة، وأشد شيء على المؤمن أن يقال عنه: ساحر، وقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أكمل الخلق، وأصدقهم، وأعقلهم.

ووضعوا له الشوك في طريقه، وأخرجوه من بلده، وتآمروا على قتله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقتلوا بعض أصحابه، وعذبوا بعضهم، وأشد شيء على النبي أن يرى أتباعه يُضطهدون، ويُقتلون أمامه، فكان يمر على ياسر، وسمية، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فيقول لهما: «صَبْراً يا آلَ يَاسِرٍ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٣١٨٤)

(٢) رواه البخاري (٣٢٢٤)، ومسلم (١٠٦٢).

(٣) رواه الحاكم (٥٦٤٦)، وصححه الألباني في صحيح السيرة (ص١٥٤).

وعندما هاجر إلى المدينة عانى من المنافقين معاناة عظيمة، ويكفي منها حادثة الإفك، واتهامهم لأم المؤمنين، وصبر على كيد اليهود، الذين وضعوا له السم، فكانت نوبات الحُمَّى تنتابه، حتى مات في آخر نوبة منها.

وهكذا صبر ﷺ حتى أتاه اليقين من ربِّه، بعد أن بلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة.

وهكذا أصحابه: بلال، وسمية، وصهيب، وعمار، وغيرهم، رضي الله عنهم، عُذِّبوا بأنواع العذاب، وصبروا على ذلك.

وهذا الصحابي خبيب رضي الله عنه، يسجن؛ ليقتل، ويصلب، وبالرغم من ذلك يقول:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لله مَصْرَعِي[1]

وسار على هذا المنوال التابعون، وتابعو التابعين.

فعروة بن الزبير رحمه الله من أفاضل التابعين وخيارهم، كان له ولد اسمه محمد، من أحسن الناس وجهاً، دخل على الوليد في ثياب جميلة، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش!! ولم يدعُ له بالبركة، فأصابه بالعين، فخرج محمد بن عروة رحمه الله من المجلس، فوقع في إسطبل للدواب، فلا زالت الدواب تطؤه، حتى مات.

ثم وقعت الأكلة بعد ذلك في رِجْل عروة، وقالوا: لابد من قطعها، ونشرها بالمنشار؛ حتى لا تسري لأماكن الجسد الأخرى؛ فيهلك، فنشروها، فلما وصل المنشار إلى القصبة، وضع رأسه على الوسادة، فغُشي عليه، ثم أفاق، والعرق يتحدّر من وجهه، وهو يهلل، ويكبّر، ويذكر الله، فأخذها، وجعل يقبّلها، ويقلّبها في يده، وقال: «أما والذي حملني عليك، إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام، ولا إلى معصية، ولا إلى ما لا يرضي الله»، ثم أمر بها؛ فغُسلت، وطُيبت، وكُفنت، وأمر بها أن تقدم إلى المقبرة، ولما عاد من سفره، بعد أن بترت رجله، وفقد ولده؛ قال: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً».

ولما قالوا له بعد قطع رجله: أنسقيك شيئاً يزيل عقلك؛ حتى لا تشعر بالألم؟ قال: «إنما ابتلاني؛ ليرى صبري»[2].

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٠).

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٧٨)، شعب الإيمان (٦/ ٩٥٠٦)، المرض والكفارات، لابن أبي الدنيا (١٧٢، ١٤٠).

وهذا أحمد بن نصر الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ، من كبار علماء السلف، كان قوالاً للحق، آمراً بالمعروف، نهاءً عن المنكر، ثبت في محنة خلق القرآن، حملوه إلى سامراء، فجلس مقيداً، وعُرِضَ عليه القول بخلق القرآن، فرفض القول بذلك؛ فضُرِبت عنقه، ونُصِب رأسه بالجانب الشرقي من بغداد.

يقول جعفر بن محمد الصائغ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رأيت أحمد بن نصر الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ حين قُتِل، قال رأسُه: «لا إله إلا الله»[1]. وهذا من كراماته رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عنه: «ما كان أسخاه، لقد جاد بنفسه!»[2].

والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، صبر في محنة خلق القرآن صبرا عظيما.

حُمِل هو ومحمد بن نوح إلى المأمون، فيمرض محمد بن نوح؛ ويوصي الإمام أحمد بالصبر، ويموت في الطريق، ويؤخذ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ مقيداً، ودخل عليه بعض الناس قبل الدخول على الخليفة، يذكرونه بأحاديث في التقية، وأنه يمكن للمرء عند الشدة أن يُوَرِّي، حتى تنقضي المحنة، فقال: كيف تصنعون بحديث خباب؟ يقصد حديث خَبَّابِ بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ، أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»[3].

فيئسوا منه وتركوه

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللهم لا ترني وجه المأمون». فمات المأمون قبل أن يصل أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وعُيِّن الخليفة الذي بعده، والمحنة ما زالت مستمرة، فيقول له بعضهم: يا أحمد إنها والله نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، ولكن يضربك ضرباً بعد ضرب؛ حتى تموت فأبى الرجوع.

---

(١) تاريخ الإسلام (١٧/ ٥٧).

(٢) تاريخ بغداد (٥/ ١٧٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤١٦).

وقال الخليفة للإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أتعرف صالح الرشيدي؟» قال: سمعت به. قال الخليفة: «كان مؤدبي، فسألته عن القرآن فخالفني، فأمرت به، فَوُطِئ، وسُحِبَ حتى مات».

ثم ربطوا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجاء الجلادون، وكلّ فرد منهم يضرب به سوطين، ويقول الخليفة للجلاد: «شدّ، قطع الله يدك»، ويتعاقب عليه الجلادون، ثم يقول الخليفة لأحمد: «علامَ تقتل نفسك، إني عليك لشفيق». وجعل القائم على رأسه ينخسه بالسيف، وذاك يقول: «ويحك يا أحمد! ما أجبتني!، أجبني إلى أي شيء يكون لك فيه فرج؛ حتى أطلقك». فيقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا أمير المؤمنين! أعطني شيئاً من كتاب الله، أو من سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتى أقول به». فيأتي الجلاد ويضرب، وهكذا يستمر ضربه، حتى ذهب عقله، فأفاق والأقياد في يده، فقال له رجل: كببناك على وجهك، وجعلنا فوقك حصيراً، ووطئنا عليك، فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شعرت بذلك».

ثم مكث في السجن، حتى خُلّي عنه، بعد ثمانية وعشرين شهراً[1].

ويقول إسحاق بن راهويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام»[2].

فسِيَرُ هؤلاء العظماء، إذا تذكرها المرء حال شدته ومحنته؛ أعانته على الصبر، والتجلد، وعدم الجزع.

* * *

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٤١-٢٥٢).

(٢) حلية الأولياء (٩/ ١٧١).

آفات تنافي الصبر

إن كل عمل من أعمال الخير تواجهه بعض العوائق والآفات، التي تقف في طريقه، وتعيق المؤمن عن استكمال جوانبه، وتحقيق صورته، وفي طريق الصبر بعض الآفات التي تنافيه، وفيما يلي أهم تلك الآفات:

١. الاستعجال: إن الإنسان في طبيعته وجِبِلَّتِه عجول؛ لأن الله سبحانه قد خلقه على هذه الصورة: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فعلى الإنسان أن يتأنى، ويصبر؛ حتى يحصل على الثمرة، ولو بعد حين، وقد أمر سبحانه نبيه بالصبر، وعدم الاستعجال؛ أسوة بالأنبياء أولي العزم؛ فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولقد باءت كثير من الدعوات الإصلاحية بالفشل؛ لأن أصحابها استعجلوا قطف الثمرات قبل أوانها، ولم يتمهلوا.

٢. الغضب: وهو من الآفات التي تنافي الصبر، وقد حذر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ من الغضب، فقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«(وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ) وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابهه في الحال، التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل

لسفينة حين ثقلت بأهلها: أيهم يلقون؛ لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم»[1].

٣. اليأس: وهو من أعظم عوائق الصبر؛ ولذلك حذر يعقوب عليه السلام أولاده منه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ومن يئس لم يصبر، وضاع منه الرجاء.

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٨١).

الخاتمة

لقد علمنا النبي ﷺ الصبر، وجعله وسيلةً لمواجهة الأزمات والشدائد، فعن أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه، عن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»[1].

وقد قصد النبي ﷺ بأيام الصبر: أيام الابتلاء في الدين، والشهوات المستعرة، والشبهات المستحكمة، والتي يكون فيها الصبر على الدين كالقبض على الجمر، والصبر في تلك الأيام هو المستمسك بدينه، فلا يتزلزل بالشبهات، ولا ينقاد للشهوات، ولا يضعف دينه.

وإنما سماها أيام الصبر؛ لأنه لا طريق للمسلم فيها إلا الصبر، ولا ينجو من فتنتها إلا الصابرون.

فَهَذَا زَمَانُ الصَّبْرِ أَغْمِضْ عَلَى القَذَى ... وَلِلهِ فَاصْبِرْ وَالْزَمِ الرِّفْقَ وَالحِلْمَا[2]

وقد تنبَّه السلف الصالح لأهمية هذا؛ فأمروا الناس أن يستعدوا للبلاء بالصبر.

قال حذيفة رضي الله عنه: «تعودوا الصبر؛ فإنه يوشك أن ينزل بكم البلاء»[3].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «من لا يعد الصبر لفواجع الأمور يعجز»[4].

وَنُعَوِّدُ الصَّبْرَ الجَمِيلَ نُفُوسَنَا ... إِنَّ الرِّضَا بِقَضَائِهِ أَوْلَى لَهَا[5]

وَاثْبُتْ بِصَبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَةِ الهُدَى ... فَالصَّبْرُ أَوْثَقُ عُدَّةِ الإِنْسَانِ[6]

(١) رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٧٢).

(٢) نشر طي التعريف (٨٧).

(٣) شعب الإيمان (٩٧٢٠)، السنن الواردة في الفتن (١٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٥٩٦).

(٥) تبيين كذب المفتري (ص٢٩١).

(٦) نونية القحطاني (ص٤٤).

وكانت وصية الصالحين لأبنائهم بالصبر من أجلّ الوصايا وأعظمها نفعا، فهذا لقمان الحكيم يوصي ولده بأن يصبر على ما أصابه في سبيل الله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ونحن – اليوم – قد تكالب علينا الأعداء، واستُضعِف أهل الإيمان والتقوى، وتصدّر الفجار والزنادقة، وانتشر الفساد عبر الإنترنت، والقنوات الفضائية، فليس لنا اليوم إلا الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على المصائب والأقدار.

فيا ضعيف العزم، الطريق طويل، تعب فيه آدم، وجاهد فيه نوح، وأُلقي في النار إبراهيم، وأُضجِعَ للذبح إسماعيل، وشُقّ بالمنشار زكريا، وذُبح الحصور يحيى، وقاسى الضرّ أيوب، وزاد على المقدار بكاءُ داود، واتُّهم بالسحر والجنون نبي الله الكريم، وكُسرت رَباعيته، وشُجّ رأسه، ووجهه، وقُتِل عمر مطعوناً، وعُذّب ابن المسيب، ومالك، فلا سبيل إلا الصبر.

واعلم أن الصبر مهما شق عليك وصَعُب، فإن عدمه أصعب؛ لأن الصبر عن محارم الله تعالى أيسر من الصبر على عذاب جهنم، والصبر على طاعة الله خير من الصبر على الأغلال.

فنعم المنْزلة منْزلة الصبر، ونعم الخُلق خُلق الصبر، ونعم الأهل أهل الصبر.

اللهم اجعلنا من الذين فتحوا باب الصبر، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جسر الهوى، ووضحت لهم طريق النجاة، وسلكوا سبيل الإخلاص واليقين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

* * *

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. اذكر أنواع الصبر؟

٢. الصبر تعتريه الأحكام التكليفية الخمسة، فما هي ؟

٣. هل للصبر المحمود وقت معين؟

٤. ما حقيقة الصبر على الطاعة؟

٥. ما حقيقة الصبر عن المعصية؟

٦. ما حقيقة الصبر على أقدار الله المؤلمة؟

٧. للصبر ثمرات وفوائد، فما أبرزها؟

٨. مجالات الصبر متعددة، فما أهمها؟

٩. ما الأسباب المعينة على الصبر؟

١٠. ما الآفات المنافية للصبر؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. «وجدنا خير عيشنا في الصبر». من القائل؟ وما المراد بهذه العبارة؟

٢. لماذا كان صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ على مراودة امرأة العزيز، أكمل من صبره على كيد إخوته؟

٣. هل الصبر خُلق مكتسب، أم وهبيّ؟

٤. «إن من ورائكم أيام الصبر» اشرح هذا الحديث؟

٥. قول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك»، هل له ضابط؟

٦. كيف يصبر العبد على مشتهيات نفسه؟

٧. «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». ما معنى هذا الحديث؟

٨. لم سمي رمضان بشهر الصبر؟

٩. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». ما مناسبته؟

١٠. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن شئت صبرت، ولكِ الجنة». ما مناسبته؟

١١. اذكر أبرز الكتب التي تحدثت عن الصبر؟





المحاسبة

مُقدِّمة

الحمدُ لله ربِّ العَالَمين، والصَّلاة والسَّلام علَى أشرف الأنبياء والمُرسَلين، نبيِّنا محمَّدٍ وعلَى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ مُحاسَبة النَّفسِ طريقة المُؤمِنينَ، وسِمَة الموحِّدين، وعنوان الخاشِعين، فالمُؤمن مُتَّقٍ لربِّه، محاسبٌ لنفسه، مستغفرٌ لذنبه، يَعلَم أنَّ للنَّفس خطَرُهَا عظيم، ودَاؤها وخيم، ومَكرُها كبير، وشرُّها مُستطِير، فهي أمَّارةٌ بالسُّوء، ميَّالةٌ إلَى الهَوى، داعيةٌ إلى الجَهل، قائدةٌ إلى الهلاك، توَّاقةٌ إلى اللهو -إلَّا مَن رحم الله-، فلا تُترَك لهواها؛ لأنَّها داعية إلى الطُّغيان، مَن أطاعها قادَتْهُ إلى القبائح، ودَعَتْهُ إلَى الرَّذائل، وخاضَت به المكاره.

ولِذَا، ينبغي علَى العبد أنْ يَزِن نفسه قبل أن يُوزَن، ويحاسبها قبل أن يُحاسَب، ويتزيَّن ويتَهيَّأ للعرض على الله.

وسنتطرَّق في هَذَا الفصلِ لبيان بعض ما قيل في مُحَاسَبة الإنسان لنفسه.

نسأل الله البرَّ والتَّقوى، والتَّوفيق لِمَا يحب ويرضى.

* * *

تعريف المُحَاسَبة

في اللغة:

مصدرٌ، مِن حاسَبَ يُحاسِب.

والمُحَاسَبة: مُفاعَلة مِن الحِسَاب، وهو استيفاء الأعداد[١].

والفعل المُجَرَّد منه هو: حسب يحسب حسباناً، وحساباً، وحسابةً، وحسباً، أي: عَدَّ[٢].

وفي الاصطلاح:

تَصَفُّح الإنسان في ليلِهِ ما صدر مِن أفعال نهاره، فإنْ كان محمُوداً أمْضاه وأتبعه بما شاكلَهُ وضاهاه، وإنْ كان مذموماً استدركه إنْ أمْكَن، وانتهى عن مثله في المُسْتَقْبل[٣].

وقيل: هي قِيَامِ الْعَقْلِ عَلَى حِرَاسَةِ جِنَايَةِ النَّفْسِ، فَيَتَفَقَّدُ زِيَادَتَهَا مِنْ نُقْصَانِهَا.

وتتولَّدُ المُحَاسَبَةُ مِنْ مَخَاوِفِ النَّقْصِ، وَشَيْنِ الْبَخْسِ، وَالرَّغْبَةِ فِي زِيَادَةِ الْأَرْبَاحِ، فَتُوَرِّثُ الزِّيَادَةَ فِي الْبَصِيرَةِ، وَالْكَيْس فِي الْفِطْنَةِ، وَالسُّرْعَة إِلَى إِثْبَاتِ الْحُجَّةِ، وَاتِّسَاعِ الْمَعْرِفَةِ.

وتتخلَّفُ مُحَاسَبَةِ النُّفُوسِ بغَلَبَةِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ[٤].

فالمُحَاسَبة هي: النَّظَر في أعمال النَّفْس، ثم استِدْرَاك الأخطاء، والمُضِيُّ في الصَّالِحَات.

* * *

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص٦٤٠).

(٢) القاموس المحيط، للفيروزآبادي (١/ ٩٤)، بتصرف.

(٣) انظر: أدب الدُّنيا والدين، للماوردي (ص٤٥٣-٤٥٤).

(٤) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/ ٨٨).

أصل المُحَاسَبة

أمَرَ الله سبحانه عباده بمُحَاسَبة أنفسهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

يقول ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «يأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبادَهُ المُؤمِنِينَ بما يُوجِبُهُ الإيمان ويقتضيه، مِن لُزوم تَقْوَاه سِرّاً وعلانية، في جميع الأحْوال، وأنْ يُرَاعوا ما أمَرَهُم الله به مِن أوامِرِهِ وشرَائعِهِ وحُدُودِه، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصَّلُوا عليه مِن الأعمال الَّتي تنفعهم أو تَضُرُّهُم في يوم القِيامَة؛ فإنَّهم إذا جعَلُوا الآخرة نصْبَ أعينهم، وقِبْلَةَ قلوبهم، واهتَمُّوا بالمَقَام بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعْمَال الموصلة إليها، وتصفيتها مِن القواطع والعوائق الَّتي توقفهم عن السَّير، أو تعوقهم، أو تصرفهم، وإذا علموا -أيضاً- أنَّ الله خبيرٌ بما يعملون، لا تخفَى عليه أعمَالهم، ولا تضيع لدَيْه، ولا يهملها؛ أوْجَبَ لهم الجِدَّ والاجْتِهَاد.

وهَـٰذِه الآية الكريمة أصلٌ في مُحَاسَبة العبد نَفْسَه، وأنَّه ينبغي له أنْ يتفَقَّدَها، فإنْ رأى زَلَلاً، تدارَكَهُ بالإقلاع عنه، والتَّوبة النَّصُوح، والإعراض عن الأسْبَاب الموصلة إليه، وإنْ رأى نفسه مُقَصِّراً في أمرٍ مِن أوامر الله؛ بذَلَ جهده، واستعان بربِّه في تكْمِيله وتتْمِيمِهِ وإتْقَانه، ويُقَايِسُ بيْنَ مِنَن الله عليه وإحْسَانه، وبَيْنَ تقصيره؛ فإنَّ ذَلِكَ يوجب له الحياء -لا مَحَالَة.

والحِرْمَان كل الحِرْمَان أنْ يَغْفَل العبد عن هَذَا الأمر، ويُشَابه قوماً نَسُوا الله، وغَفَلُوا عن ذِكْرِه، والقيام بحقه، وأقْبَلُوا على حظوظ أنفسهم وشهَوَاتها؛ فلم ينجحوا، ولم يَحْصُلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها؛ فصَار أمرهُم

فرط، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره؛ لأنهم هم الفاسقون»[١].

وقال تعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فوصف المتقين بأنهم إذا أصابوا شيئاً من السيئات بتسويل إبليس لهم بذلك؛ تذكروا، ورجعوا إلى الله، وأنابوا وتابوا.

وهذا لا يكون إلا بمحاسبة النفس على كل ما تعمله.

وقد دلت السنة أيضاً على مشروعية المحاسبة:

عن شداد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ». رواه الترمذي، ثم قال: «دان نفسه: حاسب نفسه في الدنيا، قبل أن يحاسب يوم القيامة»[٢].

كما أن محاسبة النفس من الأعمال المجمع عليها بين العلماء:

قال العز بن عبد السلام رحمه الله: «أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس فيما سلف من الأعمال، وفيما يستقبل منها»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٨٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٣) تفسير الثعالبي (٤/ ٣٩٩).

النفس وأمراضها

إنَّ النَّفسَ البَشَرِيَّةَ إن لم يَقُدْها الإنسانُ بكتابِ الله وسُنَّةِ نبيِّه؛ قادَتْهُ إلى الهلاك والرَّدَى، وليس مِن سبيلٍ لِقِيَادتها إلَى السُّلوكِ السَّوِي إلَّا بمحاسبتها علَى أنفَاسِهَا وخطرَاتِهَا، وقد قيل: «النَّفسُ كالشَّريكِ الخَوَّان، إن لم تحاسِبْه ذَهَبَ بِمَالِكَ!»[1].

والنَّفس الفاسدة هي سبب أمراض القلوب.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ سائر أمرَاض القَلْب إنَّما تنشأ مِن جانب النَّفْس، فالمواد الفاسِدَة كلها إليه تنصبُّ، ثُم تنبعث منها إلى الأعضاء، وأوَّل ما تَنال القلب».

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبة الحاجة: «وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[2].

وقد استعاذ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن شرِّهَا عموماً، ومِن شرِّ ما يتولَّد منها من الأعمال، ومِن شرِّ ما يتَرتَّب علَى ذَلِكَ مِن المَكاره والعقُوبَات.

وقد اتَّفق السَّالِكُونَ إلى الله -علَى اختِلَاف طرُقِهم وتبَايُن سلوكهم- علَى أنَّ النَّفسَ قاطعةٌ بين القلب وبين الوصول إلى الرَّب، وأنَّه لا يُدْخَل علَى الله سبحانه، ولا يُوصَل إليه، إلَّا بعد الظَّفَر بالنفس، وكَفِّها عن الشَّر، فإنَّ النَّاس علَى قسمين:

قسمٌ ظفرت به نفْسُه؛ فملَكَتْه وأهلكَتْهُ، وصار طَوْعاً لها، تحت أوَامِرِها.

وقسمٌ ظفروا بأنفُسِهم فقَهَرُوهَا؛ فصارت طوْعاً لهم مُنقادةً لأمرهم.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩).

(٢) رواه الترمذي (١١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

قال بعض العارفين: «انتهى سفر الطَّالبين إلى الظَّفر بأنفسهم، فمَن ظفَر بنَفْسه أفلح وأنْجَح، ومَن ظفرَتْ به نَفْسه خسِر وهلَك».

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]»[1].

فالنفس تدعو إلى الطُّغيان، وإيثار الحياة الدُّنيا، والرَّبُّ يدعو العبد إلى خوفه، ونَهي النَّفس عن الهوى، والقَلْب بين الدَّاعِيَيْن، يميل إلى هَـذا الدَّاعي تارة، وإلى هَذا تارة، وهَذا موضع الابتلاء والمحْنة.

أوصاف النفس في القرآن:

وصَف اللهُ النَّفسَ في القرآن الكريم بثلاثة أوصاف: المطمئنة، واللَّوَّامة، والأمَّارة بالسُّوء.

النفس المطمئنة:

لنَّفس إذا سكنت إلى الله، واطمأنَّت بذِكْره، وأنابَتْ إليه، واشتاقَتْ إلى لِقَائه، وأنِسَت بقُرْبه؛ فهي نفس مطمئنة، وهي التي يقال لصاحبها عند الوفاة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وحقيقة الطمأنينة: السُّكون والاستقرار، فسكَنَتْ إلَى ربِّها؛ نتيجة طاعته وذِكْره واتِّباع أمْرِه، ولَم تسكن إلَى سِوَاه، فاطمأنَّت إلى محبَّته وعُبودِيَّته، والإيمان بخبَره ولِقَائه، واطمأنَّت إلَى التَّصْدِيق بحقَائق أسمائه وصِفَاته، وللرِّضا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، واطمأنَّت إلَى قضائه وقدَرِه، وإلَى كِفَايته وحسبه، وأنَّ الله يدافع عنها، ويكفيها الشُّرور، وكَيْد الكائدين والحاسِدين والأعْدَاء، فاطمأنَّت بأنَّه وحْدَه ربها، وإلهُهَا، ومعبودها، ومليكها، ومالك أمرها كله، وأنَّ مَرْجِعَها إليه، ولا غِنَى لها عنه طَرْفَةَ عَيْن، فهَذِه هي النَّفس المطمئنة.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٤-٧٥)، بتصرف.

النفس الأمارة بالسوء:

وعلى الضد والنقيض من النفس المطمئنة؛ النفس الأمارة بالسوء، وهي التي تأمر صاحبها باتباع الشهوات، من الغي والباطل، فهي مأوى كل سوء، وهي التي تقوده إلى القبيح والمكروه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال: «أمارة» بصيغة المبالغة، ولم يقل: آمِرَة؛ لأنَّ «أمَّارة» أبلغ، فهي كثيرة الأمر بالسُّوء

والنفس -أصلاً- خُلِقت ظالمة جاهلة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم أوجد عندها الاستعداد الفطري لقبول الحق إذا عُرِض عليها، بغير مؤثرات خارجية مفسدة، قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، لكن، إذا لم تُعَلَّم النفس؛ تبقى جاهلة، فيها هوى، ولو تُرِكَتْ بدون تربية وترويض فهي تدعو إلى الطغيان، وتميل إلى الشر، فالعدل والعلم طارئ عليها، وليس أصلاً فيها، ولولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكى منهم نفس واحدة، فإذا أراد بها خيراً أعانها على الفقه في دينه، والعمل بشريعته.

وسبب الظلم في النفس الأمارة بالسوء: إمَّا الجهل، وإمَّا الحاجة؛ ولذلك كان أمرها بالسوء لصاحبها لازماً لها، إلَّا إذا أدركته رحمةُ الله، وبذلك يعلم العبد أنه مضطر إلى الله دائماً، محتاج إليه باستمرار؛ حتى يكفيه شر نفسه، ويعينه عليها، وضرورةُ العبدِ إلى ربه فوق كل ضرورة، وأكثر من ضرورته للطعام والشراب والنفس.

النفس اللوامة:

وهي مشتقة من اللوم، تلوم صاحبها على الخير، وعلى الشر، فهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت (لوامة)؛ لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الذنب على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير، في حق من الحقوق[1].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٨٩٨).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المؤمنَ -والله- ما تراه إلَّا يلوم نفسه على كل حالاته، يَسْتَقْصِرها في كل ما يفعل؛ فيَنْدَم ويلوم نفسه، وإنَّ الفَاجِر ليمضي قُدُماً، لا يعاتب نفْسَه»[1].

حتَّى يوم القيامة تَلُومه نفْسُه، إنْ كان مُحْسِناً: لماذا لم يَزْدَدْ إحساناً، وهَذِه مراتب الجنَّة أمَامَهُ؟! وإن كان مُسِيئاً: لماذا عمل السُّوء، وهَذِه النَّار أمامَهُ؟! فهي تَلُومه في الدُّنيا، وتلومه في الآخِرَة؛ تَلُوم المُسِيء أنْ لَا يَكُون رجع عن إساءته، وتَلُوم المُحْسِن أن لم يَزْدَدْ إحْسَاناً.

فالنَّفس تارةً تكون أمَّارة بالسُّوء، وتارة لوَّامة، وتارة مطمئنة.

وكونها مطمئنةً: وَصْفُ مدْحٍ لها، وكَوْنها أمارةً بالسُّوء: وصفُ ذمٍّ لها، وكونها لوَّامة: ينقسم إلى مدحٍ وذمٍّ، بحسب ما تَلُوم عليه، وهَذِه حال النَّفس.

وليس شَرْطاً أنْ تَكُون النَّفس عند فلانٍ مِن النَّاس مطمئنة دائماً، أو أمَّارة بالسُّوء دائماً، فقد تكون في بعض أوقاتها مطمئنة، وفي البعض الآخر أمَّارة بالسُّوء، وأحياناً لوَّامة، وهكذا.

بل في اليوم الواحد، والسَّاعة الواحدة، يَحْصُل فيها هَذَا، وهَذَا، والحُكْم للغَالِب عليها مِن أحْوَالها.

فحَاسِبْ نَفْسَكَ في خَلْوَتِك، وتفكَّر في انْقِرَاض مُدَّتِك، واعْمَل في زمنِ فرَاغِك لوقْتِ شِدَّتِك، وتدَبَّر قَبْل الفِعْل ما يُمْلَى في صَحِيفَتِك، وانظر: هل نفسك معك، أو عليك في مُجَاهدَتِك، لقد سَعِدَ مَن حاسبَهَا، وفاز -والله- مَن حاربَها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبَهَا، وكُلَّمَا زَلَّتْ عاتَبَهَا، وكلما توانَتْ جذَبَها، وكلما نظرت في آمَال هوَاهَا عليه

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٧).

كيفية المُحَاسَبة

الشدة في المُحَاسَبة:

لا يبلغ العَبْدُ أن يكون مِن المُتَّقِين، حتَّى يحاسب نفسه، أشد مِن مُحَاسَبة الشَّريك الشَّحِيح لشَرِيكِه

عن ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لا يكون الرجل تقِيًا، حتَّى يحاسِبَ نفسه أشد مِن مُحَاسَبة الرَّجُل شريكه، حتَّى يعلم مِن أين مطْعَمه، ومَشْربه، ومَكْسَبه؟»[1].

وقال أيضاً: «التَّقِيُّ أشد مُحَاسَبةً لنَفْسِه من سلطان عاص، ومن شريك شَحِيح»[2].

والشِّدَّة في المُحَاسَبة: هي الَّتي تُثمِر النَّتائج المَطْلُوبَة مِن تِلْكَ المُحَاسَبة، أمَّا التَّسَاهُل في المُحَاسَبة، كما يَفْعله بعض النَّاس، فيقول: هَذَا العمل صغيرة مِن الصَّغائر، وهَذَا العمل فيه خلافٌ بين العُلَماء في تَحْرِيمه، وهَذَا العملُ الرَّاجحُ فيه الكرَاهَة ونحو ذَلِكَ؛ فإنَّ هَذِه لَيْسَتْ بمُحَاسَبة، بل هو تَسْوِيغٌ للنَّفْس؛ لكي تزداد وتتمَادَى في ضَلَالِهَا.

المُحَاسَبة على كل شيء:

عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: «تلوم على الخير، والشر»[3].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٩٥).

(٢) مُحَاسَبة النَّفس، لابن أبي الدنيا (٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٤/ ٤٩).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المؤمن لَا تراه إلَّا يلوم نفسه، يقول: ماذا أَرَدْتُ بكلِمَتِي؟ يقول: ماذا أردتُ بأكْلَتِي؟ ما أردتُ بحديث نفْسِي؟ فلا تراه إلَّا يعاتبها، وإنَّ الفجر يَمْضِي قدماً، فلا يعاتب نفسه»[1].

فالمُحَاسَبة لا تَقْتَصِر علَى السَّيئات والمعاصي، بل علَى الإنسان أنْ يُحاسِبَ نفسه، حتَّى علَى أعماله المُباحَة.

إلزام النفس بالأعمال الصَّالحة، من بعد المُحَاسَبة:

إنَّ كُلَّ عمَلٍ، إذ لم يُثْمِر نتيجَتَهُ، فهو عملٌ ناقِصٌ، يَحْتَاج صاحِبُه إلى النَّظَر فيه مرَّةً أُخْرَى، فإذَا لم تأتِ المُحَاسَبة بثَمَراتِهَا؛ فعلَى صاحِبها أنْ يحاسِبَ نفْسَهُ مرَّةً أخرى، بل عليه أنْ يحاسب نفسه علَى تِلْكَ المُحَاسَبة.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ اللهُ عبداً قال لنفسه النَّفيسة: أَلَسْتِ صاحِبَة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها، ثُم خَطمَها، ثُم ألزمَها كتاب الله تعالى، فكان لها قائداً»[2].

وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الجنَّة؛ آكُل ثِمَارَها، وأشْرَبُ مِن أنهارها، وأُعَانِقُ أبْكَارها، ثُم مَثَّلت نفسي فِي النَّار؛ آكل مِن زَقُّومها، وأشرب مِن صَدِيدها، وأعالج سلَاسِلها وأغْلَالها، فقلت لنفسي: أيْ نفسي، أيّ شيءٍ تُريدِين؟ قالت: أريد أنْ أُرَدَّ إلى الدُّنيا فأعمل صالحاً. قال: قلت: فأنتِ فِي الأُمْنِية؛ فاعْمَلِي»[3].

* * *

(١) الزهد للإمام أحمد (ص ٢٨١).

(٢) مُحَاسَبة النَّفس، لابن أبي الدنيا (٨)، تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥٦/ ٤٢٠).

(٣) مُحَاسَبة النَّفس (١٠).

ثمرات المُحَاسَبة

إنَّ محاسبة النَّفسِ على أعمالها وأقوالها وخَطَرَاتها طريقٌ لكل فلاحٍ ونجاحٍ، وسببٌ لسعادة المُسلِم في دُنياه وأُخراه.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العبد لا يزال بخيرٍ ما كان له واعِظٌ مِن نَفْسِه، وكانت المُحَاسَبة مِن هِمَّته»[1].

وإليك هذه الثَّمرات المُتحقِّقة للمُسلِم مِن محاسبته لنفسه:

- **تخفيف الحساب يوم القيامة:**

إنَّ محاسبة المُسلِم لنفسه في دُنياه سببٌ لتخفيف الحِسَاب عنه يوم القيامة؛ لأنه سيَعمَل على التَّخفيف مِن سيئاته، والتَّكثير مِن حسناته.

قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسِبُوا أنفُسَكُم قَبْلَ أنْ تُحَاسَبُوا، فإنَّه أهوَن لحِسَابِكُم، وزِنُوا أنفسكم قبل أنْ تُوزَنُوا، وتجهَّزوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]»[2].

وعن جعفر بن برقان رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بلَغَنِي أنَّ عُمَر ابن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتَبَ إلَى بعض عُمَّاله، فكان في آخر كتابه: «حاسِب نفسك في الرَّخاء قبل حِسَاب الشِّدة؛ فإنَّه مَن حاسَبَ نفسه في الرَّخاء قبل حِسَاب الشِّدة؛ عاد مَرْجِعُه إلَى الرِّضا والغِبطة، ومَن ألهَتْهُ حياتُه وشغَلَتْهُ أهواؤه؛ عادَ مَرْجِعُه إلَى النَّدامة والحَسْرة، فتذكَّر ما تُوعَظ به، لكي تنتهي عمَّا يُنتهي عنه»[3].

---

(١) محاسبة النَّفس (٦).

(٢) الزهد لابن المبارك (٣٠٦).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٣٣٦).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُؤمِن قوَّامٌ علَى نفسه، يحاسب نفسه لله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما خفَّ الحِسَابُ يوم القيامةِ علَى قوم حاسَبُوا أنفسهم في الدُّنيا، وإنَّما شقَّ الحِسَاب يوم القيامة علَى قوم أخذُوا هَذَا الأمر علَى غير مُحَاسَبة.

إنَّ المؤمن يفجؤه الشَّيء يُعْجِبُه، فيقول: والله، إنِّي لأشْتَهِيك، وإنَّك لَمِنْ حاجَتِي، ولكن -والله- ما من وصلة إليك، هيهات! حِيلَ بيني وبينك، ويفرُط -أي: يقع- منه الشَّيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردتُ إلَى هَذَا؟ ما لي ولهَذَا؟ -والله- ما لي عُذْرٌ بِهَا، -ووالله- لا أعُود لهَذَا أبداً إن شاء الله»[1].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «المُؤمِن يُحَاسِب نفسه، ويَعْلَم أنَّ له مَوْقفاً بين يدي الله تعالى، والمُنَافِق يغفل عن نَفْسِه، فَرَحِمَ اللهُ عبداً نظَر لنفسه قبل نزول ملَكِ الموت به»[2].

- **التمكّن من الهدى، والاستقرار عليه:**

يقول البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتَّمكُّن مِن الهدَى والاسْتِقْرَار عليه، إنَّما يَحْصُل باسْتِفْرَاغ الفِكْر، وإدَامة النَّظَر فيما نصب مِن الحُجَج، والمواظبة علَى حِسَاب النَّفْس في العمل»[3].

- **علاج مرض القلب:**

لأنَّ مَرض القلب لا يمكن إزالته وعلاجه إلَّا بمُحَاسَبة النَّفْسِ ومخالفتها، وهلاك القلب مِن إهمال مُحَاسَبة النَّفْسِ، ومِن مُوافَقَتِها، واتِّباع هوَاهَا، فالعَاجِز مَن أتْبَع نَفْسَه هوَاهَا، وتَمَنَّى علَى الله الأمَانِي، فهو يَمِيل حسب ما تَمِيل نَفْسُه، وهو يذهب حيثُ تُرِيد؛ فيفسد قلبه بذَلِكَ، ومخالفتها هو سبيل صلاح القلب، وعلاجه من أمراضه.

- **اكتشاف مساوئ النفس وعيوبها، وعدم الاغترار بالعمل:**

فإنَّ الإنسان متَى ما حاسَبَ نفْسَه وجَد عيُوبَهَا، ومتَى ما وَجَد عيوبها لم يَغْتَر بالأعْمَال الصَّالحة الَّتِي يعملها، بل يرجو ربَّه أنْ يَقْبَل منه تِلْكَ الأعْمَال، علَى ما هي فيه مِن النَّقْص.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٧).

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤/ ١٨٤).

(٣) تفسير البيضاوي (١/ ١٣١-١٣٢)، بتصرف.

- **مُحَاسَبة النَّفسِ تؤدي إلى عدم الغرور والتكبر:**

فعن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لا يَفْقَه الرَّجُل -كل الفقه- حتَّى يَمْقُتَ النَّاس في جَنْب الله، ثُم يرجع إلى نَفْسِه فيَكُون لها أشد مقتاً»[1]. أي: إنَّ الإنسان بمُحَاسَبة نفسه سيَصِل إلَى مَقْتِهَا وبُغْضِها؛ لأنَّه يعلم أنَّها بمسَاوئها قد تَقِف حجَر عثرة في طَريقه لدخُول الجنَّة، ومَنْ كانت هَذِه حاله: فأنَّى له الغُرُور والتكَبُّر؟!

وعندما حاسَبَ السَّلَفُ أنفسهم أدْرَكُوا حقِيقَتها؛ فاحْتقَرُوهَا في ذاتِ الله:

كان محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لو كان للذُّنوب ريح ما قَدرَ أحَدٌ أن يجلس إليَّ!»[2].

مع أنَّه كان مِن كبار العُبَّاد في هَذِه الأمَّة.

وقال يونس بن عُبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنِّي لأجِدُ مائة خَصْلَةٍ مِن خِصَال الخير، ما أعلم أنَّ في نَفْسِي واحدةً منها!»[3].

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ذكر الصالحون كنتُ عنهم بمعزل»[4].

ودخل حمَّاد بن سَلَمة على سفيان الثَّوري وهو يحتضر، فقال: «يا أبا عبد الله، أليس قد أمِنْتَ مِمَّا كُنتَ تخافه؟ وتقدم علَى مَن تَرْجُوه، وهو أرْحَم الرَّاحِين؟!» فقال: «يا أبا سَلَمة، أتَطْمَع لِمثْلِي أنْ يَنْجُوَ مِن النَّار؟!» قال: «إي والله، إنِّي لأرجو لك ذَلِكَ»[5].

- **الاستفادة من الأوقات:**

إنَّ مُحَاسَبة النَّفْسِ تُفْضِي بالإنسان إلَى أنْ يَسْتَغِلَّ أوقاتَهُ أفضل استغلال.

وحكى ابن عساكر عن الفقيه سليم بن أيوب الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ «أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يَدَعُ وقتاً يَمْضِي عليه بغير فائدة، إمَّا ينسخ، أو يدرس، أو يقرأ»[6].

---

(١) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٧٣)

(٢) مُحَاسَبة النَّفسِ (٣٧)

(٣) مُحَاسَبة النَّفسِ (٣٤).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٨٥)

(٥) إغاثة اللهفان (١/ ٨٥)

(٦) تبيين كذب المفتري (ص٢٦٣).

فحَقٌّ علَى مَن عَرف هَذِه الثمرات أنْ لَا يَغْفَل عن مُحَاسَبة نفسه، وأن يضيق عليها في حرَكَاتِها، وسَكَنَاتِها، وخَطِرَاتِها، وخُطُوَاتِها، فكل نَفَسٍ مِن أنفاس العُمُر جوهرة نفِيسَة، فإضاعة هَذِه الأنفاس، أو اشْتِرَاء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسرانٌ عَظِيم، لا يَسْمَح بمثله إلَّا أجْهَل النَّاس، وأحْمَقَهُم، وأقلَّهُم عقْلاً، وإنما يظهر له حقيقة هَذَا الخسران يوم التغابن.

* * *

من الَّذِي يحاسب نفسه؟

المُحَاسَبة ليست مُخْتَصَّةً بِفِئَةٍ مِن النَّاس دون فئة، بل هي شامِلَة وعامَّة لجميع المُؤْمِنِين، كبيرهم وصغيرهم، ذَكَرِهم وأُنْثَاهم، صالحهم وطَالحهم، عالِمِهم وجاهلهم.

فيحاسب صاحب الجهل نفسه: كيف يعبد الله وهو على جهل؟ ومتى يزيل الجهل عنه؟ وكيف يزيله؟ وكيف يتعلم؟ وبماذا يبدأ؟

وكذَٰلِكَ يحاسب صاحب العلم نفسه، وقد قيل: إنَّ المُحَاسَبة في النهايات، أَوْلَىٰ مِن المُحَاسَبة في البدايات.

أي: إنَّ الَّذِين سَمَوْا بأنفسهم وترفَّعوا، فعملوا الصَّالحات، وطلبوا العِلْم، وأمَرُوا بالمَعْروف، ونَهوا عن المُنكَر، وغير ذَٰلِكَ مِن الأعمال؛ عليهم أنْ يُحَاسِبُوا أنفسهم وهم علَىٰ تِلْكَ الحالة، أشد مِن محاسبتهم لأنفسهم علَىٰ حالة الجهل والغفلة.

فكم رأيْنَا مِن طلبة العِلْم مِمَّن لم يَصُن نفْسَه ولم يحاسبها؛ فانْزلق في بعض المواطن، فلا يحفظ نفْسَه عن خَوارِم المروءة، ولا يترَفَّع به عن المكروهات، بل قد يَقَع في بعض المُحَرَّمات.

ويترك أمثال هؤلاء مُحَاسَبة أنفسهم؛ اتكالاً على العلم الَّذِي عندهم، فيفتخرون به، ويتكبَّرون على غيرهم، ويقَعُون في الحسد، والبُغْض، والغِيبَة، والنَّميمة، وتظهر القَبائح، والعَورات، ويرَوْن لأنفُسِهم مزِيَّة ليست لغيرهم.

وأمثال هؤلاء لم ينفعهم عِلْمهم؛ لأنَّ العِلْمَ للعمَل كالسِّلاح للمُجاهِد، فإذا لم يستعمله فماذا يفيده؟! وكالأطعمة المُدَّخَرة للجائع، إذا لم يأكل منها: فبماذا تنفعه؟!

يُحَاوِلُ نَيْلَ المَجْدِ وَالسَّيْفُ مُغْمَدٌ ... وَيَأْمُلُ إِدْرَاكَ العُلاَ وَهْوَ نَائِمُ!

وقد يكون حال بعض الجُهَّال خيراً من حال طلَبةِ العِلْم الَّذِين هُم على هَذَا الحال؛ لأنَّ بعض العوَام قد يُحاسِب نفسَهُ على مستوى الأعمال، ويَستدرِك نفسه قبل الانزلاق والهوَى

ومن الأخطاء التي يقع فيها بعض طلبة العلم، والتي يجب عليهم أن يحاسِبوا أنفسَهُم عليها: عدم تبليغ العِلْم، وعدم تَدْرِيسِه.

وأمَّا العلماء: فهُم أوْلَى النَّاس بمُحاسَبة أنفسهم؛ وما نسمعه اليوم من الفَتاوى الضَّالة المُضِلَّة المُنتَشِرة عن القنَوات الفضائِيَّة ومواقع الإنترنت، سببها: عدم مُحاسَبة هؤلاء المُفتون لأنفسهم.

ولو وقَف هؤلاء مع أنفسهم وقفة صِدْقٍ ما تساهَلُوا في تلك الفتاوى، وما أصْدَرُوا تِلْكَ الأحكام المُوافِقَة هوَى المُستَفْتِين.

ولذَلِكَ، فإنَّ مُحاسَبة العلماء وطلبة العِلْم لأنفُسِهم ينبغِي أنْ تكُونَ أشَد ما تكُون؛ لأنَّه إنْ حاسَبَ نفْسَهُ؛ انتفَع ونفَع النَّاس، وإذا ترَكَ مُحاسَبة نفْسه؛ ضلَّ وأضلَّ.

* * *

أنواع مُحَاسَبة النَّفْسِ على الأعمال الصالحة

مُحَاسَبة النَّفسِ لَيْسَت علَى المعَاصِي فقط، ولكنها تكون في الطاعات أيضاً.

ومُحَاسَبة النَّفْسِ على الأعمال الصَّالحة على وجْهَيْن: قبل العمل، وبعد العمَل.

١. مُحَاسَبة النَّفْسِ قبل العمل:

فيُرَاعِي الهمَّ والخوَاطِر والإرَادَات والعزَائم الَّتي في نفسه، ويفكِّر في إرادة عمله، هل هي خالصة لوجه الله؟ فإن كانت كذَلِكَ؛ أقْدَمَ عليه، وإلَّا ترَكَ العمَل.

يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «رحِمَ اللهُ عبداً وقفَ عند همِّه، فإنْ كان لله مضَى، وإنْ كان لغَيْرِ اللهِ أمْسَك»[1].

ولا يَتْرك الإنسان جميعَ الأعمال إذا خاف مِن الرِّياء، وإنَّما يترك تِلْكَ الأعمال التي راءَى بها ابتداءً، أما الأعمال الصَّالحة الواجبة أو المندوبة التي اعتادها، فلا يتركها، بل يجاهد نِيَّته ويحاوِل إصلَاحهَا.

وهَذَا النَّوع مِن المُحَاسَبة مهمٌّ في إيقاع الأعْمَال على وجه الإخلَاص، وبدون المُحَاسَبة تقع هَذِه الأعمال علَى وجه الرِّياء؛ فيهلك الإنسان، ويكون داخلاً تحت قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٣-٤]، فما استفاد من أعماله شيئاً، مع أنَّ ظاهِرَها الصَّلاح.

ثُم بعد أنْ يُصَفِّيَ نِيَّته ينظر: هل هَذَا العمل مقدورٌ عليه، أو غير مقدور عليه؟

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٧٢٧٩).

فإنْ كان غير مقدور عليه؛ تَرَكَهُ حتَّى لا يضيع الوقت في شيءٍ لا يقدر عليه.

وإنْ كان مقدوراً عليه؛ وقف وقفةً أُخرَى، ونظر: هل فِعْله خيرٌ مِن تَرْكِه، أو تركُه خيرٌ مِن فعله؟

فإنْ كان فِعْله خيراً مِن تَرْكِه؛ عمِلَهُ، وإن كان تركُه خيراً مِن فِعْلِه؛ تَرَكَه.

وهَـٰذِه المُحَاسَبة مهمَّة جدّاً في وقاية النَّفس مِن الشِّرك الأكبر، والشِّرك الأصغر، أو الشرك الخفي، وهو الرياء.

٢. مُحَاسَبة النَّفسِ بعد العمل:

وهي على ثلاثة أنواع:

أولاً: محاسبتها على طاعة قصرت فيها في حق الله:

فهي مُحَاسَبة على العمل بعد الطَّاعات، كيف أوقع العِبَادة؟ هل أوقَعه على الوجه الَّذِي ينبغي؟ وهل وافق السُّنة؟ وهل نقص منها؟

كتفويت خشوعٍ في الصَّلاة، وخَرْق الصِّيام ببعض المَعَاصي، أو فسوق وجدال في الحج.

وحق الله في الطَّاعة ستة أمور:

١. الإخلاص في العمل.

٢. النَّصِيحَة لله فيه.

٣. متابعة الرَّسول ﷺ.

٤. أنْ يُحْسِنَ فيه ويُتْقِنَه.

٥. أنْ يشهد منَّة الله عليه وتوفيقه، بتيسير هَذَا العمل الصَّالح له، وإعانته عليه.

٦. أن يشهد تقصيره بعد العمل الصَّالح.

ثانياً: محاسبتها على عمل كان تركه خيراً من فعله:

فلا ينبغي للمسلم أن يشتغل بالمَفضُول حتَّى يفُوته الفاضِل، كمن اشتغَل بقِيَام اللَّيل، ففاتَتْ صلاة الفجر، أو يشتغل ببعض الأذكار، وهناك أذكار غيرها أفضل منها.

عن أم المُؤمنين جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من عندها بُكْرةً حِينَ صلَّى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أنْ أضحى، وهي جالسة، فقال: «مَا زِلْتِ عَلَى الحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟»، قالت: نعم. قال النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[1].

ثالثاً: مُحَاسَبة النَّفْسِ على تفويت النية، في الأمور المعتادة المباحة.

إنَّ الإنسان قد يُحوِّلُ الأمور المُعتادة المُباحة إلى أعمالٍ صالحة، وذلكَ إذا نوى فيها النِّيَّة الحسَنة، واحْتَسَبَ أجْرَ عمَلِه عند الله تعالى.

عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»[2].

فعلَى المسلم أنْ يُحاسِبَ نفْسَه على الأمور المُباحَة والعادات: هل كان له فيها نِيَّة صالحة، فيؤجر عليها؟ أو ذهَبَ عليه الأجر الَّذِي فيها، إن لم يكن نوَى تلك النِّيَّة الصَّالحة؟

▪▪▪

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

(٢) رواه البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

المُعينات على المُحاسَبة

معرفة الله سبحانه:

مِمَّا يُعِين على المُحَاسَبة: استشعار رقابة الله على العبد، واطِّلاعه على خفَايَاه، وأنَّه لا تخفى عليه خافية، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

قال الثَّعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبحسب معرفة العَبْد بعيُوب نفْسه، ومعرفته بجلَال ربِّه وتعَاليه واستِغْنائه، وأنَّه لا يُسْأل عمَّا يَفْعَل؛ تكون قوَّة خوفه، فأخوف النَّاس لرَبِّه: أعرفهم بنَفْسه وبرَبِّه، ثم إذا كملت المعرفة؛ أوْرَثت الخوف واحترَاق القَلْب، ثُم يفيض أثر الحرقة مِن القَلْب على البدن، فتنقمع الشَّهوات، وتَحْتَرِق بالخَوْف، ويحصل في القَلْب الذبول، والخشوع، والذلَّة، والاسْتِكَانة، ويصير العبد مستوعب الهَمِّ بخَوْفِه، والنَّظر في خطر عاقبته، فلا يكون له شغل إلَّا المُحَاسَبة، والمُجاهَدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النَّفْس في الخَطَرَات والخُطُوَات والكلمات»(١).

معرفته أنه بمُحَاسَبة نفسه سيستريح غداً:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويعينه على هَذِه المراقبة والمُحَاسَبة: معرفته أنه كُلَّما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً، إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً»(٢).

---

(١) تفسير الثعالبي (٤/ ٤١٢)، بتصرف.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠).

التفكر في الأسئلة المطروحة عليه يوم القيامة:

إنَّ التَّفكُّر في الأسئلة التي ستكون يوم القيمة؛ كفيلٌ بأنْ يجعل العبد يحسب نفسه، ويتَّجه إلى الله، ويترك الإهمال والهوَى، ويتبع الحق، ويُلْزِم نفسه الفرائض، وترك المُحَرَّمات، والاستكثار من المُستحبَّات، والبعد عن المكروهات، والمشتبهات.

فالعبد سيُسأل عن جميع ما عمِلَتْه أعضاؤه وجوارحُهُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وسيُسأل عن نِعَم الله عليه: هل حقَّق شُكْرَها؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

والسؤال ليس موجهاً للكفار والفساق فحسب، بل هو متوجه للصالحين أيضاً، قال سبحانه: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٨].

قال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّادقين: المُبلغين المؤدين عن الرُّسُل»[1].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسَيَسْأل اللهُ الأنبياء وأتباعَهُم عن هَذَا العهد الغَليظ: هل وفوا فيه وصدَقوا؛ فيثيبهم جنات النَّعيم؟ أم كفروا؛ فيعذبهم العذاب الأليم؟»[2].

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]

فإذَا كان الرُّسُل والصَّادِقُون سيُسألون يوم القيمة، فما بالك بغيرهم؟!

معرفته بالجائزة:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعينه عليها أيضاً: معرفته أن ربح هَذِه التِّجَارة: سُكْنَى الفردوس، والنَّظَر إلى وجه الرَّب سبحانه. وخسارتها: دخول النَّار، والحجاب عن الرَّب تعالى، فإذا تيقَّن هَذَا؛ هان عليه الحساب اليوم»[3].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٥٩).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٨٠).

تذكر يوم القيامة:

كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى عَدِي بن أرطأة: «اتَّقِ اللهَ يا عَدِي، وحاسب نفسك قبل يوم القيامة، واذكر ليلة تمخض فيها السَّاعة، صباحه يوم القيامة، تكور الشَّمس، وتتناثر منها النُّجوم، وتصرف فيها الخلائق زُمَراً زمراً؛ فريقٌ في الجنَّة، وفريق في السَّعير»[1]

تذكُّر الموت:

قال معروف الكرخي رَحِمَهُ اللَّهُ لرجلٍ: «صلِّ بنا الظُّهر». فقال: إنْ صلَّيتُ بِكُم الظهر لم أصلِّ بكم العصر، فقال معروف: «وكأنك تؤمل أن تعيش إلى العصر! نعوذ بالله من طول الأمل»[2].

وتكلم رجلٌ بغيبة عند معروف الكرخي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال له: «اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك»[3].

فإذا تذَكَّر الرَّجُل الموت: حاسَبَ نفْسَهُ على أعماله، وأوْقفَ نفسه عند حدِّها.

* * *

(١) تاريخ دمشق (٤٠/ ٦٢)

(٢) صيد الخاطر (ص١٦١).

(٣) حلية الأولياء (٨/ ٣٦٤).

من أين نبدأ في مُحَاسَبة النَّفسِ؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يحاسب نفسه -أولاً- على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصاً: تداركه، إمَّا بقضاء أو إصلاح.

ثم يحاسبها على المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً: تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلِقَ له: تداركه بالذكر، والإقبال على الله تعالى.

ثم يحاسبه بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلتهُ؟ وعلى أي وجه فعلته؟ ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة»[1].

لقد ذكر العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ طريقةً عمليَّةً لمُحَاسَبة النَّفسِ، فبيَّنَ ما الَّذي يُبدأ به في المُحَاسَبة، وما الَّذي يليه:

١. الفرائض: إنَّ جنس فعل الواجبات في الشَّريعة، أعْلَى مِن جنس ترك المُحَرَّمات[2]؛ لأنَّ الواجبات هي المَقصُود الأصلي، فيبدأ العبد بمُحَاسَبة نفسه على الفرائض، فإنْ

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٣).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٩٦).

رأى منه نقصاً: تدارَكه، إمَّا بإعادة الواجب، وإمَّا بالاسْتِكْثَار مِن النَّوافل، فإذا رأى بُطْلَان فَريضته مِن أصلها: أعادَه، وإنْ رأى أنَّه ناقصة فقط: ستدْركَها بالنَّوافل.

٢. المحرمات والمناهي: فيحاسب نفسه عليه: هل ارْتكَب منها شيئاً؟ ثم بعد ذَلِكَ يحاول إصلاح ما أفسده، فإن كان قد اكتسب مالاً حراماً بالربا: تخلص منه، أو اغتصب حقوقاً للآخرين: أعادها إليهم، وإن كان قد اغتابهم أو أهانهم أو احتقرهم: طلب منهم السَّماح، ودعا هم، وإن كان الأمر لا يمكن تدَاركه، كمن شرب خمراً، أو نظر إلى امرأة، أو نحو ذَلِكَ: فعليه أن يندم ويتوب، ويعقد العزم على عدم العودة، مع الإكثار من الحسنات الماحية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

٣. ثم يحاسب نفسه على الغفلة عما خُلِق له: فينظر إلى نفسه: هل هو منغمس في الملاهي والملاعب «غير المحرمة»؟، ويتدارك ذَلِكَ، بأن يأتي بفترات طويلة تعوقها في الذكر والعبادة والأعمال الصالحة؛ لتعويض الغفلة التي حدثت.

٤. مُحَاسَبة الأعضاء: ماذا فعلتُ برجليْ؟ بيدي؟ بسَمْعِي؟ ببَصَري؟ بلِسَاني؟

ويكون التَّدَارُك -في هَذِه الحالة- بإشغال الأعضاء بطاعة الله

٥. المُحَاسَبة على النوايا: ماذا أردتُ بعملي هَذَا؟ ومَا نِيَّتي فيه؟

فلابد من مُحَاسَبة خاصة للقلب؛ لصعوبة المُحَاسَبة في النوايا؛ لأنه كثيراً ما تتقلَّب، وسُمِّي القلب قلباً؛ مِن تَقلُّبه.

* * *

معاقبة النفس

إنَّ المؤمن إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفَتْ معصيةً، أو توانَتْ وتكاسلت عن شيء من الفضائل؛ فينبغي أن يُعاقِبها على ذلك، ويؤدِّبها؛ جَبْراً لِمَا فاته، وتدارُكاً لِمَا فرَّطَ، وتأديباً للنفس، ومجاهدة لها.

والنَّفس لا تَستَقِيم إلَّا أن تُجاهد، وتُحاسَب، وتُعاقَب.

والعجب أنَّ الإنسان قد يعاقب أهله وخادمه على سوء الخُلُق والتَّقصير، ولكن لا يعاقب نفسه على ما صدَر منه مِن سوء العمَل، معَ أنَّ عقوبته لنفسه أَوْلَى وأَحْرَى.

وقد يكون في اسم «العقوبة» تسامح وتجوّز، والمقصود: أنْ يُلْزِم الإنسان نفسه بطاعات وأعمال لم يكن يعملها مِن قبل، وقد كانت هذه هي طريقة السَّلف، ولنضرب لذلك أمثلة:

- فهذا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه عاقب نفسَهُ حين فاتَتْه صلاة العَصْر في جماعة، بأنْ تصدَّق بأرض قِيمتها مائتا ألف درهم!!.
- وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا فاتَتْهُ صلاة في جماعة أحيَا تِلْك الليلة كلها.
- وأخَّر -ليلة- صلاة المغرب حتى طلع كوكبان، فأعتق رقبتين
- وفاتت ابنَ أبي ربيعة رحمه الله ركعتا سُنَّة الفَجْر، فأعتق رقبة!![1].
- وابن عَوْن رحمه الله نادَتْهُ أُمُّه، فأجابَها؛ فعَلَا صوتُه صوتَها، فأعتق رقبتين![2]

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٨).

(٢) حلية الأولياء (٣/ ٣٩).

فالمعاقبة عند السلف: بإلزام النفس بالأعمال الصَّالحة، ومضاعفة أذكارها، وأورادها.

ومما يعين على معاقبة النفس: النَّظر في الأخبار الَّتي تدلُّ على كثرة الأجر، مع قلَّة العمل.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ»[١].

فإذا نظر المسلم إلى هَذَا الحديث وأمثاله، فإنه -ولا بد- سيندم على تفريطه في أوقاته ولحظاته؛ لأنه ترك الأجر الكثير لأجل راحة الجسد؛ ومن ثَمَّ: سيُلزم نفسه بأنواع العبادات الصالحة.

ومما يعين على معاقبة النفس: التأمُّل في أخبار المجتهدين، ومَن تأمّل في أحوال السَّلف وماذا كانوا يفعلون، مع نُدْرَة هَذِه النَّماذج في هَذَا الزَّمان: قادَهُ ذَلِكَ إلى مُعَاقَبة النَّفس، بإلزامها بمزيدٍ من العبادات والمُسْتحبَّات، إذا قصَّرت.

قال القاسم بن محمد رَحِمَهُ اللهُ: «غدَوْتُ يوماً -وكنت إذا غدَوْتُ بدأت بعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أُسَلِّمُ عليها-، فغدوت يوماً إليها؛ فإذا هي تصلِّي صلاة الضُّحَى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وتبكي، وتدعو، وتردد الآية، فقمت حتى مللت، وهي كما هي، فلما رأيت ذَلِكَ، ذهبت إلى السوق، فقلت: أفرغ من حاجتي، ثم أرجع، ففرغت من حاجتي، ثم رجعت، وهي كما هي، تردد الآية، وتبكي، وتدعو»[٢].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لوْلَا ثلاث ما أحْبَبْتُ أنْ أعِيشَ يوماً واحِداً: الظمأ لله بالهواجر، والسُّجود في جوف الليل، ومجالسة قوم يَنتَقُون مِن خير الكلام، كما ينتقى أطايب الثَّمر»[٣].

وقالت امرأة مسروق رَحِمَهُمَا اللهُ: «ما كان يوجد مسروق إلَّا وساقاهُ مُنْتَفِختان مِن طول الصَّلاة، والله إن كنت لأجلس خلفه؛ فأبكي رحمةً له»[٤].

---

(١) رواه أبو داود (١٣٩٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٤١٢).

(٣) الزهد، لابن المبارك (٢٧٧)، تاريخ دمشق (٤٧/ ١٥٩).

(٤) الزهد، لابن المبارك (٩٥)، تاريخ دمشق (٥٧/ ٤٢٦).

وأم الربيع بن خُثيم رَحِمَهُ اللَّهُ كانت تشفق على ولَدِهَا مِن كثرة بكائه، وسَهَره في العبادة، فنادتْه: يا بُنَيَّ، لعلَّك قتَلْتَ قتيلاً؟ قال: نعم يا أُمَّاه! فقالت: ومَن هَذَا القتيل يا بُنَيَّ؟ حتى يُتحمَّل على أهله، فيَعْفُون، والله لو يعلمون ما تَلْقَى مِن البُكَاء و لسَّهر بَعْدُ؛ لرَحِمُوك. فيقول: «يا والدة، هي نَفْسِي»[1].

وشتَّان بين هَذِه النَّفس الطَّيِّبة الطَّاهرة اللَّوَّامَة، ونفس الجَاحِد الجاهل، الَّذي قال لولده المجتهد في العبادة: أنصحك ألَّا تجْتَهِد في العِبَادَة! فسأله ولَدُه: لماذا؟ قال: لأنَّه مِن المُمْكِن أنْ لا يكون هناك شيء!!

ما هو الحد في معاقبة النفس؟

على المسلم أنْ يَسُوسَ نفْسَه سياسةً تؤدِّي إلى نجاتها؛ فيُجاهِدها ويُرَاغِمها، فإذا تعبت وكَلَّتْ: دارَاهَا، ونَفَّس عنها، فالنفس لا تأتي إلَّا بالمُدارَ ة، والمُجاهَدة.

فإذا رآها أَمِنَتْ: ذَكَّرَها، وخَوَّفها مِن الله، وإذا رآها تكَاد أنْ تَصِلَ إلى اليأس: ذكَّرَهَا بالرَّجاء، والأَمَل في الله، وهكذا.

ثُم إنَّ النَّفس تحتاج إلى أن يُمَنِّيها الإنسان بالآمَال، ويُذَكِّرها بالثَّواب؛ حتَّى تَهُون عليها الأعمال الصَّالحة.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مرَّ بي حَمَّالَان، تحت جذع ثقيل، وهما يتجاوبان بإنشادِ النَّشِيد، فأحدهما يُصْغِي إلى ما يقوله الآخر، ثم يعيده، أو يجيبه بمثله، والآخر همته مثل ذَلِكَ، فرأيتُ أنَّهما لو لم يَفْعلَا هَذَا. زادَتْ المشَقَّة عليْهِمَا، وثَقُلَ الأمر، وكُلَّما فعلَا هَذَا: هانَ الأمر، فتأمَّلت في السَّبَب، فإذَا به: تَعْلِيق فكر كل واحد منهما بما يقوله الآخر، وإحالة فِكْره في الجواب بمثل ذَلِكَ، فيقطع الطَّرِيق، ويُنْسَى ثقل المَحْمُول.

فأخذت مِن هَذَا إشارةً عجيبة، ورأيت أنَّ الإنسان قد حُمِّلَ مِن التكليف أموراً صعبة، ومِن أثقل ما حُمِّلَ: مداراة نفسه، وتكليفها الصَّبْر عمَّا تُحِبُّ، وعلى ما تكره، فرأيتُ الصَّواب: قطع طريق الصَّبْر بالتَّسْلِيَة، والتَّلطُّف للنَّفس»[2].

---

(١) الزهد، للإمام أحمد (٣٤٠)، حلية الأولياء (٢/ ١١٤).

(٢) صيد الخاطر (ص٣١)، بتصرف.

صور من مُحَاسَبة الصالحين لأنفسهم

أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان أبي يحلف، فقال: ما من الناس أحدٌ أحب إليَّ من عُمَر. قالت: ثم رجع فقال: كيف قلت يا بنية؟ قالت: ما من النَّاس أحد أحب إليَّ من عُمَر. فقال: أعزُّ»[1].

فانظر كيف حَسَبَ نفسه بعد الفراغ من الكلمة، فتدبَّرها، وأبدلها بكلمةٍ أخرى؛ لأنه رآها أدقُّ وأصْدَق.

عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى دخل حائطاً، فسمعته وهو يقول -وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط-: «عمر بن الخطاب، أمير الْمُؤمِنِينَ! بخٍ! بخٍ! والله لتتقين الله، أو ليعذبنَّك!»[2].

وإنما سمَّى نفسه «أمير الْمُؤمِنِينَ»؛ حتى يُذَكِّر نفسه أن هَذَا اللقب -وحده- لا يغني عنه من الله شيئاً.

عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحاسب نفسه:

عَنِ ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، يَبْكِي طَوِيلاً، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ:

(١) مسند عائشة، لابن أبي داود (٧١).

(٢) موطأ مالك (١٨٠٠).

شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدُّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا جَعَلَ اللهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قَالَ: قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟».

وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ، وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ، مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا، فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ، وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي، فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ، وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي»[1].

حنظلة الأسيدي رضي الله عنه:

عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه -وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ- قال: «لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سُبحان الله! ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يُذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتى كأنَّا رأيَ عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا[2] الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟»، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تُذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا

(١) أخرجه مسلم (١٢١)

(٢) خالطنا ولاعبنا.

من عندك عافَسْنا الأزوجَ والأولادَ والضيعات، نَسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ، يَا حَنْظَلَةُ! سَاعَةً، وَسَاعَةً» ثلاث مرات»[1].

علي بن الحسين:

قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت علي بن الحسين زين العابدين، يحاسب نفسه، ويناجي ربَّه، ويقول: يا نفس، حتَّامَ إلَى الدُّنيا غرورك؟ وإلى عمارتها ركونك؟ أمَا اعتبرت بمن مضَى مِن أسلافك؟ ومن وارته الأرض مِن أُلَّافِك؟ ومَن فجعت به مِن إخوانك؟ ونُقِل إلى البِلَى مِن أقرانك؟

كم تخرمت أيدي المنون مِن قرون بعد قرون؟ وكم غيرت الأرض ببلاها، وغيبت في ثراها، مِمَّن عاشرت مِن صنوف النَّاس، وشيعتهم إلى الأرماس؟

فحتَّامَ على الدُّنيا إقبالُك؟ وبشهواتها اشتِغَالك؟ وقد وخطك القتير، وأتاك النَّذير، وأنت عمَّا يُرَاد بك ساهٍ، وبلذَّة نومك لاهٍ.

انظر إلى الأُمَم الماضية، والملوك الفانية، كيف أفنَتْهُم الأيام، ووافاهم الحِمَام؛ فانمحَتْ مِن الدُّنيا آثارُهم، وبقيت فيها أخبارُهم.

كم من ذي مَنَعةٍ وسلطان، وجنود وأعوان، تمكَّن من دنياه، ونال فيها ما تمنَّاه، وبنى القصور والدَّساكر، وجمع الأعلاق والذَّخائر؛ أتاه مِن الله ما لا يُرَدُّ، ونزل به مِن قضائه ما لَا يُصَدُّ، فتعالَى الله الملك الجبَّار، المتكبِّر القهَّار، قاصم الجبارين، ومبير المتكبرين.

فالبِدَار البِدَار، والحذار الحذار مِن الدُّنيا ومكائدها، وما نصبت لك مِن مصائدها، وتحلَّت لك مِن زينتها، وأظهرت لك من بهجتها.

وهل يحرص عليها لبيب، أو يُسَرُّ بها أريب، وهو على ثقةٍ مِن فنائها، وغير طامع في بقائها؟

كيف تنام عَيْنُ مَن يخشى البيات؟ وتسكن نفس مَن يتوقَّع الممات؟

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

وما عسى أن ينال صاحب الدُّنيا مِن لذَّتها، ويتمتَّع به مِن بهجتها، مع صنوف عجائبها، وكثرة تعبه في طلبها، وما يكابد من أسقمها، وأوصابها، وآلامها؟

كم قد غرَّت الدُّنيا مِن مخلد إليها، وصرعت مِن مُكبٌّ عليها، فلم تنعشه من غرَّته، ولم تقمه من صرعته، ولم تشفه من ألمه، ولم تبرئه من سقمه.

فكم ترقع بآخرتك دنياك؟ وتركب في ذَلِكَ هواك؟ أراك ضعيف اليقين، يا مؤثر الدُّنيا على الدِّين، أبهَذَا أمرك الرَّحمن؟ أم على هَذَا أُنزل القرآن؟»[1].

الحارث المحاسبي:

الحارث المحاسبي، ذَلِكَ العابد الزاهد، سمي بهَذَا الاسم؛ لكثرة ما كان يحاسب نفسه، قال السَّمعاني: «المُحاسبي: سمي بذَلِكَ؛ لأنه كان يحاسب نفسه»[2].

ابن الجوزي:

يقول عن نفسه: «تفكرت في نفسي يوماً، تفكُّر محقق، فحاسبتها قبل أن تُحاسَب، ووزنتُها قبل أن تُوزَن، فرأيت اللطف الرَّباني، فمنذ الطُّفولة وإلى الآن، أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عمَّ يوجب العقوبة، وما أرى لذَلِكَ شكراً، إلَّا باللسن.

ولقد تفكَّرت في خطايا، لو عوقبت ببعضها، لهلكت سريعاً، ولو كشف للنَّاس بعضها، لاستَحْيَيْت. ولا يعتقد معتقد عند سماع هَذَا أنها من كبائر الذُّنوب، حتى يظن فيَّ ما يظن في الفُسَّاق، بل هي قبيحة في حقِّ مِثْلِي، ووقعت بتأويلات فاسدة؛ فصرت أقول إذا دعوت: «اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي».

ثم طالبت نفسي بالشُّكر على ذَلِكَ، فما وجدته كما ينبغي، فأخذت أنوحُ علَى تقصيري، وصرت أرجو مقام الكبار، فذهب العمر، وما حصل المقصود»[3].

***

---

(١) تاريخ دمشق (٤١/ ٤٠٤-٤٠٨)، بتصرف.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي (ص ١١٧).
(٣) صيد الخاطر (ص ٤٧١)، بتصرف.

الخاتمة

ينبغي للعبد أن يكون له ساعة يطالب نفسه فيها، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكَناتِها، كما يفعل تُجَّار الدُّنيا مع الشركاء؛ حرصاً على ألا يفوتهم شيءٌ من حقهم.

ومعاصي النفس كثيرةٌ، وخيرٌ للمرء أن يحاسب نفسه كل يوم، قبل أن يأتي يومٌ يُحسَب فيه على عمره، دفعة واحدة.

كان رجل يحاسب نفسه، فحسب يوماً سنين عمره، فوجدها ستين سنة، فحسب أيامه، فوجدها واحداً وعشرين ألف يوم، وخمس مئة يوم، فصرخ صرخةً، وخَرَّ مغشِيّاً عليه، فلما أفاق، قال: «يا ويلتاه، أنا آتي ربي بواحدٍ وعشرين ألف ذنب، وخمس مئة ذنب!».

يقول هَذَا لو كان ذنب واحد في كل يوم، فكيف بذنوب كثيرة لا تُحصَى؟

ثم قال: «آهٍ عليَّ، عَمَّرْتُ دُنْيَـايَ، وخَرَّبْتُ أُخْـرَاي، وعصيت مَوْلَاي، ثُمَّ لا أشتهي النُّقلة مِن العمران إلى الخراب، وكيف أشتهي النقلة إلى دار الكتاب، والحساب، والعتاب، والعذاب، بلا عمل، ولا ثواب؟!»[1].

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم صلاح النُّفوس.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

* * *

(١) العاقبة في ذكر الموت، للإشبيلي (ص٣١).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع، أسئلة إجاباتها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما المقصود بالمُحَاسَبة؟

٢. اذكر أنواع مُحَاسَبة النَّفْسِ.

٣. هل للمُحَاسَبة أصل في الكتاب والسنة؟

٤. اذكر أوصاف النَّفْس المذكورة في القرآن.

٥. للمُحَاسَبة فوائد وثمرات جليلة، اذكر خمسة منها.

٦. اذكر صوراً من مُحَاسَبة الصَّالِحِين لأنفسهم.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. كيف يحاسب الجاهل نفسه؟

٢. كيف يحاسب العالم نفسه؟

٣. هل المُحَاسَبة خاصة بالعُصَاة فقط؟

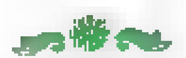
٤. كيف يحاسب المسلم نفسه على العمل الصَّالح؟

٥. ما الأمور المُعِينَة على حُسْن مُحَاسَبة النَّفْسِ؟

٦. بماذا يبدأ المسلم محاسبته لنفسه؟

٧. ما الأحوال التي لا يُندب فيها الإنسان إلى معاقبة نفسه؟ ولماذا؟

٨. اذكر كتاباً تحدَّث عن المُحَاسَبة.





المحبة

مُقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين. أما بعد:

فسنتحدث في هذا الفصل عن منزلة المحبة، وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وبروح نسيمها تروَّح العبدون، فهي قوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وقُرَّةُ العيون.

وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَها فهو من جُملة الأموات.

والنور الذي مَنْ فَقَدَهُ فهو في بحار الظلمات.

وهي روحُ الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال.

نسأ الله أن نكونَ من أهلِها، إنه سميع قريب.

* * *

تعريف المحبة

المحبة في اللغة:

قال ابن منظور:

«الحُبُّ: نَقِيضُ البُغْضِ، والحُبُّ: الودادُ والمَحَبَّةُ، وكذلك الحِبُّ بالكسر... وأَحَبَّهُ، فهو مُحِبٌّ، وهو مَحْبُوبٌ»[1].

وقد ذكر ابن القيم في معانيها:

أنها من الصفاء والبياض؛ ومنه قولهم لصفاء الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

وقيل: إنها مأخوذة من العلو والظهور، ومنه: حبب الماء، وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحبب الكأس منه.

فعلى هذا: فإن المحبة: غليان القلب عند الاحتياج إلى لقاء المحبوب.

وقيل: إنها مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه: حَبَّ البعير، وأحبّ: إذا برك ولم يقم، قال الشاعر:

حَلَّتْ عَلَيْهِ بِالفَلاةِ ضَرْبَا ضَرْبَ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحَبَّا

أي: إذا أقام في المقام ولزمه، فكأن المحب قد لزم قلبُه محبوبَه، فلم يرم عنه انتقالاً

وقيل: إنها مأخوذة من الحَبّ، جمع حبة، وهو لباب الشيء، وخالصه، وأصله، فإن الحَبّ، أصل النبات والشجر.

---

(١) لسان العرب (١/ ٢٨٩).

وقيل: بل مأخوذة من الحِبِّ، الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء، فيمتلئ به، بحيث لا يسع غيره، وكذلك قلب المحب، ليس فيه سعة لغير محبوبه.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة؛ فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها، وظهورها منه؛ لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوما لا تفرقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبّه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه[1].

المفهوم الشرعي للمحبة:

محبة العباد لله هي: ميل القلوب إليه، بالحب، و لتعظيم، والإجلال، والرجاء[2]، فهي إذن عمل قلبي، يزيد، وينقص، ويتفاوت العبد فيه، وما يذكره الناس غالباً في المحبة، يدور حول أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، أما حقيقتها: فهي لا توصف بوصف أوضح ولا أظهر من المحبة[3].

***

(١) ينظر: مدارج السالكين (٣/ ٩-١٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان (١/ ٦٦).

(٣) ينظر: مدارج السالكين (٣/ ٩-١٠).

حكم محبة الله سبحانه وتعالى

محبة الله سبحانه هي أصل دين الإسلام، الذي يدور عليه قطب رحاه، وبكمالها يكمل الإيمان، وبنقصانها ينقص توحيد الإنسان.

وهذه المحبة واجبة بإجماع المسلمين، والعبدُ مكلفٌ بأن يأتي بما يوصله إلى محبة الله سبحانه، ليستكمل لوازم الإيمان، وشروطه.

قال أبو عبد الله بن خفيف: دخل البصري على أبي عباس بن سريج، فقال له ابن سريج: «أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فرض؟» فقال: لا أدري. فقال له: «قوله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، والوعيد لا يكون إلا على ترك فرض»[1].

ومحبة العبد لله سبحانه الواجبة، هي محبة التعظيم، والإجلال، والعبادة، وليست كغيرها من أنواع المحبة.

قال سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المحبة قسمان: مشتركة، وخاصة.

فالمشتركة: ثلاثة أنواع: أحدها: محبة طبيعية؛ كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، ونحو ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق؛ كمحبة الوالد لولده الطفل، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

(١) شعب الإيمان (١/ ٣٦٥).

لثالث: محبة أنس، وإلف؛ وهي محبة المشتركين في صنعة، أو علم، أو مرافقة، أو تجارة، أو سفر، لبعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة، بعضهم بعضاً.

فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله.

لقسم الثاني: المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله، وهي محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً»[1].

* * *

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٤١١).

العلامات الدالة على محبة العبد لربه تعالى

لما كانت المحبة خفية في القلب سهُل أن يدّعيها كل أحد: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

فما أسهل الدعوى، وما أعز الحقيقة!.

فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس، إذا ادعت نفسه محبة الله، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، ليعلم: أصادقة هي، أم كاذبة فيما تدعيه.

والمحبة: شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، وعلاماتها تظهر في القلب، والجوارح، فتدلّ العلامات على المحبة، كدلالة الثمار على الأشجار، والدخان على النار، وهذه العلامات كثيرة، نذكر منها:

حب لقاء الله تعالى:

فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوباً، إلا ويحب لقاءه، ومشاهدته، عن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ»[1].

فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائماً، ولا ينسى موعد لقاء حبيبه.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

ولما علم الله عَزَّوَجَلَّ شوق عباده المحبين له والمطيعين: ضرب لهم موعداً بينه وبينهم، فقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

ولكن، ما هو موعد اللقاء بين الرب والعبد؟

هناك أكثر من موعد: فالأول: الموت، والثاني: يوم القيامة، والثالث: اللقاء في الجنة، والنظر إلى وجه الرب تعالى.

وليس المراد هنا أن على العبد أن يتمنى الموت الآن إن كان محباً لله، ولكن المراد أن المحب لله إذا نزل به الموت أحب نزوله؛ لأنه سيفضي به إلى لقاء الله وقربه، وإلى الاستمتاع بما أعد له من الثواب والنعيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه:

قال محمد بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس»[١].

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أحب الله نسي ما دون الله»[٢].

فالمحب لله يواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل، وصفاء الوقت، وانقطاع العوائق، وإن أقل درجات التنعم تكون بمناجاة الحبيب، ومن كان النوم، والاشتغال بالحديث، ألذ عنده من مناجاة الله، فكيف تصح محبته؟، فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه، وتصرفه في طاعته، وكلما كانت المحبة أقوى، كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل.

وهذا نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حُبِّبَ إليه من الدنيا أنواعٌ من الطيبات، ومع ذلك: فإن قرة عينه إنما كانت في مناجاة ربه تعالى في الصلاة؛ فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءُ، وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[٣].

---

(١) التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا (٦٤)، تفسير ابن كثير (٣/ ٥٨٨).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ١٧٤).
(٣) رواه النسائي (٣٩٣٩)، والحاكم (٢٦٧٦)، وصححه، وصححه الألباني في صحيح النسائي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قُرَّةُ العين فوق المحبة، فجعل النساء والطيب مما يحبه، وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها، ومحض لذته، وفرحه، وسروره، وبهجته، إنما هو في الصلاة، التي هي صلة الله، وحضور بين يديه، ومناجاة له، واقتراب منه، فكيف لا تكون قرة العين؟ وكيف تقرّ عين المحب بسواها؟»[1].

وقال: «ومن قرّت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عَزَّوَجَلَّ في الآخرة، وقرت عينه أيضاً به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات»[2].

الصبر على الطاعات:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قرة عين المحب ولذته ونعيم روحه في طاعة محبوبه، بخلاف المطيع كرهاً، المتحمل للخدمة ثقلاً، الذي يرى أنه لولا ذُلّ قهره، وعقوبة سيده له، لما أطاعه، فهو يتحمل طاعته، كالمكره الذي أذله مُكرِهُه وقاهرُه، بخلاف المحب الذي يَعُدُّ طاعة محبوبه قوتاً، ونعيماً، ولذةً، وسروراً، فهذا ليس الحامل له على الطاعة والعبادة والعمل ذل الإكراه»[3].

فالمحب تكون دواعي قلبه وجواذبه منساقة إلى الله، طوعاً، ومحبة، وإيثاراً، كجريان الماء في منحدره، وهذا حال المحبين الصادقين؛ فإن عبادتهم طوعاً، ومحبة، ورضا، ففيها قرة عيونهم، وسرور قلوبهم، ولذة أرواحهم.

ولكن، كيف نوفّق بين هذا، وبين ما يجده الإنسان من المشاق في عباداته؟ كما يشق على الكثير القيام لصلاة الفجر -مثلاً-، فهل معنى ذلك أن هذا إنسان لا يحب الله؟

الجواب: أن الوصول إلى مرحلة يكون فيها العابد لربه كالماء الذي يجري في المنحدرات؛ لا تتم من أول الأمر، ولا يصل إليها العبد من أول العبادة والعمل، بل يصل إليها بعد

---

(١) طريق الهجرتين (ص٧١).

(٢) الوابل الصيب (ص٣٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٠٢-١٠٣) بتصرف.

تدريب، ومكابدة، ومشقة، ومجاهدة، ولذلك فإن اللذة، والتنعم بالطاعة، تحصل بعد الصبر على التعب والمكاره -أولاً-، فإذا صبر وصدق في صبره وصل إلى مرحلة اللذة، التي تكون العبادة بعدها عنده كجريان الماء في منحدره، ولذلك قال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة»[1].

ولا يزال السالك عرضة للفتور، والانتكاس، والآفات، حتى يصل إلى هذه الحالة، ففترة المشقة تكون مصحوبة باحتمالات انتكاس، وفتور، وبرود، وآفات، حتى يصل إلى مرحلة اللذة بالطاعة، ويمكن للفرد أن يشعر أنه يتلذذ بالطاعة أحياناً، وتشق عليه أحياناً، وأن نفسه تتقلب، حتى تستقر على التلذذ بالطاعة دائماً.

ومن عرف أن هذا هو طريق محبة الله، وعرف كيف يكون أوله، وآخره، وماذا سيلقى: وطَّن نفسه على الصبر، وهذه مسألة في غاية الأهمية.

فالعمل لله والعبادة مراتب ودرجات، ومَن فَقِه هذا التدرج عرف كيف يصل، أما الذي لا يعرف عن هذا الموضوع شيئاً: فعباداته كلها تقليد، وليس عنده تصور لقضية البدء والاستمرار، وما يحصل في الطريق من آفات.

الصبر على المكاره:

والصبر على المكاره من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، فهم أحوج إلى منزلة الصبر من كل منزلة.

فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية، مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب؟

قيل: هذه هي النكتة، ولبّ الموضوع، والقصد، والفائدة، التي لأجلها كان الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وأعلقها به، وبه يُعلم صحيحُ المحبة من معلولها، وصادقُها من كاذبها؛ فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة المحبة، ومن هنا كانت محبة كثير من الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره لم يصبر كثير منهم، ولم

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣٢١).

يثبت إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق، وتجشّم المكاره بالصبر، ما ثبتت صحة الدعوة، وقد تبين أن أعظم الناس محبة لله: أشدهم صبراً، وهذا ما وصف الله به أولياءه وخاصته، فقال عن عبده أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ابتلاه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن الصبر لا يكون إلا بالله، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في جوف المحبة احتمال المكروهات»[1].

وقال الحليمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أحب الله تعالى لم يعد المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه، ولم يستثقل وظائف عبادته وتكاليفه المكتوبة عليه»[2].

أن لا يُؤْثِرَ عليه شيئاً من المحبوبات:

فيكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، قال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، لأنت أَحَبُّ إِلَيَّ من كل شيء، إلا من نفسي. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». فقال له عمر: فإنه الآن -والله- لأنت أَحَبُّ إِلَيَّ من نفسي. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْآنَ يَا عُمَرُ**»[3].

فمن العلامات على صدق المحبة: أن لا يقدم العبد شيئاً على الله ورسوله، لا ولده، ولا والده، ولا الناس، ولا أي شهوة، ومن آثر على الله شيئاً من المحبوبات: فقلبه مريض، قال الشاعر:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي القِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[4]

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ١٣).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٦٨).

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٤) روضة المحبين (ص٢٦٦).

وسئل أبو الحسين بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: ما علامة المحبة؟ قال: «ترك ما تحب، لمن تحب»[1]

ملاحظة مهمة في هذه المسألة:

وهي ملاحظة تهمّ الدعاة في التعمل مع المدعوين، وهي أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها.

فلو شرب أحدهم الخمر -مثلاً- لا يقال إنه لا يحب الله أبداً؛ لأن المحبة كالإيمان، لها أصل، ولها كمال، فحسب المعاصي ينقص الكمال، ولكن الذي ليس في قلبه محبة لله فهو كافر، وليس له من الدين نصيب.

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُضْحِكُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جَلَدَهُ فِي الشرابِ، فأُتِيَ بِهِ يوماً، فأمر بِهِ فَجُلِدَ، فقال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤْتَى بِهِ! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَ اللهِ، مَا عَلِمْتُ، إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»**[2].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذا الحديث: «فيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي، وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله، مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية، لا تنزع منه محبة الله ورسوله.

ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً بما إذا ندم على وقوع المعصية، وأقيم عليه الحد، فكفّر عنه الذنب المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك، فإنه يُخشى عليه - بتكرار الذنب- أن يُطبع على قلبه شيء، حتى يُسلب منه ذلك، نسأل الله العفو والعافية»[3].

أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى:

قال إبراهيم بن الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان بعض العبّاد يقول: إن من أخلاق أهل محبة الله:

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٣٨١)

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٠).

(٣) فتح الباري (١٢/ ٨٧).

كثرة الذكر في ساعات الليل والنهار، بالقلب واللسان، فإن أمسك اللسان فالقلب؛ فإن ذكر القلب أبلغ، وأنفع»[1].

فالمحب الصدق لا يفتر لسانه عن ذكر الله، ولا يخلو منه قلبه؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة حب الله دوام ذكره؛ لأن من أحب شيئاً أكثر ذكره»[2].

ولقد أمر الله تعالى عباده بذكره في أخوف المواضع، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأنفال: ٤٥]، فلا تشغلكم ظلال السيوف وقعقعتها عن ذكر ربكم.

فعلامة المحبة الصدقة: ذكر المحبوب عند الرغبة والرهبة، وقد كان العرب في الجاهلية يفتخرون في أشعارهم بذكر المحبوبة في الحرب، وتحت وقع السلاح، وأهل الإيمان أولى بهذا منهم؛ بحبهم للرحمن، وانشغالهم بذكره.

ومن الذكر الدال على صدق المحبة: سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحب ولسانه، عند أول يقظة من منامه، وآخر شيء يذكره قبل أن ينام مرة أخرى، فينام على ذكره، ويستيقظ على ذكره، ومن حافظ على أذكار النوم والاستيقاظ: دل ذلك على محبته لله تعالى.

المحب الصادق إذا ذكر الله خالياً: وَجِل قلبه، وفاضت عيناه من خشية الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فعُشّاق الدنيا إذا جاء ذكر محبوبهم ومعشوقهم تسرعت نبضات قلوبهم، فكيف يكون حال المؤمنين عند ذكر خالقهم ورازقهم وهاديهم؟!.

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ١٨٦).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٨٨).

أن يغار لله:

فيغضب لمحرمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، فهذه هي غيرة المحب حقاً، والدين كله تحت هذه الغيرة، فأقوى الناس ديناً، وأعظمهم محبة لله: أعظمهم غيرة على حرمات الله، ولذلك ينكرون المنكرات، ويمنعونها؛ غيرةً، لأن محبوبهم لا يرضى بهذا، فهم لا يرضون به، ولا يرضون بحصوله، ويسعون في تغييره.

محبة كلام الله عَزَّوَجَلَّ:

إذا أردت أن تعلم مقدار محبتك لله: فانظر محبة القرآن من قلبك؛ فمن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحبَّ شيء إليه، فلا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم، ومن هنا كان عكوف المحبين لله على كتاب الله، تلاوةً، وتفسيراً، وتدبراً، واستشهاداً به في كل موقف، فيكثرون من القراءة، نظراً، وحفظاً.

ألا ترى أن بعض الناس إذا أحب شخصاً فكثيراً ما يقتطف من كلامه، ويستشهد به، ويتمثله، فكيف بحال المحبين لله تعالى، والمحبين لكتابه؟!.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله عَزَّوَجَلَّ: فليعرض نفسه على القرآن؛ فإن أحب القرآن فهو يحب الله عَزَّوَجَلَّ، فإنما القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لا تبلغوا ذروة هذا الأمر، حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أحب القرآن فقد أحب الله عَزَّوَجَلَّ»[2].

أن يتأسف على ما يفوته من طاعة الله، وذكره:

فترى أشد الأشياء عليه: ضياع شيء من وقته، بدون عمل وطاعة، وإذا فاته وِرْدُه وجد لفواته ألماً، أعظم من تألم الحريص على ماله من فوت ماله وسرقته وضياعه، وبادر إلى قضائه في أقرب فرصة، كما كان يفعل الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(١) السنة، لعبد الله بن أحمد (١٢٥).

(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٦٥).

قلت: «كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض: صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة»[1].

أن يستقلّ في حق محبوبه جميع أعماله، ولا يراها شيئاً:

فلا يرى أن عبدته والصبر عليه بشيء، ولا يرى أفعاله قط إلا بعين النقص والازدراء، ويرى شأن محبوبه أعظم من كل ما عمل من أجله، وأعلى قدراً، فلا يرضى بعمله، بل يتهم عمله، ويحتقره، ويخشى أنه ما وفّى حق محبوبه، ويتوب إليه من النقص، ولذلك فهو يقول بعد الصلاة: أستغفر الله، فهو دائم الاستغفار؛ للنقص الحاصل في عبادة الرب، وكلما ازداد حبّ لله ازداد معرفة بحقه، فاستقل عمله أكثر، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أن يكون ذليلاً على المسلمين، عزيزاً على الكافرين، مجاهداً، لا يخاف في الله لومة لائم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ما هي صفاتهم؟ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فهذه أوصاف أربعة: ذلتهم ورحمتهم للمؤمنين، وعزتهم على الكافرين، وجهادهم في سبيل الله، وعدم خوفهم لومة لائم.

سئل ذو النون المصري رحمه الله عن المحبة فقال: «أن تحب ما أحب الله، وتبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير لله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين، والغلظة على الكافرين، واتباع سنة رسول الله ﷺ في الدين»[2].

اتباع شرع الله تعالى:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦)

(٢) شعب الإيمان (١/ ٣٦٩)

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي، في جميع أقواله، وأحواله»[1].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله: فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله، ويصفق بيديه مع ذكره، ويطرب، وينعر، ويصعق: فلا تشك في أنه لا يعرف ما الله، ولا يدري ما محبة الله، وما تصفيقه، وطربه، ونعرته، وصعقته، إلا أنه تصور في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة، فسماها الله -بجهله ودعارته-، ثم صفق، وطرب، ونعر، وصعق عند تصورها، وربما رأيت المني قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقته! وحمقى العامة على حواليه، قد ملؤوا أردانهم بالدموع؛ لما رققهم من حاله»[2].

الموالاة في الله، والمعاداة في الله:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تمام محبة الله ورسوله: بغض من حاد الله ورسوله»[3].

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المحبة في الله محبة لله»[4].

محبة المؤمنين والصالحين:

قال شاه الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة أولياء الله دليل على محبة الله»[5].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن محبة الله ومحبة رسوله: محبة أهل ملته»[6].

كحب آل البيت. فعن يعلى بن مرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُسَيْنٌ مِنِّي، وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ. أَحَبَّ اللهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْناً. حُسَيْنٌ سِبْطٌ مِنَ الْأَسْبَاطِ»[7].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٧٧).

(٢) الكشاف (١/ ١٧٣)

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦١)

(٤) فيض القدير (٤/ ٤٨٥)

(٥) حلية الأولياء (١٠/ ٢٣٧)

(٦) فتح الباري (١/ ١٤٩).

(٧) رواه الترمذي (٣٧٧٥)، وابن ماجة (١٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أشهد أني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ»[1].

وحب الصحابة: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لا ينبغي لأحد أن يبغض أسامة، بعد ما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ كَانَ يُحِبُّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولَهُ، فَلْيُحِبَّ أُسَامَةَ»[2].

الزهد في الحياة الدنيا:

فمحبة الله عز وجل توجب الزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، وكلما ازداد العبد محبة لله ازداد زهدا في الدنيا، واشتغالا بأمر الآخرة عنها، والزهد في الدنيا يجلب المحبتين: محبة الرب تعالى لعبده، ومحبة العبد لربه، وعن سهل بن سعد، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»[3].

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٨٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٢٩٩).

(٢) رواه أحمد (٢٥٢٧٣)، وصححه محققو المسند لغيره.

(٣) رواه ابن ماجة (٤١٠٢)، وهو حديث حسن.

الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى

إن على المسلم أن يسعى بكل طاقته وجهده ليكون محباً لله تعالى، لأجل هذا نستعرض هنا بعض الأسباب الجالبة لمحبة الله سبحانه وتعالى في قلب العبد المؤمن:

- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه، ومعرفة ما أريد به:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا هو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم من إنزال القرآن، أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما يقرأ، ويتجاوب مع كل آية بمشاعره، وحسّه: دعاءً، واستغفاراً، ورجاءً.

عن حُذَيفة رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة. فمضى، فقلت: يركع بها. ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عِمران، فقرأها، يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سَبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوُّذ تعوَّذ[1].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[2].

فلا شيء أنفع للقلب، وأجلب لمحبة الله، من قراءة القرآن، بالتدبر، والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، وهو الذي يورث المحبة، والشوق،

(١) رواه مسلم (٧٧٢).

(٢) رواه أبو داود (٨٨٣)، وأحمد (٢٠٦٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضا، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال، وأعمال القلوب، ثم يزجر عن الصفات المذمومة، والأفعال القبيحة، التي تفسد القلب، وتهلكه.

وقد أهمل الناس هذا الجانب، ولم يفقهوه، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً»[1].

يعني: أنهم اقتصروا على تلاوته، وتركوا العمل به.

فالتفكر في القرآن وتدبره أصل صلاح القلب، والعمل به متمم لذلك، ولابد لهذا من هذا.

• **فعل الطاعات، وترك المخالفات:**

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة العبد لله تحصل بفعل طاعته، وترك مخالفته»[2].

وقال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس بصادق من ادعى محبة الله، ولم يحفظ حدوده»[3]

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصلاة قدرها عظيم، فإنه ينشأ عنها محبة الله للعبد الذي يتقرب بها؛ وذلك لأنها محل المناجاة والقربة، ولا واسطة فيها بين العبد وربه، ولا شيء أقرّ لعين العبد منها، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه، ولا يخرج منه؛ لأن فيه نعيمه، وبه تطيب حياته، وإنما يحصل ذلك للعابد بالمصابرة على النصب»[4].

• **التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض:**

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ**

(١) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص١٤٨)

(٢) فتح الباري (١/ ٦١).

(٣) كلمة الإخلاص، لابن رجب (ص٣٢)

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٤٥)

الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[(١)].

فتضمن هذا الحديث الإلهي الشريف حصر أسباب محبة الله في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل، وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ما يتقرب إليه المتقربون، ثم من بعدها النوافل، والعبد يستكثر من النوافل، ولا يزال يكثر منه حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً: شغلته المحبة عن أي أفكار وخواطر أخرى أجنبية غريبة عن العبادة، فلا تخطر على باله، وإذا جاءت فإنها تنصرف وتُطرد بسرعة؛ لأنه صار عنده من مراقبة الله ما يمنع هذه الأفكار من الورود، ويكون عنده من الهابة والعظمة لربه، ما يمنع من الانشغال بأي شيء أجنبي عن عبادته، ويكون عنده من الإجلال لله، والأنس به، والشوق إليه، ما يجعله دائماً ذاكراً، تالياً، عابداً، عملاً.

فإذا قيل: إن هناك أناساً -وهذا حال كثير من المسلمين- يستكثرون من النوافل، وهم مقصرون في الواجبات، ويقترفون المعاصي، فما الحل؟

فالجواب: ليس الحل في ترك النوافل، فبتركها يزداد حالهم سوءاً؛ لأن النوافل تجبر نقص الفرائض، بل الحل في البقاء على النوافل، ولكن عليه أن يصلح حال الواجبات، ويمتنع عن المحرمات، ويزيد في النوافل، فهذا هو السبيل.

- **أن يكثر ذكر الله باللسان، والقلب، والعمل:**

فنصيب العبد من المحبة على حسب نصيبه من هذا الذكر؛ ولهذا أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وبيّن أنه سبب للفلاح؛ فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وأثنى على أهل الذكر، ومدحهم، واختصهم بفضله.

وشرع الله هذا الذكر، حتى بعد العبادات العظيمة، والأعمال الصالحة، فبعد الصيام: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

١٨٥]، وبعد الحج: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وبعد الصلاة: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وبعد الجمعة: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فذكر الله تعالى من أعظم ما يوصل إلى محبته عَزَّوَجَلَّ.

- **أن تؤثر محابّه على محابّك عند غلبات الهوى، وأن تسنم إلى محابّه ولو صعُب المرتقى:**

وعلامة هذا الإيثار شيئان:

- فعل ما يحبه الله، ولو كانت نفسك تكرهه.
- ترك ما يكرهه الله، ولو كانت نفسك تحبه.

وبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤونة هذا الإيثار شديدة؛ لقوة داعي الهوى، والطبع، والعادة، ولكن المؤمن الذي يريد أن يصل إلى مرتبة المحبة، وأن يجلب محبة الله له، يتكلف المؤونة الشديدة، ويراغم نفسه الضعيفة؛ لكي يصل إلى هذا، ويحقق هذا الإيثار، فيشمر وإن عظمت المحنة، ويتحمل المشاقّ؛ إرضاء لربه، ولأجل الحصول على الفوز والفلاح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي، وميل نفسه إليها، إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها، وخير له، وأنفع، وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات، واشتدت إرادته لها، وشوقه إليها؛ صرف ذلك الشوق، والإرادة، والمحبة، إلى النوع العالي، الدائم»[1].

والقاعدة: أن الإنسان لا يمكن أن يترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه، ومن آثر محبوبه مع منازعة نفسه، أعظم درجة ممن آثره مع عدم منازعتها.

ولماذا كان صالحو البشر أفضل من الملائكة؟

---

(١) الفوائد (ص١١٠-١١١).

لأن الملائكة ليس لديهم شهوات، ومنازعات، فهم منقادون إلى الله بطبيعتهم، يسبحون لليل والنهار لا يفترون، ما من موضع أربعة أصابع في السماء، إلا وفيه ملك قائم، أو راكع، أو سجد، ولذلك أطّت السماء من ثقل الملائكة الذين يعبدون الله فيه، لكن الذي يسبّح، ويعبد، دون أن يفتر، مع منازعة نفسه، والشهوات، ومع العوائق، والعلائق، وهو صامد صابر: فهذا أعلى درجة، وأفضل.

ولماذا كانت المرأة من البشر في الجنة أفضل من الحور العين؟

بمجاهدتها نفسها، ومراغمتها، وصبرها، وصلاتها، وصومها، وعبادتها.

فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات: إما حجاباً له عنه، أو حجاباً له يوصله إلى رضاه.

- **مشاهدة بِرّه تعالى، وإحسانه، وآلائه، ونعمه الظاهرة، والباطنة:**

فإنها داعية إلى محبته، والقلوب قد جبلت على محبة من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً على أحد، من الله عَزَّوَجَلَّ على عبده؛ فإن إحسانه على عبده في كل نَفَسٍ ولحظة، والعبد يتقلب في نعم الرب دائماً في كل الأحوال، ويكفي العبد أن يعلم أن الله سبحانه ينعم في كل يوم وليلة: أربعة وعشرين ألف نعمة، ضمن نعمة واحدة، وهي نعمة النَّفَس.

كيف ذلك؟

إن الإنسان -كما حسب علماء الطبيعة- يتنفس في الساعة ألف مرة، ففي الأربع والعشرين ساعة يتنفس أربعاً وعشرين ألف مرة، فهذه أربع وعشرون ألف نعمة، في اليوم والواحد، فما الظن بالنعم الأخرى؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]!.

بل كيف بالمضرّات التي يصرفها، ويدفعها عنك سبحانه، إضافة لهذه النعم، وهذا الإحسان؟ فقد وكّل سبحانه لك حفظة يحفظونك: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، والله يكلؤنا بالليل، والنهار: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

والأطباء يقولون: إن وسائل الإصابة بالأمراض متعددة، وكثيرة جداً، ولكننا لا نعلم كيف اندفعت عنا الشرور، إنها نعمة الله علينا، وفضله، فهو سبحانه المنعم بالكلاءة، والحفظ، والحراسة، فهو يحفظ عباده، ولا حافظ غيره: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

والله سبحانه ينعم علينا، رغم المعاصي والإساءات والتقصير، ولو أنه حاسبنا على معاصينا: لهلكنا.

عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ!»[1].

• **مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته:**

فإن محبة الله التي نتحدث عنها أمر عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يقدر على إدراك قيمتها إلا من عرف الله بصفاته، كما وصف نفسه، فمن عرف الله تعالى بأسمائه، وصفاته، وأفعاله: أحبّه - لا محالة -، وقوة المعرفة تورث قوة المحبة، فكيف نُحِبُّ من لا نعرفه؟!.

قال عتبة الغُلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «من عرف الله أحبه»[2].

وقال القاسم بن عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل المحبة: المعرفة»[3].

وهذا الباب هو الذي يدخل منه خواصّ أولياء الله، العارفين به، وهو باب المحبين حقاً، الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشبع من معرفته أحدٌ منهم، كلما بدا لهم منه علم؛ زادوا شوقاً، ومحبة إلى الله، فإذا انضمّ داعي الإحسان، والإنعام، إلى داعي الكمال، والجمال: لم يتخلف عن محبة مَن هذا شأنه، إلا أردأ القلوب، وأخبثُها، وأبعدُها عن كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عباده؛ فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً من

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٣٦).

(٣) حلية الأولياء (٩/ ٣٢٣).

لله، ولا شيء أكمل من الله، ولا شيء أجمل من لله، فكل جمال وكمال في المخلوق أصلاً، فهو من آثار صُنعه سبحانه وتعلى، لا يُوصف جلاله، وجماله، ولا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بجميل صفاته، وعظيم إحسانه، وبديع أفعاله، بل هو كما أثنى على نفسه.

فإذا كان الناس يحبون الجميل؛ فالله عَزَّوَجَلَّ أجمل من كل شيء، وله صفة الجمال، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[1]، وإذا كان يوسف أُعطي نصف حسن البشر؛ فالله سبحانه هو من أعطاه إياه، وهو أجمل من كل شيء، ولذلك إذا رآه أهل الجنة نسوا كل شيء، ومن تأمل هذا عرف كيف يتغلب على الأشياء المستحسنة في الدنيا من المعاصي.

وكل اسم من أسمائه، وصفة من صفاته، تستدعي محبة خاصة، فلو نظرت إلى اسمه (الكريم) فإنك تحبه لكرمه، وإذا نظرت إلى اسمه (الجليل) فإنك تحبه لجلاله، وإذا نظرت إلى اسمه (الرحيم) فإنك تحبه لرحمته، ... وهكذا.

فكل اسم من أسمائه تعالى، وكل صفة من صفته، تقود إلى محبته، محبةً أكثر، محبة تنطلق من هذا الاسم، وهذه الصفة، وهذا الفعل، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وكل ما أمر، إذ ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفَه، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة، والمصلحة، والعدل، والفضل، والرحمة، وكل واحد من هذه يستوجب حمداً، وثناءً، على الله سبحانه وتعالى.

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهْوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ[2]

ولا يتصور بشر هذا المقام حق تصوره، فضلاً عن أن يوفيه حقه، وأعرف خلقه به، وأحبهم إليه: محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ!»[3]، فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه ألبتة.

---

(١) رواه مسلم (٩١)

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٣٩٠)

(٣) رواه مسلم (٤٨٦).

وله من الأسماء والأوصاف ما لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، لذلك يوم القيامة يثني عليه نبيه محمد ﷺ بمحامد، ما علّمها لأحد قبله.

ولو شهد العبد بقلبه صفة واحدة لله من أوصاف كماله، لاستدعت منه المحبة التامة، فكيف إذا شهد بقية الصفات، والأسماء، والأفعال؟ وما نعلمه نحن عن الله، وأسمائه، وصفاته، ليس إلا كنقرة عصفور في بحر!. ولا نعرف الله تعالى معرفة مشاهدة بالعين، بل ما عرفناه إلا بأسمائه، وصفاته، وما وصل إلى العبد من العلم بالله عن طريق الوحي، وما رأوه في الواقع هو آثار أسماء الله، وصفاته، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم، فكيف لو شاهدوا ذات الرب، ووجهه؟!، فلو شهدوه، ورأوا جلاله، وجماله، وكماله سبحانه؛ لكان لهم في حبه شأن آخر، ولذلك، إذا رأوه في الجنة، أشغلهم عن كل نعيم.

ولذلك تتفاوت منازل المحبين ومراتبهم في محبته، على حسب تفوت مراتبهم في معرفته، والعلم به، فأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له، ولذلك كانت رسله أعظم الناس حبّاً له، والخليلان من بينهم أعظم الناس محبة.

ثم يأتي بعد ذلك العلماء، فهم أكثر الناس محبة لله؛ لأنهم يعرفون من الأسماء، والصفات، ومعانيها، وآثارها، ما لا يعرفه عامة الناس.

- **انكسار العبد بين يدي الرب، والافتقار إليه:**

فالخضوع، والتذلل، والإخبات، والاستسلام، والانطراح بين يديه، كلها من أسباب المحبة، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور، وما أدنى النصر، والرحمة، والرزق، من هذا العبد الذي أذل نفسه لربه، وأحب القلوب إلى الله قلبٌ تمكن منه الانكسار، وملكته الذلة، والله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل بين يديه؛ لأن هذه حقيقة العبودية.

والذل أنواع، وأكملها ذل المحب لحبيبه، وهناك ذل المالك لمملوكه، وذل الجاني عند المحسن إليه، وذل العاجز عند القادر على إطعامه وإيوائه، فإذا كان الذل لله عَزَّوَجَلَّ قائماً؛ كانت المحبة كبيرة، والعبد -ولا شك- يذل بين يدي الله، كل هذه الأنواع.

- **الخلوة بالله تعالى في وقت النزول الإلهي:**

لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف معه بأدب العبودية، استغفاراً، وتوبة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

وهناك أسبابٌ أُخَر توصل الإنسان إلى محبة الله سبحانه وتعالى، وعلى المُحبّ أن يبحث عنها؛ ليَصِل إلى كمال المحبة، وتمامها.

* * *

ثمرات المحبة

إن معرفة ثمرة الشيء، معينةٌ على محاولة الوصول إليها، والحصول عليها، فمن ثمرات المحبة:

- **دخول الجنة، والابتعاد عن النار:**

ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي محبه من عذابه؛ لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً.

- **حصوله على محبة الله سبحانه:**

عن أبي إدريس الخَوْلَانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قال: دخلت مسجد دمشق الشَّامِ، فإذا أنا بفتى براق الثنايا، وإذا الناس حوله، إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه، فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل. فلما كان الغد هجرت، فوجدته قد سبقني بالهجير، ووجدته يصلي، فانتظرته حتى إذا قضى صلاته، جئته من قبل وجهه، فسلمت عليه، فقلت له: والله إني لأحبك لله عَزَّوَجَلَّ. فقال: الله؟ فقلت: الله. فقال: الله؟ فقلت: الله فأخذ بِحَبْوَةِ رِدائي، فجذبني إليه، وقال: أَبْشِرْ؛ فإني سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٢٠٨٣)، والحاكم (٧٣١٤)، وصححه محققو المسند.

فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قال: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا[1]؟ قال: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ. قال: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ، كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[2]. وكلما زادت المحبة بين المؤمنين، كان هذا أقرب إلى الله، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَحَابَّ رَجُلَانِ فِي اللهِ تَعَالَى، إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبّاً لِصَاحِبِهِ»[3].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث رجلا على سَرِيَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[4].

وعن أبي الطفيل قال: سمعت عليّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسألوه عن ذي القرنين: أنبياً كان؟ قال: «كان عبداً صالحاً، أحب الله؛ فأحبه»[5].

- **حصوله على ثناء الناس في الحياة الدنيا:**

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مُرَّ بجنازة على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أَثْنُوا عَلَيْهَا». فقالوا: كان -ما علمنا- يحب الله ورسوله. وأثنوا عليه خيراً[6].

- **الحفظ من اللعن:**

عن عمر بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُضْحِكُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جَلَدَهُ في الشرابِ، فأُتِيَ بِهِ يوماً، فأمر بِهِ فَجُلِدَ، فقال رجل من القومِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، ما أكثر ما يُؤْتَى بِهِ! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أي: تحفظها، وتراعيها.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٣) رواه الحاكم (٧٣٢٣)، وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥٠).

(٤) رواه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣).

(٥) تفسير الطبري (٨/ ٢٧٠).

(٦) رواه أحمد (١٣٠٦٢)، وصححه محققو المسند على شرط الشيخين.

«لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَ اللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[١].

وقد استدل بهذا الحديث بعض العلماء على أن من لا يحب الله ورسوله: يُلْعَن[٢].

* * *

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) نظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٢).

الخاتمة

وفي نهاية رحلة المحبين، ينتهي بنا المطاف في هذا المقام، فنسأل الله أن يرزقنا محبته، وأن يجعل حبه أحب إلينا من الماء البارد على الظمأ، وأن يجعلنا ممن يقوم ويعمل بما يحب سبحانه وتعالى.

فيا من لوجهه عنت الوجوه: بيِّض وجوهنا بالنظر إليك، واملأ قلوبنا من المحبة لك، وأجرنا من التوبيخ غداً عندك.

اللهم كما علمتنا كتابك فوفقنا للعمل به، حتى يكون شاهداً لنا عندك، وقائداً إلى جنتك، ومؤنساً لنا في وحشة القبور، ومركباً لنا يوم يقوم الأشهاد.

اللهم اجعلنا بالقرآن عاملين، ولأوامره متّبعين، ولنواهيه مجتنبين.

اللهم بدل سيئاتنا حسنات، ولا ترنا أعمالنا حسرات، وأقبل بقلوبنا إليك، ولا تخزنا يوم الوقوف بين يديك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وآله، وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما المقصود بالمحبة - اصطلاحاً؟

٢. ما حكم محبة الله سبحانه؟

٣. للمحبة أقسام عدة. فما هي؟

٤. محبة العبد لربه شرف كبير، فما هي علاماته؟

٥. ما الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالى؟

٦. للمحبة ثمرات وفوائد. فما هي أبرزها؟

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. دل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة ٢٤]، على أن محبة الله فرض، فما وجه دلالتها على ذلك؟

٢. ما هو ضابط المحبة الخاصة بالله تعالى؟

٣. ما هو ضابط المحبة الطبيعية؟

٤. هل يُفهم من قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» مشروعية تمني الموت؟ وما المعنى الصحيح للحديث؟

٥. يشقّ على بعض الناس القيام ببعض العبادات، فهل ذلك يعني أنه لا يحب الله؟

٦. العصيان لا ينافي أصل المحبة، اذكر دليلاً على ذلك.

٧. ما الحل الشرعي لمن يقصّر في الفرائض، ويواظب على النوافل؟

٨. ما علامات إيثار محابّ الله على محابّك؟

٩. لأهل العلم مؤلفات عن المحبة، اذكر ما تيسر منها.





الورع

مُقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلام علَى أشْرفِ الأنبياء والمرسلين، نبيِّنَا محمَّدٍ وعلَى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الورع عملٌ عظيمٌ مِن أعمال القُلوب، وعَمُودٌ مِن أعمدة الدِّين، فهو الَّذِي يُطهِّر القلب مِن الأدْرَان، ويُصَفِّي النَّفْس مِن الزبد، وهو ثمرة شجرة الإيمان.

وسنتطرَّق في هَذَا الفصلِ لِبَيان معنى الورَع، وحقيقَته، وبعضٍ مِن ثمَراتِه وفوائده، وكيف نكْتَسِبُه ونتحَلّى به.

نسألُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُيَسِّر لنا الخير والصلاح، وأن يسهِّل علينا طريق العلم والعمل، إنَّه سميع مجيب.

***

أهمية الموضوع

الورع: طريق القلب إلى نقائه من كل شبهة، وسبيله إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وهو من أجود وأحسن ثمر شجرة الإيمان.

قال طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَل الإيمان كشجرة؛ فأصلُها الشَّهادة، وساقها وورقها كذا، وثمرها الورَع، ولا خير في شجرةٍ لا ثمرَ لها، ولا خير في إنسانٍ لَا ورَعَ له»[١].

وقال القاسم بن عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع عِماد الدِّين»[٢].

والورع أصل الطَّاعة؛ قال الحرث بن أسد المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الطاعة الورع»[٣].

وقال قاسم الجوعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الدِّين الورَع»[٤].

والورَعُ دليلُ صَلاحِ العَبْد، قال ابنُ عُمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لا تنظروا إِلَى صلاةِ أحدٍ ولا صيامه، وانظروا إِلَى صِدْق حديثِه إِذَا حدَّث، وإِلَى أمانتِه إذا ائتُمِن، وإِلَى ورَعِه إِذَا أشفَى»[٥].

وقد كان السَّلَف يتعلَّمون الورَعَ تعلُّمًا، قال الضَّحَّاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد رأيْتُنا وما يتعلَّم بعضنا مِن بعضٍ إلَّا الورع»[٦].

وقال أيضاً: «أدْرَكْتُ النَّاس وهُم يتعلَّمون الورَع، وهُم اليوم يتعلَّمون الكلام»[٧].

---

(١) السنة، لعبد الله بن أحمد (٦٣٥).

(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤/ ٢٣٦).

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٧٦).

(٤) تاريخ دمشق (٤٩/ ١٢٣).

(٥) شعب الإيمان (٥٢٧٨).

(٦) الورع، لابن أبي الدنيا (٢٧).

(٧) الورع، لابن أبي الدنيا (٢٦).

تعريف الورع

الورع لغةً:

الورع في اللغة: التَّحَرُّج. يقال: تَوَرَّعَ عَنْ كَذَا: أي تحرَّج. والوَرِعُ: الرَّجُلُ التَّقِيُّ المُتَحَرِّجُ، وَهُوَ وَرِعٌ بَيِّنُ الوَرَعِ، وَقَدْ وَرِعَ مِنْ ذَلِكَ، يَرِعُ، ويَوْرَعُ، رِعةً، وورعاً.

ويقال: فلان سَيِّءُ الرِّعَةِ، أي: قَلِيلُ الوَرَعِ[1].

الورع اصطلاحاً:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الورع:

فقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع: اجتناب المحارم»[2].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع: تَرْكُ كُل شُبهة، وتَرْكُ ما لا يَعْنِيكَ، وهو تَرْكُ الفَضلات»[3].

وعرَّفَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الورع بقوله: «الورع: تَرْكُ ما يُخشَى ضَرَرُه في الآخِرَة»[4].

وقال أبو بكر محمد بن علي الكِتَّاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع هو: مُلَازمة الأدب، وصِيَانة النَّفس»[5].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع: اجْتِنَاب الشُّبهات؛ خوفاً مِن الوقُوع في المُحَرَّمات»[6].

---

(١) لسان العرب (٨/ ٣٨٨).

(٢) حلية الأولياء (٨/ ٩١).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢١).

(٤) الفوائد (ص١١٨).

(٥) تاريخ دمشق (٥٤/ ٢٥٧).

(٦) التعريفات (ص٣٢٥).

وقال بعضهم: «الوَرَع كلُّه في تَرْكِ ما يُرِيب، إلَى ما لَا يُرِيب»[١].

وقالَ آخَر: «وحقيقته: تَوَقِّي كُلِّ ما يُحْذَر منه، وغايَتُه: تَدْقِيق النَّظَر في طهَارة الإخْلَاص مِن شَائِبَة الشِّرك الخَفِي»[٢].

وقال الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع: تَرْك ما لَا بأس به؛ حذَراً مِن الوقوع فيما به بأس»[٣].

وللجَمْع بَيْنَ أقْوال العُلَماءِ نَقُول: إنَّ مَرَاتِبَ الوَرع أرْبَع:

الأولى: ورع العدول؛ وهو أنْ يَتْرُك المُحَرَّمات.

الثانية: ورع الصالحين؛ وهو الامْتِنَاع عمَّا يتطرَّق إليه احتمال التَّحْرِيم.

الثالثة: ورع المتقين؛ وهو أنْ يَتْرُك ما لَا بأسَ به؛ مخَافَةَ أنْ يقَعَ فيما فيه بأس.

الرابعة: ورع الصدِّيقين؛ وهو تَرْك ما لا بأس به أصلاً، ولكن يخَاف أنْ يَكُون لغَيْرِ الله، أو أنْ يسهل له فعل المكروه.

فكلُّ واحدٍ مِن هؤلاء العُلَماء عَرَّفَ الورَعَ بإحْدَى مرَاتِبه.

* * *

(١) فيض القدير، للمناوي (٣/ ٧٠٦)

(٢) فيض القدير (٣/ ٧٧٢).

(٣) مناهل العرفان (٢/ ٥٧)

وجوب الورع وفضله

لقد أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَـذَا الكتـابَ العزيزَ لِحِكَـمٍ عديدَة، منهـا: أنْ يَتَّصِـفَ النَّاس بالـورع؛ ليَفُوزُوا بخيري الدُّنيا والآخِرَة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿ذِكْرًا﴾ قال: «ورعًا»(١).

كما أنَّه سـبحانَهُ يَضْربُ الأمْثَالَ لأهل الورَع؛ ليَثْبُتُوا على هَذِه الحال الحسَـنَة، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُولُوا النُّهَى، هم: أهل الورَع»(٢).

وإنْـزَال الله الكِتَـاب، وضَرْب الأمثـال لأجْل أنْ يتـوَرَّع النَّاس، دليلٌ عـلَى وجُوب هَذَا العمَل القَلْبِيِّ العظِيم؛ ألا وهو الورَع.

والورَعُ الوَاجِب: هو أدْنَى مرَاتب الورَع، وهو: تَرْك المُحَرَّمات.

أمَّا المرَاتب الأُخْرَى: فمَنْدُوبٌ إليها.

فضل الورع:

بيَّنَ رسولُنَا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضْل الوَرَع، وشرف منزلته:

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢١٩).

(٢) المرجع السابق (١٦/ ٢٣١)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ»[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ»[2]. ومثله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[3].

وقد تنبَّه لفضل هذا الورع سلفُنا الصالح، فجاءت أقوالهم وأفعالهم تحثُّ عليه:

فعن عُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: «إِنَّ الدِّين لَيْسَ بِالطَّنْطَنَةِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، ولكن الدِّين الورَع»[4].

وعن الحسن رحمه الله قال: «أفْضَل العِبَادة: التَّفكُّر، والورَع»[5].

وقال أيضاً: «الحكمة: الورَع»[6].

وقال سعيد بن المُسَيَّب رحمه الله: «العِبَادة: الورَع عمَّ حرَّم الله، والتَّفكُّر في أمْرِ الله»[7].

وقال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله: «خير دينكم الورع»[8].

وكان عبد الله بن مطرف رحمه الله يقول: «إِنَّكَ لَتَلْقَى الرَّجُلَيْنِ، أحدهما: أكثر صوماً وصلاةً وصدقةً، والآخر: أفْضَل مِنْهُ بَوْناً بعيداً. قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: «هو أَشَدُّهُمَا ورَعاً لله عن محارمه»[9]

وقال يحيى بن أبي كثير رحمه الله: «أفْضَل العمَل الورَع»[10].

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٢١٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة

(٢) رواه الحاكم (٣١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٠٨)

(٣) رواه الحاكم (٣١٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٩٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢١٤).

(٤) الزهد، للإمام أحمد (١٢٥).

(٥) الورع، لابن أبي الدنيا (٣٧)

(٦) تفسير البغوي (١/ ٣٣٤)، تفسير القرطبي (٣/ ٣٣٠)

(٧) تفسير القرطبي (٤/ ٣١٤).

(٨) تفسير الطبري (٢٨/ ١٩)

(٩) تفسير الطبري (٢٨/ ١٩)، مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٤٩١)

(١٠) شعب الإيمان (٨١٤٩)

فضل اجتماع الفقه مع الورع

إنَّ ورَعَ الفُقهَاء ليس كورَعِ عامَّة النَّاس؛ لأنَّ ورَعَهُم يُثمِرُ مِن الفوائد معهم ما لا يُثمِرُ مع غيرهم.

قال بعضهم:

وَإِنَّ فَقِيهاً وَاحِداً مُتَوَرِّعاً أَشَدُّ عَلَى الشَّيطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدِ[1]

ولِذَلك، فإنَّ العلماء جعَلُوا التَّورع شرطاً في القاضِي الَّذِي يقضِي بيْنَ النَّاس؛ لأنَّ القضَاء مِن أعْلَى الوظَائف والمَرَاتب الدُّنيويَّة، وهو محلُّ الفَصْل بَيْنَ المُتنَازِعين في مسَائل الأمْوَال، والفُرُوج ونحوها؛ فاشتَرَطُوا لهَذِه المَرْتَبة العلِيَّة أن يكون صاحبها ورِعاً[2].

* * *

(١) شرح على التعريب، للحبيشي (ص١٩٩).

(٢) قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (١٥/ ١٨٠): «قال عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز: لا يَسْتَقْضِي حتَّى يكُونَ عَالِماً بِآثَارِ مَنْ مَضَى، مُسْتَشِيراً لِذَوِي الرَّأي، حَصِيناً نزِهاً. قَالَ: وَيَكُونُ وَرِعاً».

حقيقة الورع

ترك الشبهات من الورع:

عن النُّعمان بن بَشير رَضِيَلِلَّهُعَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١].

وعن وابِصَة بن معبد رَضِيَلِلَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»[٢].

وقال حسَّان بن أبي سنان رَحِمَهُٱللَّهُ: «هل الورَعُ إلَّا إذا رَابَكَ شيءٌ تركْتَه؟!»[٣].

التَّورع عن بعض المباحات:

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «أمَّا الورَع: فإنَّه الإمساك عمَّا قد يضرّ، فتدخُل فيه المحرَّمات والشُّبهات؛ لأنَّها قد تَضُر، فإنَّه مَن اتَّقى الشُّبهات فقد استبرَأ لعِرْضِه ودِينِه، ومَن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام؛ كالرَّاعي يرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِك أنْ يُوَاقِعَه.

وأمَّا الورَع عمَّا لا مضَرَّة فيه، أو فيه مضَرَّة مرجُوحَة، لِمَا تقترن به مِن جَلْب مَنْفعَة راجحة، أو دَفع مضرَّة أخرى راجحة؛ فجهلٌ وظلمٌ، وذلك يتضمَّن ثلاثة أقسام لا يُتورَّع

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه أحمد (١٨٠٠١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤).

(٣) الورع، لابن أبي الدنيا (٤٦).

عنها: المنافع المكافئة، والرَّاجحة، والخالصة، كالمباح المَحْض، أو المستحب، أو الواجب، فإنَّ الورَعَ عنها ضلالة»[1].

وليس المقصود أنَّ كُلَّ عمَلٍ حلَال لا يدخله الورَع، وإنَّما المُباحات الَّتي ليس من ورائها أي مَفْسَدة، ولا تجُرّ إِلَى أيِّ ضلَالة؛ فإنَّ التَّورُّع عنها ليس بتورُّع.

فالمُسْلِم عليه أنْ ينتبه مِن الاقتِرَاب مِن حدود الله؛ لأنَّ الاقْتِرَاب منها يوشك أن يوقعه فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة ١٨٧]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة ٢٢٩].

والحدود يُرَاد بها: أوَاخر الحلَال، حيث نُهي عن القُربان.

والحُدُود مِن جِهَةٍ أُخْرَى: قد يُراد بها أوائل الحَرام

فيَكُون المَعْنى: لَا تتعدوا مَا أباح اللهُ لكُم، ولا تَقْرَبُوا ما حرَّم الله عليكم، فالورَعُ يخلِّص العبد مِن قربان هَذِه وتعدِّي هَذِه، فمُجَاوزَة الحَدِّ في الحلَال يُمْكِن أنْ يُوقِعَه في الكبَائر العظيمة، والحَرام الشَّديد.

وقد ورَدَ عن السَّلَف أنَّهم كانُوا يَتْرُكُون بَعْض المُباحَات؛ خوفاً مِن وصُولِهم إِلَى المُحرَّمات.

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنِّي لأحِبُّ أنْ أدَعَ بَيْنِي وبَيْنَ الحرَام سُتْرَةً مِن الحلَال، ولَا أُحرِّمها»[2].

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يصيب العَبْد حقيقة الإيمان حتَّى يجعل بينه وبين الحَرام حاجزاً مِن الحلَال، وحتَّى يدَع الإثم وما تشَابه منه»[3].

وقال ميمون بن مِهْرَان رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يسلم للرَّجُل الحلَال حتَّى يجعل بَيْنَه وبَيْن الحَرام حاجزاً مِن الحلَال»[4].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١٥-٦١٦)

(٢) الورع، للإمام أحمد (ص٥٩)

(٣) المرجع السابق (ص٥٩)

(٤) حلية الأولياء (٤/ ٨٤).

وقال بعض السَّلف: «لا يَبْلغ العبد حقيقةَ التَّقوى حتَّى يدع ما لا بأس به؛ حذرًا مِمَّا به بأس»[١].

وقال بعضهم: «كُنَّا ندَع سبعين بابًا مِن الحلَال؛ مَخافَة أنْ نقعَ في الحَرام»[٢].

كما أنَّ بعض المُباحات لا يَجوز تَرْكُها؛ لأنَّه مِن باب الإعْرَاض عن سُنة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كتَرْك الزَّواج مُطْلقًا، وترك النَّوم، وترك الطَّعام؛ لأنَّ مِن سُنة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّواج، والنَّوم، وأكل الطَّعام.

وأيضًا: فإنَّ بعض المُباحات قد تنْقَلب بالنِّية الصَّالحة إلى عبادات، كمن يأكُل الطَّعام ويَنْوي بذلك التَّقَوِّي علَى العبادة، أو يُلَاعب زَوْجَته وأوْلَاده ويَنْوي بذَلِك إشْبَاع رغباتهم وحاجاتهم النَّفسية؛ فإنَّ هَذِه الأعْمَال تَخرج مِن باب المُباحات، وتدخل في باب الطَّاعات، وتركها تورُّعًا ليس مِن التَّورُّع في شيء.

الورع شامل:

يَنْقسِم النَّاس في الورَع إلَى أربعة أقْسَام.

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللهُ: «النَّاس أربعةٌ في الوَرع، فمِنْهُم: ورعٌ عن القَلِيل والكَثِير، ومِنهم: ورعٌ عن القَليل، فإذَا أشْرَف علَى الكَثِير لم يتورَّع عنه، ومنهم: ورعٌ عن الكَثِير، ويُدَنِّس ورَعَه بالقَليل، ومنهم: مَن لَا يتورَّع عن قَليل، ولَا كثير»[٣].

فالصِّنف الأوَّل: هم الَّذين يتورَّعون عن الصَّغائر والكبَائر.

والصِّنف الثَّاني: كالرَّجُل البَسِيط، يتورَّع عن أكْل أمْوَال النَّاس لقلَّتها، فإذَا صار ذا سلطة تَرَاه يأكل الأموال الطَّائلة بالباطل.

والصِّنف الثَّالث: يقَع فيه أكثر النَّاس، فتَراه لا يَزْني، ولا يَأكُل الرِّبا، ولا يَقع في الكَبائر؛ ولكِنَّه لا يتورَّع عن بَعْض الصَّغائر، كالنَّظَر إلى النِّساء، أو سَماع الأغَاني، ونحو ذلك.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٢).

(٣) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (٦/ ١٩٩).

والصِّنف الرَّابع: هم الَّذِين يقعون فِي الصَّغائر والكَبائر، لا يتورَّعون عن شيءٍ مِنْه.

وحقِيقَة الورع: أنْ يَكُون شاملاً لكل شيء، فالرَّجُل الوَرِعُ هو الَّذِي يعمل بجميع الواجبات، وينتهي عن جميع المَناهي والمُحرَّمات، ويبتعد عن جميع الأمور المشتبهات.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أنَّ رَجُلاً اتَّقى مئة شيء، ولم يتورَّع عن شيءٍ واحدٍ؛ لم يَكُن ورِعاً»[1].

كما أنَّ مِن شُمول الورَع: أنْ يكون الرَّجُل ورعاً بقلبه، ولسانه، وجوارحه، فلا يكفي أن يكون ورعاً بقلبه فقط، أو بجوارحه فقط، أو بلسانه فقط، فعلى المسلم أنْ يتورَّع عن فعل كل ما يؤدي إلَى منهيٍّ عنه، سواء في النَّظَر، أو في السَّمع، أو في الشَّم، أو في اللِّسان، أو في البَطْن، أو في الفَرْج، أو في اليَد، أو في الرِّجْل...، وهكذا.

وأشَدُّ شيءٍ علَى المسلم: أن يكون ورعاً بلِسانه، قال الحسن بن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتَّشنا الورَع فلَم نَجِدْه في شيءٍ أقَلّ مِنْه في اللِّسان»[2].

وقال الفُضَيل بن عِيَاض رَحِمَهُ اللَّهُ: «أشد الوَرع في اللِّسان»[3].

وقال الجُنَيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورَع في الكلَام أشد مِنْه في الاكْتِساب»[4]. والاكتساب هو عمَلُ الجوَارح.

وقال إسحاق بن خلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع في المَنطِق أشد مِنْه في الذَّهَب والفِضَّة»[5].

الورع في السر والعلن:

خرج ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بعض نَوَاحِي المَدِينة، ومعه أصحابٌ له، ووضَعُوا سفرةً لهم، فمَرَّ بهم راعِي غنَم، فسَلَّم، فقال ابن عمر: «هَلُمَّ يا راعي، هلُمَّ، فأَصِبْ مِن هَذِه السفرة»

(١) حلية الأولياء (٨/ ١٦٧).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٣٢٩).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٩١).

(٤) المرجع السابق (١٣/ ٢٦٨).

(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٢٠٥).

فقال له: إِنِّي صائم. فقال ابن عمر: «أتصوم فِي مثل هَذَا اليوم الحارِّ الشَّـديد سَمُومه، وأنت فِي هَـذِه الجبـال ترْعَى هَـذِه الغَنم؟» فقال لـه: إِنِّي -والله- أُبادر أيَّامي الخالية. فقال له ابن عمر -وهو يريد أن يختبر ورعَه-: «فهل لك أنْ تَبِيعَنا شاةً مِن غَنمِك هَذِه، فَنُعْطِيك ثَمَنه، ونعطيك مِن لَحْمِها، فَتُفْطِر عليه؟» فقال: إنَّها ليسـت لِي بغَنم، إنَّها غنَم سَيِّدِي. فقال له ابن عمر: «فما عسَـى سيدك فاعـلاً إذا فقَدَها، فقلـت: أكلهَا الذِّئب؟» فـوَلَّى الرَّاعي عنه، وهو رافِع إصبعه إلى السَّـماء، وهو يقول: فأينَ الله؟ قال: فجَعل ابـنُ عُمَر يُرَدِّد قَـوْل الرَّاعي، وهـو يقول: «قـال الرَّاعي: فأين الله؟» فلمَّا قَـدِمَ المدينةَ بعَثَ إِلَى مَوْلَاه، فاشْـتَرَى منه الغنَم والرَّاعي، فأعْتَق الرَّاعي، ووهبه الغنَم[1].

اختلاف الورع بحسب حال الشخص:

يَخْتَلِف الورَع مِن شَخصٍ إِلَى آخر؛ حسب عِلْم الشَّخص، ومَكَانته، وعُمُرِه، وغير ذلك.

فمِن ورَع صَغِير السِّـن: ألَّا يتكَلَّم فِي أمور المُسْـلمين الكَبِيرة والعامَّة، ومِن ورع كبير السِّن، صاحب الخِبْرة والعَقْل الرَّاجح: أنْ يتكَلَّم فيها، ويُعْطِي رَأْيه لأَوْلِيَاء الأمْر، وكذَلِك يختلف الورَع بالنِّسْبة للجَاهل، والعَالِم.

يقـول هبـة الله المقـري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُقَال: مِـن ورَع العـالِم أنْ يتكَلَّم، ومِـن ورَع الجَاهِل أنْ يَسْكُت»[2].

وسُـئِل ابـن عُيَيْنة رَحِمَهُ اللَّهُ عن الورع، فقال: «الورَع: طَلَب العِلْـم الَّذِي يُعْرَف به الورَع، وهو عِنْد قَوْمٍ طُول الصَّـمت، وقِلَّةُ الكَلَام، وما هو كذَلِك، إنَّ المُتَكَلِّم لعَالم أفْضَل عندي وأوْرَع مِن الجَاهل الصَّامت»[3].

* * *

(١) شعب الإيمان (٥٢٩١).

(٢) الناسخ والمنسوخ (ص٣٨).

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٢٩٩).

العلم والورع

هناك مسألةٌ مهمةٌ جدًا في هَذَا العمل القلبي العظيم، ألا وهي اقتِرَان العلم بالورَع؛ لأنَّه لا يُمْكِن التورُّع بدُونِ عِلْم.

قال أبو السعود العمادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ التَّوَرُّع عن محارمه -سبحانه- موقوفٌ علَى معرفة الحلَالِ والحَرَام، المَنُوط بالكِتَاب والسُّنة»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تمام الورع: أنْ يَعْلَم الإنسان خير الخَيْرَيْن، وشر الشَّرَّين، ويعلم أنَّ الشَّريعة مبناها علَى تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلَّا: فمَنْ لم يُوَازن ما في الفعل والتَّرْك مِن المصلحة الشَّرعية والمفسدة الشَّرعية؛ فقد يَدَع واجبات، ويَفْعَل محرَّمات، ويرَى ذلك مِن الورَع، كمن يدَع الجهاد مع الأمَراء الظَّلَمة، ويرَى ذلك ورعًا»[2].

فيأتي -مثلًا- جيشٌ مِن المسلمين، يجاهر أميرُه ببعض المعاصي، وهُم في حالَةِ جهاد مع الكفَرَة، فيَجِيء أحدهم ويقول: أنا أتورَّعُ أنْ أجاهِدَ مع هَذَا الفَاسِق.

ماذَا سيحصل جرَّاء هَذَا الورَع الكاذب لو فعله عموم الجند؟ سيَجْتَاح العَدُوُّ البلَد؛ وتقع الهزيمة بالمسلمين!.

ومِن صور الورع المَبْنِي علَى غير علم: أنَّ أحدَهُم مات أبوه، وعنده أموالٌ مَشْبُوهَة، وعليه ديون، فلمَّا جاء النَّاس يُطَالِبُونَ بحقُوقِهم، قال الابن: أنا أتورَّع أنْ أقضِيَ ديون أبي مِن الشبهة!.

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/ ١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١٢).

فهذا الورع فسد، وصاحبه جاهل؛ لأنه يترك أداء حقوق النَّاس، ويدع ذمة أبيه مرتهنة؛ بزعم أنَّ في مال أبيه شُبهة!.

فالجهل يجعل بعض النَّاس يَتركُون واجبَات؛ بزَعْم الورَع.

ثـم قال ابن تيميـة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويَـدَع الجُمُعَة والجماعَة خَلْـفَ الأئمَّة الَّذِيـن فيهم بدعة أو فُجُـور، ويرَى ذلك مِن الورَع، ويمتَنِع عن قَبُول شَـهادة الصَّـادق، وأخذ علم العالِم؛ لِمَا في صاحبه مِن بدعةٍ خفيَّة، ويرَى تَرْك قَبُول سَماع هَذَا الحق الَّذِي يَجِب سماعُهُ مِن الورع»[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١٢).

صور من ورع الصالحين

لقد كان كثيرٌ مِن سلفنا الصَّالح يتحلَّى بصِفَةِ الورَع، ومع ذلك: يَنْفُونها عن أنفُسِهم؛ لعِلْمِهم بأنها صفة لا تتحقَّق إلَّا بعد تعَبٍ شَدِيد، وعمل كبير.

يقول الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا معشر العلماء، يا معشر الفُقَهاء، لَسْنَا بفقهاء، ولا علماء، ولكنَّا قوم قد سَمِعْنا حديثًا، فنحن نُحَدِّثكُم بما سَمِعْنا، إنَّما الفَقِيه مَن ورع عن محارم الله، والعَالِم مَن خاف الله»[1].

وإليكم هَذِه الصُّوَر مِن صُوَر ورَع الصَّالحين.

من ورع الأمم السابقة:

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ. فَقَالَ الَّذِي شَرَى**[2] **الأَرْضَ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا.** -فكل منهم تورع عن أخذ الذهب- **قَالَ: فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ. وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: أَنْكِحُوا الغُلَامَ الجَارِيَةَ، وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمَا مِنْهُ، وَتَصَدَّقَا**»[3].

---

(١) حلية الأولياء (٤/ ٣١١).

(٢) أي: باع.

(٣) رواه البخاري (٣٢٨٥)، ومسلم (١٧٢١)، واللفظ لمسلم.

من ورع النبي ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرةً من تمر الصَّدقة، فجعلها في فيه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «كَخْ، كَخْ»؛ ليطرحه، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»[1].

فمَنَع حفيدَه من أخذ التَّمر الَّذي لا يجوز له أكلُه؛ مع أنَّه صَبيٌّ صغيرٌ غير مكلَّف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: «إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً، فَأُلْقِيهَا»[2].

من ورع الصحابة

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النَّبي ﷺ بالقاحة[3]، ومنَّا المُحْرِم، ومنَّا غير المُحْرِم، فرأيتُ أصحابي يتراءون شيئاً، فنظرتُ، فإذا حمار وحش، فوقع سَوْطِي، فقالوا: لا نعينك عليه بشيءٍ؛ إنَّا مُحْرِمُون. فتناولته، فأخذته، ثم أتيتُ الحِمَار من وراء أكمة، فعقرته، فأتيت به أصحابي، فقال بعضهم: كلُوا. وقال بعضهم: لا تأكلوا. فأتيت النَّبيَّ ﷺ -وهو أمامنا- فسألته، فقال: «كُلُوهُ، حَلَالٌ»[4].

أي: وقع سوط أبي قتادة على الأرض، فلم يرفع السَّوْطَ أحدٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّهم خافُوا أنْ يَكُونَ ذلِكَ مِنَ المُعاوَنة على صيد البر، وهم مُحْرِمُون، وهو غير مُحْرِم. ثُمَّ تورَّعُوا أيضاً عن مشاركته في الطَّعم؛ لأنَّه ما تنبَّه للصَّيد إلَّا عندما رآهم يَنظُرون إليه.

من ورع الصديق رضي الله عنه:

إنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بلغ ورَعه مبلغاً عظيماً، وهو أفضل الوَرِعين بعد النَّبي ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (١٤٢٠)، ومسلم (١٠٦٩)، واللفظ للبخاري

(٢) رواه البخاري (٢٣٠٠)، ومسلم (١٠٧٠)

(٣) اسم موضع بين مكة والمدينة.

(٤) رواه البخاري (١٧٢٧).

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان لأبي بكر غُلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل مِن خراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تَدْرِي ما هَذَا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تكَهَّنتُ لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحسِنُ الكهانة، إلَّا أنِّي خدَعْتُه، فلَقِيَني، فأعطاني بذلك، فهذا الَّذِي أكلتُ منه. فأدخل أبو بكر يَدَه؛ فقَاءَ كُلَّ شيءٍ في بطنه»[1].

من ورع الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد فرض للمهاجرين الأوَّلين أربعة آلاف في أربعة، وفرض لابن عُمَر ثلاثة آلاف وخمس مئة، فقيل له: هو مِن المُهاجِرين فلم نقصته مِن أربعة آلاف؟ قال: «إنَّما هاجر به أبواه. يقول: ليس هو كمَنْ هاجرَ بنفسه»[2].

لأنَّ ابن عمر هاجر به أبواه وهو صغير، فلم يعده كمن هاجر بنفسه؛ مِن تورُّعِه.

وقال ثعلبة بن أبي مالك: «إنَّ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قسم مروطاً بين نساءٍ مِن نِساءِ المَدِينة، فبَقِي مِرطٌ جيِّد، فقال له بعض مَن عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هَذَا ابنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عندك -يريدون أم كلثوم بنت علي-، فقال عمر: أُمُّ سليط أحق. وأُمُّ سليط مِن نساء الأنصار مِمَّن بايَعَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عمر: فإنها كانت تزفر لنا القِرَب يوم أُحُد»[3].

فتورع عن إعطاء زوجته، مع أنها حفيدة النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها تحته.

ورع زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حمَاهَا اللهُ بالورَع في قصَّة الإفك، حِينَمَا وقع المُنافِقُون في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتناقَل النَّاس كلام المنافقين، فمَع أنَّها مِن ضرائر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت تُنافِسُها وتُسامِيهَا عند النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن لَمَّا جاء الكلام في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تورَّعَت.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣٩١٢).

(٣) رواه البخاري (٢٨٨١). وتزفر، يعني: تخيط.

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ؟ مَا رَأَيْتِ؟». فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما عَلِمْتُ عليها إلَّا خيراً. قالت: وهي الَّتِي كانت تُسَامِينِي، فعصَمَها الله بالوَرَع»[1].

من ورع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

عن نافع قال: «سَمِع ابن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مزماراً، قال: فوضع إصْبَعَيْه على أُذُنَيْه، ونَأَى عن الطَّرِيق، وقال لي: يا نافع، هل تَسْمَع شيئاً؟ قال: فقلت: لا. قال: فرفع إصبعيه مِن أذنيه»[2].

من ورع التابعين:

عن عبد الرَّحمن بن عثمان قال: «كُنَّا مع طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ونحن حُرُم، فأُهْدِيَ له طير -وطلحة راقد- فمِنَّا مَن أكل، ومِنَّا مَن تورَّع، فلمَّا استَيْقَظ طلحة وفَّق من أكله، وقال: «أكَلْنَاه مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[3].

ورع عبد الله بن المبارك:

حكَى الحسن بن عرفة عن دقيق ورع عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، أنَّه استعار قلَماً مِن رَجُلٍ بالشَّام، وحمَلَهُ إلَى خُراسَان ناسياً، فلمَّا وجدَهُ معه، رجَعَ إلَى الشَّام، حتَّى أعْطَاه صاحبه[4].

وقصص ورع المتقين كثيرة، وفيما تقدم كفاية.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٢٤)، والإمام أحمد (٤٥٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٣) رواه مسلم (١١٩٧).

(٤) تهذيب التهذيب (٥/ ٣٣٧).

فوائد الورع

الورع سبب للفلاح:

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعملُ وَرِعاً»[١].

قال موسى بن حماد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيتُ سفيان الثَّوري في المَنام في الجنَّة، يَطِيرُ مِن نخْلةٍ إلى نخلة، ومِن شجرةٍ إلى شجرة، فقلت: يا أبا عبد الله، بِمَ نِلْتَ هَذَا؟ قال: بالورَع، بالورع»[٢].

الورع سبب لتخفيف الحساب يوم القيامة:

قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليكَ بالزُّهد يُبَصِّرك الله عورَات الدُّنيا، وعليك بالورَع يُخَفِّفُ الله عنك حسابك»[٣].

الورع سبب لمباركة العمل، وتكثير الحسنات:

قال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُجْزِئ قليلُ الورَع عن كثيرِ العمَل»[٤].

وقال رجلٌ لأبي عبد الرَّحمن العُمَريِّ: عِظْنِي. فأخذ حصاةً مِن الأرض، فقال: «مِثْلُ هَذَا ورعٌ يَدْخُلُ في قَلْبِكَ خيرٌ لك مِن صلاة أهل الأرض»[٥].

---

(١) تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٦)

(٢) المنامات، لابن أبي الدنيا (٢٧٥)

(٣) حلية الأولياء (٧/ ٢٠)، الزهد وصفة الزاهدين، لابن الأعرابي (٦٣)

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٢٤٣)، التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا (٨٧).

(٥) حلية الأولياء (٨/ ٢٨٦)، الورع، لابن أبي الدنيا (٢٣).

الورع سبب لإصلاح النية:

عن بلال بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ورَع المُؤمِن لَا يَدَعه حتَّى ينظر ماذا نوَى، فإذا صلحت النِّيَّة، فبِالحَرِيِّ أن يصلح ما دُونَه»[1].

الورع سبب للإمساك عن الشبهات:

قال أبو عبد الله الأنطاكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن خاف صَبَر، ومَن صبَرَ ورع، ومَن ورعَ أمْسَك عن الشُّبهات»[2].

الورع سبب لاستجابة الدعاء:

قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَكْفِي مِن الدُّعَاء مع الورع اليسيرُ؛ كما يكفي القدر من الملح»[3]

الورع سبب لتحصيل العلم:

قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يتم طلب العلم إلَّا بأربعة أشياء: بالفرغ، والمال، والحفظ، والورع»[4].

الورع سبب لمباركة العلم:

قال القَنُّوجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَابُدَّ للعَالِم مِن الورَع؛ ليكون علمه أنفع، وفوائده أكثر»[5].

الورع سبب لقبول الحق من الغير:

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما خالَفْتُ رَجُلاً في هوَاه إلَّا وجَدْتُه يَغْلِي عليَّ، ذهب أهل

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٣٠)، بتصرف

(٢) حلية الأولياء (٩/ ٢٩٠).

(٣) شعب الإيمان (١١٤٩)

(٤) شعب الإيمان (١٧٣٢)

(٥) أبجد العلوم (١/ ٢٤٨).

العلم والورع»[1].

الورع سبب لإصلاح عيوب النفس:

فإنَّ الإنسان متى ما كان ورِعاً اشتغل بعيوب نفسه عن عيوب العالمين، وسبَّب له ذلك الشُّغل في إصلَاح عيوب نفسه.

قال إبراهيم بن داود بن شداد رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَالمَــرْءُ إِنْ كَــانَ عَاقِلاً وَرِعــاً أَخْـرَسَــهُ عَـنْ عُيُوبِهِمْ وَرَعُـهْ
كَمَا السَّقِيمُ المَرِيضُ يُشْغِلُهُ عَنْ وَجَعِ النَّاس كُلِّهِمْ وَجَعُهْ[2]

الورع سبب لتحسين الأخلاق:

يقول عبد الكريم الجزري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما خَاصَم ورِعٌ قَطُّ»[3].

الورع سبب لسعادة الدنيا والآخرة:

قال الفُضَيْل بن عِيَاض رَحِمَهُ اللَّهُ: «خمسةٌ مِن السَّعادة: اليقين في القلب، والورَع في الدِّين، والزُّهد في الدُّنيا، والحيَاء، والعِلْم»[4].

* * *

(١) حلية الأولياء (٧/ ١٩).
(٢) الورع، لابن أبي الدنيا (٢١٨).
(٣) شعب الإيمان (٨٤٨٩).
(٤) حلية الأولياء (١٠/ ٢١٦).

كيف نصبح من أهل الورع؟

إنَّ الورَع نعمة مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينعم بها مَن يشاء مِن عِبَاده، وهُناك أسبابٌ تُعِين العَبْدَ علَى الوصُول إلَى هَذِه المَرْتبة الجَلِيلَة العليَّة، ومن تلك الأسباب:

- **الابتعاد عن المحرمات:**

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اجْتَنِبْ مَا حُرِّم عليك؛ تَكُن مِن أَوْرَع النَّاس»[5].

- **حسن التعامل بالدينار والدرهم:**

شهد رجل عند عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشَهادَة، فقال له: «لست أعرفك، ولا يضرك أنْ لَا أعرفك، ائْتِ بمن يَعْرفُك». فقال رجلٌ مِن القوم: أنا أعرفه. قال: «بأي شيء تعرفه؟» قال: بالعدَالَةِ والفَضْل. فقال: «فهو جارُكَ الأدنى، الَّذِي تعرفه ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه؟» قال: لا. قال: «فمُعَامِلُكَ بالدِّينَار والدِّرْهَم، اللَّذَين بهما يُسْتَدَلُّ على الورع؟» قال: لا. قال: «فرفيقك في السَّفَر الَّذي يُسْتَدَلُّ به على مكارم الأخلاق؟» قال: لا. قال: «لَسْتَ تعرفه». ثم قال للرجل: «ائت بِمَنْ يعرفك»[6].

وسُئل سفيان الثَّوري رَحِمَهُ اللَّهُ عن الورع، فقال:

إِنِّي وَجَدتُّ فَلاَ تَظُنُّوا غَيْرَهُ ... هَذَا التَّوَرُّعَ عِنْدَ هَذَا الدِّرْهَمِ
فَإِذَا قَدِرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَهُ ... فَاعْلَمْ بِأَنَّ هُنَاكَ تَقْوَى المُسْلِمِ[7]

---

(٥) شعب الإيمان (٢٠١)، وصححه ابن الجوزي

(٦) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠١٨٧)، وصححه الألباني في الإرواء (٨/ ٢٦٠)

(٧) مختصر شعب الإيمان، للقزويني (ص٨٦).

وأنشد بعضهم:

لَا يَغُرَّنْكَ مِنَ الْمَرْءِ قَمِيصٌ رَقَعَهْ | أَوْ إِزَارٌ فَوْقَ كَعْبِ السَّاقِ مِنْهُ رَفَعَهْ
أَوْ جَبِينٌ لَاحَ فِيهِ أَثَرٌ قَدْ قَلَعَهْ | وَلَدَى الدِّرْهَمِ فَانْظُرْ غَيَّهُ أَوْ وَرَعَهْ[١]

- تَذَكُّرُ أن الله يحاسب على كل صغيرة وكبيرة:

قال أبو العباس بن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ: «تولد ورع المُتورِّعين من ذكر الذَّرَّةِ والخَرْدلَة، وأنَّ ربَّنا الَّذِي يحاسب على اللحظة، والهَمْزة، واللَّمْزة لمستقْصٍ في المحاسبة، وأشد منه أن يُحسبه على مقادير الذَّرَّة وأوزان الخردلة، ومَن يكُن هكذا حِسَابه لحَرِيٌّ أن يتَّقى»[٢].

- الخوف من الله:

قال أبو عبد الله الأنطاكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخَوْف يُكسِب الورَع»[٣].

- تيقن لقاء الله وتوقع الموت:

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورَع مِن ثلاث خِصَال: مِن عِزِّ النَّفس، وصحَّة اليقين، وتوقُّع الموت»[٤].

- المحافظة على السنة، وترك الابتداع:

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد كُنَّا نتحدَّث: أنَّه ما ابتدع رجل بدعة، إلَّا سُلِبَ ورَعُه»[٥].

وقال أبو المظفر السَّمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض ذمِّه لأهل الكلام-: «وهل رأى أحدٌ مُتكلِّمًا أدَّاهُ نظَرُه وكلامه إلى تقْوَى في الدِّين، أو ورع في المعاملات، أو سَدَاد في الطَّريقة، أو زُهد في الدُّنيا، أو إمْسَاك عن حرَام أو شُبهة، أو خشوع في عبادة، أو ازْدِياد في طاعة، أو تورُّع من معصية، إلَّا الشَّاذ النَّادر؟»[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٨٢).
(٢) شعب الإيمان (٢٨٧).
(٣) حلية الأولياء (٩/ ٢٩٠).
(٤) حلية الأولياء (١٠/ ٦٧).
(٥) ذم الكلام وأهله (٥/ ١٢٧).
(٦) الانتصار لأصحاب الحديث (ص٦٥).

• العمل بالعلم:

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذ عمل المؤمن بالعَلْم دلَّهُ علَى الورع، فإذا تورَّع صار قلبه مع الله»[1].

• الزهد في الدنيا:

قال أبو جعفر الصفار رَحِمَهُ اللَّهُ: قالت امرأةٌ مِن البَصْرَة: «حرَامٌ علَى قلب يَدْخُله حبُّ الدُّنيا أنْ يدخله الورع الخَفِيُّ»[2].

وقال أبو جعفر المخولي رَحِمَهُ اللَّهُ: «حرامٌ علَى قلب صحب الدُّنيا أن يسكنه الورع الخفي»[3].

وكثيرٌ مِن المتورعين هم مِن الفُقَراء؛ وذلك لِمَا أصاب النَّاس -والعياذ بالله- مِن الرِّبا، وأكل أموال النَّاس بالباطل، واختلاط الحلَال بالحرَام، ما أصابهم.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيتُ ورِعاً قَطُّ إلَّا محتاجاً»[4].

فمن لم يزهد في الدُّنيا لم يصبر علَى الورع.

• الابتعاد عن الغضب:

قال أبو عبد الله السِّجِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذَا دخَلَ الغضَبُ علَى العقل رَحَلَ الورَع»[5].

• قلة الأكل وقمع الشهوة:

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِفتَاح الزُّهد والعِفَّة والورع: قلَّة الأكل، وقَمْع الشَّهوة»[6].

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٠٥) بتصرف.
(٢) الورع، لابن أبي الدنيا (٢٩).
(٣) تاريخ بغداد (١٤/ ٤١٠).
(٤) تهذيب الكمال، للمزي (٢٨/ ٣٤٠).
(٥) حلية الأولياء (٩/ ٣١٧).
(٦) معارج القدس (ص٨١).

- **قلة الطمع:**

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلَّة الحِرْص والطَّمَع؛ تُورِث الصِّدق والورَع»[١].

- **قلة الكلام:**

عن عبدالله بن أبي زكريا رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «مَن كَثُرَ كلَامُه؛ كثُر سَقَطُه، ومَن كثر سقطه؛ قَلَّ ورعه، ومَن قَلَّ ورعه؛ أماتَ اللهُ قلْبَه»[٢].

- **ترك الجدال:**

كتب الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الحكم بنِ غَيْلَان القيسي: «دَعْ مِن الجِدَال مَا يُفْتِنُ القلب، ويُنْبِتُ الضَّغِينَة، ويُجْفِي القلب، ويُرِقُّ الورعَ في المَنْطِق والفِعْل»[٣].

- **الاشتغال بمعايبنا عن معايب غيرنا:**

سئل إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمَ يَتِمُّ الورَع؟ قال: «باشْتِغَالك عن عيوب الخلق بذَنْبِك، وعليك باللَّفظ الجميل، مِن قلبٍ ذليلٍ، لربٍّ جليل، فكِّر في ذنبك، وتُبْ إلى ربِّك؛ يثبت الورع في قلبك»[٤].

- **الابتعاد عما يضيّع الأوقات بلا فائدة:**

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن شَغَل جوارحه بغَيْر ما أَمَرَهُ الله به؛ حُرِمَ الورع»[٥].

وقال أيضاً: «مَن اشْتغَل بالفُضُول؛ حُرِمَ الورع»[٦].

- **المحافظة على الحياء:**

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَن قلَّ حياؤه؛ قلَّ ورَعُه، ومَن قلَّ ورعه؛ مات قلبه»[٧].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣٥).

(٢) المصدر السابق (٥/ ١٤٩).

(٣) المصدر السابق (٦/ ١٤٠).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ١٦) بتصرف

(٥) شعب الإيمان (٥٠٥٦)

(٦) حلية الأولياء (١٠/ ١٩٦).

(٧) المعجم الأوسط (٢/ ٣٧٠)

الورع المشروع، والورع غير المشروع

الورع المشروع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورَع المشروع هو الورَعُ عمّ قد تُخاف عاقِبَته، وهو ما يُعلم تحريمه، وما يُشَك في تحريمه، وليس في تَرْكِه مَفْسَدةٌ أعْظَم مِن فِعْلِه»[1].

وقد ضرَبْنا لهَذَا الورَع أمثلةً كثيرةً فيما تقدَّم.

الورع غير المشروع:

أ. الغلو في الورع:

إنَّ بعض النَّاس يَزيد في الورَع عن حَدِّه، ويخرج به عن مقامِه المطلوب، وهو غلطٌ فاحش؛ فإنَّ لكُلِّ شيءٍ حدًّا، ومتَى ما تجاوَزَ الإنسان هَذَا الحد؛ فقد خرج عنه، فلذلك لا ينبغي لشَخْصٍ أنْ يَزيد في الورَع، ويَغْلُوَ فيه.

ومِن المسائل التي يغلو النَّاس فيها: ادِّعاء بعضهم أنَّ المَالَ الحرَام إذَا اختلط بالحلَالِ فإنَّه يجب إخراج عَيْن المَال الحرَام، فلو كان الرَّجُل يملك مئة ريال، نِصْفُها حلَال ونِصْفُها حرَام، فتخلص مِن نِصْفِها؛ فإنَّ بعضهم يقول: إنَّه لا ينفعه هَذَا التَّخَلُّص حتَّى يتخلَّص مِن النِّصْف المُحَرَّم بعَيْنِه، وهَذَا مِن الغُلو الخَارج عن حدِّ الورَع.

فإنَّ العلماء قد اختلفوا في المال الَّذِي اختلط حلاله بحرامه:

فبعضهم منع مِن الأكل منه، إلَّا إذا كان الحرام يسيراً.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١١-٥١٢).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي أن يجتنبه، إِلَّا أنْ يكون شيئاً يسيراً، أو شيئاً لا يُعْرَف»[١]

ورخَّص قومٌ من السَّلَف في الأكل مِمَّنْ يُعلَم أنَّ في ماله حرَام، ولكن لا يُعلَم علَى التَّعْيين ما هو الحرام.

قال الزُّهْري رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا بأس أنْ يُؤْكَل منه، ما لم يعرف أنه حَرام بعينه»[٢].

وبعضهم تورَّع عنه مُطْلَقاً.

قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يعجبني ذلك، وتَرْكُه أعجبُ إِلَيَّ»[٣].

لكن، إذَا أخرج قدر المَال الحرام، فيَجُوز التَّصَرُّف فيه.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنْ كانَ المالُ كثيراً، أخرج مِنْهُ قَدْر الحرَام، وتصرَّف في الباقي»[٤].

وقد يدخل الشَّكُّ علَى بعض النَّاس في قضَايَا لا يشرع لهم السُّؤال فيها، فهل يَجُوز لإنسَانٍ دخَلَ علَى بيت مسلم مَسْتُور، لا يُعرَف عنه رِيبَة، ووضع له الطَّعَام، أنْ يقول له. المَال الَّذي اشتَرَيْتَ به هَذَا العَشاء، مِن أيْنَ أتَيتَ به؟!

فهل هَذَا مِن الورع؟! ليس هَذا مِن الوَرَع، بل إنَّ فيه إيذَاءً للمسلم؛ لأنَّ سؤاله هَذَا اتهامٌ له، واتِّهامُ المسلمِ وَوَضْعه في موضع الشَّك بدون قرينةٍ ولا دليلٍ ولا بَيِّنَة لا يجوز، وهَذَا مِن سوء الظَّن، وإيذَاء المُسْلِم حرَام.

ب. ورع المُوسوَسين:

هُنَاك بَعْض الأمُور والقضَايا لا يَجُوز الالْتِفَات إِلَيْهَا، وهي تُعَدُّ مِن ورَع المُوَسْوِسين.

ومثاله، مَا ذكره ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في (فتح الباري) حيث قال: «ورَع المُوَسْوِسين، كمَنْ

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٧٠)

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

يمتنع مِن أكل الصَّيد؛ خشيةَ أنْ يَكُونَ الصَّيد كان لإنسانٍ ثُم أفلتَ منه، وكمن يترك شِرَاء ما يحتاج إليه مِن مجهولٍ لا يدري، أمَالُه حلالٌ أمْ حرَام؟ وليست هناك علامة تدُلُّ على الثَّاني»[1].

ومثالٌ آخر لِوَرع المُوَسْوسِين: قال الزَّرْكَشِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو حلَف لا يلبس غَزْل زوجته، فبعت غَزْلها، ووهبته الثَّمَن؛ لم يُكْرَه أكله، فإن تركه فليس بورع، بل وسواس»[2].

***

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢٩٥).

(٢) المنثور في القواعد (٢/ ٢٣٠).

الورع الدقيق

هناك مسائل مِن الورع الدَّقيق، الَّذي لا يليق بكل الأشخاص.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهَاهُنا أمرٌ ينبغي التَّفطُّن له، وهو أنَّ التَّدقيق في التَّوقف عن الشُّبهات، إنَّما يصلح لِمَن استقامَتْ أحوَاله كلها، وتشَابهتْ أعماله في التَّقوى والورع، فأمَّا مَن يقع في انْتِهَاك المُحرَّمات الظَّاهرة، ثُم يريد أنْ يتورَّع عن شيءٍ مِن دقائق الشُّبهة، فإنَّه لا يُحتمل له ذلك، بل ينكر عليه.

كما قال ابن عمر لِمَنْ سَأله عن دَم البَعُوض مِن أهل العراق: «يسألونني عن دم البعوض، وقد قتلوا الحسين؟! وسمعتُ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنْ الدُّنْيَا»[1]..

وسُئِل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رَجُل يَشْتَري بَقْلاً ويشترط الخُوصة -يعني: التي تربط بها حزمة البقل-، فقال الإمام أحمد: «ما هَذِه المسائل؟! قالوا: إبراهيم بن أبي نعيم يفعل ذلك. فقال: إن كان إبراهيم بن أبي نعيم فنعم، هَذَا يشبه ذاك»[2].

فالخلاصة: أنَّ الورَع منه دقائق لا تَلِيق بأيِّ أحد، بل ينكر علَى مَن تَوَرَّع فيها، إذا كان مِن أولئك الفسَقَة، أو المُتَساهِلين.

***

(١) رواه البخاري (٣٥٤٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١١١).

الخاتمة

إنَّ تَرْكَ الورَع له أضرارٌ ومفاسد عظيمَةٌ علَى المرء، في دينه ودنياه.

يقول سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيُّما عبدٍ لم يتورَّع ولم يستعمل الورع في عمله؛ انتشرت جوارحه في المعاصي، وصار قلبه بِيَدِ الشَّيطان، ومَلَكَهُ»[1].

وقد يكون عدم تورُّع المرء سبباً لإحباط عمله.

قال إياس بن معاوية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ ديانةٍ أُسِّسَت علَى غير ورعٍ؛ فهي هباء»[2].

بل إنَّ ترك الورع يُفسِد الأُمَّة الإسلاميَّة، ويُسَبِّبُ نَزْع الأعمال الصَّالحة مِنْها.

قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «تظهر في النَّاس أشياء؛ يُنْزَع منهم الخشوع؛ بتَرْكِهم الورع»[3].

والورع ليس دعوى يدَّعِيها الإنسان، فيكُون مِن المُتورِّعين، بل لابُدَّ له مِن الاجتهاد والعمَل؛ حتَّى يُحصِّلَه، ويتحقَّق الورَع في قلبه.

وادِّعاء محبَّة الله بدون ورع عن محارمه: كذبٌ علَى النَّفس.

يقول حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن ادَّعَى حُبَّ الله بغَيْرِ ورَعٍ عن محارمه فهُو كذَّاب»[4].

---

(١) حلية الأولياء (١٠/ ٢٠٥)

(٢) تهذيب الكمال (٣/ ٤١٣)

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٢٠٦).

(٤) حلية الأولياء (٨/ ٧٥).

فينبغي للمسلم أن يكون أهم أُمُورِه عنده الورع في دينه، واسْتِعْمَال تَقْوَى الله، ومُرَاقَبته فيما أمَره به ونَهاهُ عنه.

وَوَاظِبْ عَلَى التَّقْوَى وَكُنْ مُتَوَرِّعاً صَبُوراً عَلَى البَلْوَى وَبِالدِّينِ كُنْ شَهْماً[1]

فَطُوبَى لمن كان شِعَارُ قَلْبِه الورَع.

اللهم اجمَع علَى الهُدَى أمْرَنا، واجْعَل التَّقْوى زادَنا، والجنَّةَ مآبَنا، وارْزُقْنا شُكْراً يُرْضِيكَ عنَّا، وورعاً يحجزنا عن معَاصِيك، وخُلُقاً نَعِيش به بَيْنَ النَّاس، وعقلاً تنفعنا به.

اللهم اجعَلْنا هُداةً مُهْتَدِين، غير ضالِّين ولا مُضِلِّين، واغفِرْ لنَا ذنُوبَنا أجْمَعِين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

* * *

---

(١) نشر طي التعريف، للحبيشي (ص٨٥).

اختبر فهمك

فيما يلي مستويان من الأسئلة حول الموضوع: أسئلة حلولها مباشرة، وهي أسئلة المستوى الأول.

وأسئلة تحتاج إلى بحث وتأمل، وهي أسئلة المستوى الثاني.

أسئلة المستوى الأول (المباشرة):

١. ما هو الورع الواجب؟

٢. للورع أربع مراتب، اذكُرْها. وعرِّفْ كُلَّ مرتبةٍ مِن المَراتب.

٣. اذكُر ثلاثةَ أحاديثَ تَدلُّ علَى فَضل الورَع.

٤. لماذا اشتُرِط الورع في القضاء؟

٥. اذكر ثلاثاً مِن صُوَر ورع الصَّالِحين.

٦. اذكر خمساً مِن فوائد الورَع.

٧. ما مَعنَى الغُلو في الورع؟ واذكر أمثلةً لذَلِك.

٨. ما هو تعريف الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ للورع؟

٩. اذكر أقسام النَّاس في الورَع.

١٠. اذكر مِثالَيْن لورع المُوَسْوِسِين.

أسئلة المستوى الثاني (الاستنباطية):

١. ما حقيقة الورع؟

٢. كيف يكون ترك الجدال سبباً مِن أسباب تحصيل الورَع؟

٣. الورع سببٌ للإمْسَاك عن الشُّبهات. وضِّحْ ذلك.

٤. اذكر بعض الأسباب الَّتِي تُعِين علَى تحْصِيل الورَع، غير ما ذُكِرَ مِن الأسْبَاب.

٥. اذكر عدداً مِن الكتب التي اهْتَمَّت بموضوع (الورع).

٦. اذكُر قصَّةً تدُلُّ علَى أنَّ الورع يكون في السِّر، كما يكون في العَلَن.

٧. كيف يكون التَّوَرُّع عن بعض المُباحَات ورَعاً؟

٨. هل يكفِي أنْ يَكُونَ المُسْلم ورِعاً بقَلْبِه؟ وضح ذلك.



أعمال القلوب

مَن تأمَل الشريعةَ في مصادرها ومواردها، عَلِم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفعُ بدونها، وأن أعمالَ القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميِّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كلٍّ واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟ وهل يمكنُ أحدُ الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟

وعبوديةُ القلب أعظمُ من عبودية الجوارح، وأكثرُ، وأدومُ، فهي واجبةٌ في كل وقت، وعبوديةُ الجوارح تجب في وقت دون وقت.

فأردنا في هذا الكتاب أن نطالع بعض معالم تلك العبودية ، ونتعرف على أقسامها، وأنواعها، وثمراتها في الدنيا، مع حسن الجزاء المترتب عليها في الآخرة.

والقلبُ مُضغةٌ في الجسد، إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه.

وهو أميرُ الأعضاء وسيِّدُها، وراعيها، وقائدُها، فلا تصدرُ إلا عن أمره، وكلُّها تحت سلطانه وقهره، متى اهتدى اهتدت، فنجى ونجت، ومتى زاغ زاغت، فهلك وهلكت .

فعلى المسلم أن يراعي هذا الأصل في أقواله، وأفعاله، وحركاته، وسكناته، وخطرات قلبه، وما يحبّ، وما يكره، وما يرجو، ويتمنّى، والمعصومُ مَن عصمه الله تعالى.

نسأل الله أن ينير قلوبنا بالتقوى، وأن يهيئ لنا من أمرنا رَشدا.



المملكة العربية السعودية
الخبر - هـ: ٨٦٥٥٣٥٥
جدة - هـ: ٦٩٢٩٢٤٢
ص.ب ١٢٦٣٧١ جدة ٢١٣٥٢
خصم خاص للتوزيع الخيري: ٠٥٠٤٤٤٦٤٣٢
ISBN: 978-603-8047-82-8
9786038047828